
محمد التابعي
أسمهان
تروي قصتها.


mohamed khatab

اسمهان تروي قصتها..

ولدت في ٢٥ نوفمبر ١٩١٢
وتوفيت في ١٤ يوليه ١٩٤٤

محمد التابعي

أسمهان

تروي قصتها..

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

ايار (مايو) ١٩٦١

مقدمة

في عام ١٩٦١

كتبت قصة المطربة اسمهان في اوائل عام ١٩٤٩...
ونشرت القصة في مجلة (آخر ساعة) .

وقامت وقتئذ ضجة كبيرة ، بل ضجة ثائرة ...
وانقسم الرأي العام الى فريقين. فريق كبير يهاجمني...
ويطلب مني ان اقف ... وان لا امضي في كتابة بقية
القصة والا ... بل وهددني ثري من اعيان الصعيد
بأنه سوف يحضر الى القاهرة لكي يضربني بالرصاص
لانني نكأت جراحه القديمة ... جراح اعجابه ووله
باسمهان !

وفريق قليل العدد أيدني ووقف بجانبي... وطالبني
بالمضي في كتابة القصة حتى نهايتها ...

ومشيت في سرد الرواية او قصة اسمهان ...
وفي كل اسبوع ومع كل فصل جديد كنت اكسب
انصاراً ولما انتهيت من كتابة القصة كان انصاري هم
الكثرة وكان خصومي هم القلة

* * *

ومنذ سنوات يطالبني قراء كثيرون هنا في مصر وفي شتى الاقطار العربية بأن اكمل قصة اسمهان وانشرها مجموعة في مجلد واحد . ذلك انني كنت وقفت عند حد قطع علاقتي معها في اواخر شهر يناير من عام ١٩٤٢ . ومن هنا لم اذكر شيئاً عن الفترة ما بين يناير ١٩٤٢ وشهر يوليه من عام ١٩٤٤ الذي توفيت فيه اسمهان ...

ماذا فعلت ؟ وكيف طلقها زوجها حسن الاطرش ؟ وكيف ولماذا تزوجت احمد سالم ؟ وكيف عادت الى مصر ؟.. وماذا حدث ... ولماذا حاول المرحوم احمد سالم ان يقتلها بالرصاص ؟..

الى آخره ...

هذه هي الفصول الاخيرة في قصة اسمهان وقد كتبتها واكملت بها القصة .

* * *

وعندما أردت ان اكتب كلمة اقدم بها قصة ايميلي الاطرش التي عرفناها باسم المطربة اسمهان ... عدت الى الكلمة التي كنت قدمت بها القصة في مجلة آخر ساعة في اول يناير ١٩٤٩ وقدرت ان الكلمة المذكورة التي كتبتها منذ نحو اثني عشر عاماً لا تزال هي الكلمة التي احب ان اقدم بها اليوم قصة اسمهان ...

نفس الكلمة بدون زيادة او نقص .

وها هي المقدمة التي كتبتها في يناير ١٩٤٩ ،

* * *

في عام ١٩٤٤

أذكر أنني قرأت بين ما قرأت أثناء دراسة القانون انه يحسن بنا ان لا نقرأ مقدمة الكتاب الا بعد الانتهاء من قراءته ! وأن لا تكتب مقدمة

لكتاب الا بعد الانتهاء من كتابته ... ولكنني مع ذلك اكتب مقدمة هذه القصة ولما أمش في كتابتها سوى خطوات . والسبب في ذلك هو انني كنت أعارض حتى الساعة الاخيرة في ان اكتب عن المرحومة آمال الأطرش التي عرفها الجمهور باسم المطربة اسمهان .

ولقد عارضت ورفضت يومئذ ان اكتب لأن اسمهان كانت لا تزال ذكرى قريبة وحية قائمة ولأنه لا يزال بين الأحياء من أهل وأصدقاء من يطوون النفس على جراح دامية . واخشى ان يكون في بعض ما اكتب ما يدمي هذه الجراح ! ثم ان الحديث عن اسمهان قد يسوقني الى الكشف عن اسرار لم يحن لها بعد ان تنشر .. أو قد يتناول شخصيات لها احترام ومكانة في نفوس الكثيرين .. فكيف اذن اكتب عن اسمهان ؟ وهل يكون – وفي دائرة هذه القيود – هل يكون لكتابتي معنى وفائدة ؟!

ولكن أصدقائي وزملائي من أصحاب هذه الدار ومحرريها – وقد استندوا الى عشرات ومئات الخطابات التي جاءتهم من القراء في هذا المعنى – ألحوا على ان اكتب وقالوا فيما قالوه انه إذا كان هناك من يستطيع ان يصف اسمهان وشخصية اسمهان ويروي قصتها وينصفها كمطربة وكفنانة وإنسانة فهو أنت !.. وان أسمهان عاشت ولم يفهمها أحد !.. وماتت ولم يفهمها أحد .. فانشر صورتها على الناس .. صورتها الحقيقية كما عرفتها فلعلك تنصف ذكراها بين الظالمين .

ثم راح أصدقائي وزملائي يضربون لي الأمثال وكيف أن الكاتب الفرنسي فلاناً أخرج للناس كتاباً عن صديقته الممثلة فلانة .. والشاعر الايطالي فلاناً نشر مذكراته عن المغنية فلانة .. وهلم !.. وأخيراً رضيت أن اكتب .. ولكنني احب أن أقولها صريحة من الآن ..

إذا رأى أحدكم في بعض ما اكتب أمراً لا يتفق مع العرف ولا مع الذوق السليم فلن أدافع عن نفسي ! سأقول له .. صدقت وأنا آسف !

وإذا رأى احدكم ان يتهمني بأنني كشفت عما كان يحسن أن يظل

مستوراً عن العيون .. فلن أدافع عن نفسي .. بل سأقول له صدقت .. وأنا آسف .

ولكن أحداً منكم لن يستطيع ان يتهمني بأني لم أنصف اسمهان !

هذه هي المقدمة التي كنت أود ان لا اكتبها الا بعد ان انتهي من كتابة هذه القصة .. ولكنني كما قدمت لم أوافق على الكتابة إلا في الساعة الأخيرة .. ومن هنا أرسلت الى المطبعة الفصل الأول وهذه المقدمة .. ولما اكتب بعد بقية الفصول !. كم عددها ؟ لا أعرف ! ماذا سأقول فيها ؟ لا أدري !

لانني لا أعرف عند أي حد سوف يقف بي الحذر ويقف بي الحرص على حكم العرف وحكم الذوق السليم ! ولا الى أي حد في الصراحة سوف يدفعني الحرص على ذكر الحقائق المجردة رغبة في انصاف الحقيقة وانصاف اسمهان .

م. ت.

١

كيف عرفت أسمهان ؟

رأيت قبل ان ابدأ كتابة هذه السلسلة من المقالات — التي يسميها تحرير « آخر ساعة » مذكرات — أن ابحث بين اوراقي و « مفكرات الجيب » الصغيرة عن التواريخ وبعض الحوادث .

ولقد وجدت أن أول مرة جاء فيها ذكر اسم « اسمهان » في مفكرات الجيب ، كان في يوم الاثنين ١٥ مايو سنة ١٩٣٩ فقد كتبت في ذلك اليوم :

« تعشت عندي اسمهان وشقيقها فريد الاطرش ومحمد عبد الوهاب وذهبنا الى الكيت كات .. واتفقنا على السفر معاً الى اوروبا — ثم عدنا الى مسكني وكان مع فريد فتاة اجنبية من راقصات الكيت كات — وانصرف الجميع في الساعة الخامسة صباحاً »

وفي يوم ١٧ مايو وجدت في مفكرة الجيب ما يأتي :

« كلمتني اسمهان بالتليفون وقالت ان شقيقها فؤاد زجرها عندما سمعها تكلمني أمس بالتليفون حتى انه ابكاها .. ايه

الحكاية ؟ هل هي كوميديا أو حقيقة ؟ »
هذا هو نص ما كتبته في اليوم المذكور بالحرف الواحد .
وفي يوم ١٨ مايو — عيد مولدي — كتبت :
« اهدتني اسمهان ولاعة »
وفي يوم ١٩ مايو :
« اقمت حفلة بمناسبة عيد ميلادي حضرها محمد عبد الوهاب واسمهان ومدعوون آخرون .. ولكن اسمهان انصرفت لغير ما سبب في الساعة الحادية عشرة . وكانت الحفلة باردة .! »

وهكذا .. مضيت في مفكرة الجيب لعام ١٩٣٩ فلم أجد سوى عبارات مقتضبة . ولكنها اشبه بالمفاتيح . المفاتيح الصغيرة نعم . ولكنها مع ذلك تفتح مغاليق الذاكرة وأبواب الذكريات :

ولكنني اعرف واذكر تماماً ان اسمهان لم تتناول العشاء في داري مع شقيقها فريد الاطرش الا بعد ان كان مضى شهر او اكثر على اول مرة قابلتها وتعرفت اليها ، وكان ذلك في اوائل شهر ابريل ومع ذلك فانني لم اكتب اسمها ولم اذكر شيئاً عنها في مفكرة الجيب الا في يوم ١٥ مايو .. لماذا ؟.. لقد بحثت في شهر ابريل فلم اجد حرفاً واحداً عنها . ومع ذلك فأنا اعرف واذكر تماماً انني حدثتها بالتليفون وانها حدثتني بالتليفون مرات في شهر ابريل . فلماذا لم أدوّن شيئاً عن هذا في مفكرة الجيب ؟

لسبب واحد . وهو انني يوم عرفت اسمهان .. لم اهتم كثيراً باسمهان !.. وحسبت انها لن تكون اكثر من « ارتست » ! وما اكثر من عرفت — أو من مررت بهن أو مررن بي ! — في دنيا الموسيقى والرقص والغناء والتمثيل واحدة من كثيرات .. هكذا قدرت ! فلم اهتم بتدوين تاريخ أول يوم قابلتها فيه .. لا شيء من هذا ، لانه لم يخطر ببالي يومئذ — ابريل ١٩٣٩ — أن اسمهان سوف تصبح شيئاً كبيراً في دنيا الطرب وفي عالم السينما .. أو

انها ستصبح ذات يوم حديث الناس وموضع القال والقيل .. او انها ستلعب دوراً في تاريخ الحرب في الشرق الاوسط .. أو انها ستلقى منيتها قبل الأوان فيحزن عليها ملايين المعجبين في الشرق العربي ويبكيها الناس في القاهرة وبيروت ودمشق والرياض وعمان . أو أن شاباً عراقياً من المعجبين المفتونين بها ممن لم يعرفوها الا من صوتها في الراديو ولم يروها الا على شاشة السينما سوف يشهد فيلمها الاخير (غرام وانتقام) ثم يخرج من دار السينما لكي يطلق على رأسه الرصاص ويخر صريع الهوى في احد شوارع بغداد !..

وان آخر في دمشق – عندما سمع بخبر موتها – سوف يتناول السم يطلب الموت ليلحق بها لولا ان تداركوه واسعفوه بالعلاج !

شيء من هذا لم يخطر ببالي يوم عرفتها والا لكنت عنيت منذ البداية بتدوين مذكراتي عنها وتسجيل كل كبيرة وصغيرة !

متى رأيتها وكيف عرفتها ؟

كنت سمعت باسم مطربة ناشئة اسمها « اسمهان » في عام ١٩٢٩ أو ١٩٣٠ لا أذكر تماماً .

ربما كنت قرأت اسمها أو خبراً عنها أو رأيت صورة لها في احدى الصحف الاسبوعية .. أو لعل احدهم ذكر امامي اسمها وتحدث عن صوتها وما فيه من ألوان خاصة .. لا أذكر .

ولكني اذكر ان ماري منصور احدى ممثلات مسرح رمسيس كانت اعتزلت التمثيل والمسرح وافتتحت « صالة » باسمها في شارع عماد الدين وارسلت الي دعوة لحضور حفلة الافتتاح .

ولم اذهب ..

وقابلتني السيدة ماري منصور بعدها مرة في الطريق وعاتبتني وعدتها بزيارة صالتها الجديدة .

وذات مساء وكنت امشي في شارع عماد الدين مع نفر من اصدقاء الصبا والشباب مررنا بصالة ماري منصور . وتذكرت وعدي .. ودخلنا .

وكانت الصالة مزدحمة . ولم نجد مائدة نجلس اليها فوقفنا بضع دقائق نصغي لصوت رقيق حزين !.. صوت فتاة كانت واقفة على المسرح تغني .

وكانت الفتاة نحيلة رقيقة في ثوب اسود اللون وقد لفت رأسها واحاطت وجهها بازار أسود وكانت تغني وهي ساهمة الطرف . تنظر أمامها ولا تلتفت لا يميناً ولا يساراً .. ولا تلقي بالاً الى صيحات السكارى وتأوهات المعجبين !

وكانت المطربة أسمهان . وكانت هذه أول مرة رأيتها فيها . والأثر الذي تركته ليلتها في نفسي هو أنها « شيء » صغير نحيل مسكين يبعث الرحمة في الصدور !

وكان في صوتها الرقيق الحزين شيء ما لا تألفه الاذن لأول مرة .. وان تكن .. تستريح اليه !.. شيء كثيراً ما حاولت ان احدده وأجد له صفة أو وصفاً او اسماً فلم أوفق حتى اليوم !

وكان هذا في عام ١٩٣١ .

ولم أعد بعدها الى صالة ماري منصور . ولم أسع لسماع أسمهان مرة أخرى . بل لعلي نسيت صوت أسمهان ، واسم اسمهان .

وذات يوم قرأت في المجلات المسرحية ان المطربة أسمهان قد تزوجت من ابن عمها وأن ابن عمها هذا هو أمير جبل الدروز واسمه الامير حسن الاطرش .. وأن أسمهان أصبحت أميرة !.. وأن العروس – اسمهان – من أسرة الطرشان الكبيرة التي تحكم جبل الدروز .

وابتسمت . وحسبت أن الأمير والامارة هما كالعادة من خيال المجلات المسرحية .. ولم نكن نعرف يومئذ – كما نعرف الآن – شيئاً يذكر عن الأوضاع في سوريا وجبل الدروز .

كذلك صعب علي أن أصدق أن فتاة من أسرة كبيرة – فيها امارة وأمراء – تحترف الغناء وتغني في صالات شارع عماد الدين .

وكان هذا في عام ١٩٣٣ .
وانقطعت بعدها أخبار أسمهان .. أو بعبارة أصح لم أحاول ولم أهتم باستقصاء أخبار أسمهان . كل ما أذكره انني لم أعد اقرأ اسمها في أخبار المجلات المسرحية .

* * *

وذات مساء في شهر مارس ١٩٣٩ — وكنت قد عدت من أوروبا منذ بضعة أيام — ذهبت الى قاعة « بورت » بالجامعة الأمريكية لسماع أم كلثوم . وكانت المطربة العظيمة تحيي حفلاتها يومئذ في القاعة المذكورة .
وبينما أنا أنزل من السيارة أمام باب الدخول ، وأحاول أن أشق طريقي في الزحام ، رأيت الى يميني وجهاً أعرفه .. هو وجه أحمد حسن المحرر بجريدة البلاغ . ومعه وجه أذكره ! وجه فتاة .. كنت رأيتها في مكان ما في يوم ما !
ولما أخذت مقعدي في القاعة قال لي صديقي الذي كان معي ..
— هل رأيت اسمهان ونحن ندخل ؟
وفجأة تذكرت الوجه الذي كنت رأيته محاطاً بأزار أسود منذ ثماني سنوات !
وقلت : نعم أليست هي التي كانت تتأبط ذراع أحمد حسن ؟
قال : نعم .. ولقد طلقها زوجها كما سمعت ..
قلت : إذن لم تعد أميرة جبل الدروز ؟
وابتسم صاحبي وأجاب :
— كلا . وعادت كما كانت المطربة أسمهان !

* * *

وفي صباح اليوم التالي كلمني صديقي أحمد حسن بالتليفون وقال :

— أسمهان تريد أن تتعرف بك .

قلت : لماذا ؟

قال : لا أعرف . ولكنها طلبت مني أن أعرفها بك ؟

قلت : وهو كذلك . بكل سرور ..

ولكن الأمر وقف عند هذا الحد . ولم يكلمني بعدها أحمد حسن في أمر أسمهان . ولم يدعني لمقابلتها .

أما أنا فقد هززت كتفي وقدرت أنها وقد عادت الى دنيا الطرب والغناء .. أرادت أن تتعرف بي — لأنني صحفي وصاحب مجلة — لكي أشيد بجمال صوتها وأقوم لها بدعاية على صفحات مجلة آخر ساعة ..

وبعد ذلك بنحو أسبوعين — وكنت في مكتبي بآخر ساعة — كلمني بالتليفون الموسيقار محمد عبد الوهاب وسألني :

— بتعمل ايه ؟

قلت : لا شيء على وجه التحديد .

قال : اذن تعال بالعجل .

سألته : لماذا ؟

ضحك وقال : تعال وبس .. أحسن يروح نص عمرك .

وكان مكتب الموسيقار في ذلك الوقت في عمارة آل راتب في شارع الساحة . ودخلت عليه فوجدته جالساً وقد أمسك بعوده .. وأمامه أسمهان . وكان الاثنان يراجعان معاً أغنية — او اوبريت كما يسمونها — قيس وليلى .. وكانت أسمهان تغني لحظة دخلت ..

« ما فؤادي حديد ولا حجر .. لك قلب فسله يا قيس ينبئك بالخبر .. »

وتسللت داخلاً على أطراف أصابعي . وجلست في المقعد الخالي الوحيد وكان بجوار أسمهان .

وكان عبد الوهاب — بين وقت وآخر — يراجعها في بعض النغمات ويصححها لها ويطلب منها أن تغنيها من جديد .

ووجدتني – وأسمهان مشغولة عني بالغناء .– وجدتني أنظر اليها طويلاً وأتأمل وجهها .

هذا وأنا مأخوذ بحلاوة صوتها الحزين الذي فيه شيء ما . شيء يستعصي على الوصف وأن تكن الاذن تستريح اليه .

أما وجهها !..

الحقيقة ان أسمهان كانت جذابة وكانت فيها أنوثة ولكنها لم تكن جميلة في حكم مقاييس الجمال .

وجهها المستطيل . وأنفها الذي كان مرهفاً أكثر بقليل مما يجب ! وطويلاً أكثر بقليل مما يجب ! وفمها الذي كان أوسع بقليل مما يجب ! وذقنها الثائر أو البارز الى الأمام أكثر بقليل مما يجب ..

ولكنّ عينيها !.. عيناها كانتا كل شيء ..

في عينيها كان السر والسحر والعجب .. لونهما أخضر داكن مشوب بزرقة وتحميهما أهداب طويلة تكاد من فرط طولها أن تشتبك !

وكانت أسمهان رحمها الله تعرف كيف تستعمل سحر عينيها عند اللزوم !

* * *

وانتهت « البروفة » – بروفة الاغنية – وقدمني عبد الوهاب لاسمهان .

ومدت هي يداً متثاقلة وقالت بتكلف ساذج وظاهر .. « تشرفنا » !

وفي لحظة واحدة انقلبت أسمهان من المطربة التي كانت تغني من روحها وتذيب قلبها في الغناء .. الى سيدة صالون .. أو الى ما ظنت هي أنه السلوك الذي يجب أن تأخذ به سيدة الصالون .

ومدت يدها تصلح من وضع الفراء الرخيص الذي كان يحيط بعنقها ؟..

وبرق في أحد أصابع يديها خاتم فيه فص زجاجي كبير .. ولكن مفروض أنه من الماس ..

وحارت ساقاها .. أيهما تضعها على الاخرى !

وفي كلمة واحدة كانت حركاتها واشارات يديها ولفتات رأسها كلها متكلفة وغير طبيعية ..

وأدركت أنا أنها تريد أن تحدث أثراً طيباً في نفسي ! وأن هذه هي طريقتها ! ومرة اخرى أحسست أن أمامي « شيئاً » صغيراً مسكيناً يبعث الرحمة في الصدور !

وكان هذا دائماً هو أبرز أثر تركته أسمهان في نفسي طول معرفتي بها .. وهي أنها شيء صغير مسكين يبعث الرحمة في الصدر ويستحق العطف والرثاء !

ولقد حاولت فيما بعد — أي بعد أن زالت الكلفة من بيننا وأصبحنا أصدقاء — حاولت أن أشفيها من هذا التكلف في جلستها وفي حديثها .. واعترفت هي بأنني على حق وحاولت جاهدة أن تكون كذلك . ولكن طبيعتها كانت أقوى من ارادتها .. ومن ثم لم تكن تلقى سادة أو سيدات لأول مرة حتى تغلبها طبيعة التكلف .. واصطناع الحركات واللفتات التي تعتقد انها تحدث أثراً طيباً في نفوس هؤلاء الأغراب الذين تلقاهم لأول مرة !

* * *

وجلسنا نتحدث بضع دقائق عن « الفيلم » وهل ستظهر فيه (المدام) ؟ وكنت أناديها أثناء هذا الحديث .. مدام أسمهان !

وقالت أسمهان أنها لا تجسر على الظهور في أي فيلم والا قتلها أهلها !

وكأنما أدركت هي أنني أوشك أن اسألها « وكيف اذن احترفت الغناء في صالات عماد الدين ولم يقتلك أهلك ؟! » .. لأنها مضت تقول إنها تغني في مصر فقط ولكنها لا تجسر على الغناء مثلاً في صالات دمشق وبيروت وأن الافلام المصرية تعرض في بيروت ودمشق وحلب وطرابلس وبغداد .. الى آخره .

وقال عبد الوهاب انه حاول كثيراً ان يقنعها بالظهور في الفيلم ولكنها رفضت .. ومن ثم سيضطر الى عمل « دوبلاج » . وان فردوس حسن سوف تمثل دور ليلى .. بينما يكون الصوت لاسمهان .

الى آخره .. الى آخره ..

ووقفت أسمهان تريد الانصراف وقمنا نحن أيضاً ..

ونزلنا معاً ، وفي الشارع استدعينا سيارة تاكسي .

مدت اسمهان يدها تحيينا قبل ان تستقل السيارة .

وقال صديقي عبد الوهاب — وبدون ان يستأذني :

— التابعي عاوز يعزمك يوم عنده على العشاء .

وابتسمت هي وقالت :

— بكل سرور ..

ثم التفتت الي تقول :

— نبقى نتكلم بالتليفون .. ونتفق على يوم !

من ١٠٠ جنيه إلى ١٢٠٠٠ جنيه

وانطلقت السيارة باسمهان . وذهبنا محمد عبد الوهاب وأنا لنتناول العشاء في مطعم ما . وحول المائدة قال عبد الوهاب ان الحقيقة ليست كما ذكرت اسمهان من انها تخاف ان يقتلها أهلها اذا مثلت في السينما . وانما هناك عقداً بينها هي وشقيقها فريد الاطرش من جانب وبين الدكتور بيضا احد أصحاب شركة بيضافون من جانب آخر . وهذا العقد يحتفظ للدكتور بيضا بحق ظهورها لاول مرة على شاشة السينما .

ومضى عبد الوهاب يقول ان اسمهان وفريد مضطران لمجاملة شركة بيضافون دائماً وخصوصاً الدكتور بيضا لان له وللشركة عليهما افضالاً كثيرة . وان اسمهان كلما اعوزتها الحاجة — وهي دائماً في حاجة —

تلجأ للدكتور بيضا الذي يقرضها على حساب الفيلم الذي سوف تشترك فيه في يوم ما .. او على حساب الاسطوانات التي سوف تملأها للشركة في يوم ما (١) ..

وسألته أنا عن المبلغ الذي دفعه لاسمهان في مقابل غنائها في فيلمه القادم فقال

— خمسمائة جنيه !

ولكن صديقي عبد الوهاب كان مبالغاً .. لانه ضاعف المبلغ الحقيقي خمس مرات !

---

(١) هذه صورة خطاب من المرحوم الدكتور بيضا مؤرخ في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٧ :

حضرة السيدة الفاضلة اميلي أطرش لاعدمناها ،

تحية وسلاماً وبعده اشكرك لحضورك إلى المحطة مودعة .

عن طيه ترين ثلاث ليرات مصرية وهذا ما أظن أنه يزيد عن مصاريف السفر الى بيروت وأني لا أتوانى في مساعدتك اينما كنت لأنه يصعب علي وأنا أعرف داخليتك اكثر من سواي ان أراك باكية أو صاخبة أو متضايقة . أتأمل ان ينفرج كل شيء أمامك بالقريب العاجل وامام ذلك لا أطلب أو اتطلب غير سلامتك وسلامة العائلة ودمت للمخلص . وانا في رضاك

الدكتور بيضا

وتحت يدي الصورة الاصلية لهذا الخطاب وهو مكتوب بالقلم الرصاص وليس في الخطاب ما يدل على البلد الذي كتب فيه أو ارسل منه . ثم ان اسمهان كانت في نوفمبر ١٩٣٧ لا تزال زوجة الامير حسن الاطرش فلماذا إذن كانت في حاجة حتى ان الدكتور بيضا ارسل لها ثلاثة جنيهات .

الذي استنتجه ان اسمهان كانت قدمت مصر لزيارة أمها وشقيقها واحتاجت لمصاريف سفرها وعودتها الى بيروت . ولكن هل الثلاثة جنيهات كانت تكفي لمصاريف العودة من القاهرة الى بيروت ؟

هذا ما لم افهمه .

ويلاحظ القراء ان الدكتور بيضا يسميها « اميلي » وهو اسمها الحقيقي الذي كانت توقع به على عقود الاتفاق كما يرى القراء في موضع آخر مع هذا المقال .

ولقد استبدلت باسم اميلي اسم آمال وهو الاسم الذي كانت تعرف به بين اصدقائها وصديقاتها .

أما أسمهان فاسمها المستعار في عالم السينما والغناء .

وتحت يدي صورة عقده مع المطربة اسمهان وفيه انه يدفع لها مائة جنيه في مقابل غنائها . أي في مقابل غناء دور ليلى .. وأغنية « محلاها عيشة الفلاح » .

وهذا المبلغ – المائة جنيه – هو كل ما حصلت عليه اسمهان من أول فيلم غنت فيه .

أما أول فيلم ظهرت فيه – تمثيلاً وغناء – وهو فيلم (انتصار الشباب) فقد حصلت على الف وخمسمائة جنيه . ومثلها لشقيقها الاستاذ فريد الاطرش عن التمثيل والتلحين والغناء .

واما فيلمها الثاني والاخير (غرام وانتقام) فان اسمهان تناولت عنه أجراً قدره اثنا عشر الف جنيه !

وهكذا ترى انها حصلت على ١٠٠ جنيه في عام ١٩٣٩ .

وعلى ١٥٠٠ جنيه في عام ١٩٤١ .

وعلى ١٢٠٠٠ جنيه بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ .

وكان أعلى أجر يدفع لمطربة ما في عام ١٩٤٤ هو تسعة آلاف جنيه !

ترى أي أجر كانت تحصل عليه اسمهان الآن لو امتد بها الأجل ؟!

* * *

وسألت عبد الوهاب قبل ان أتركه :

– وهل اسمهان هي التي طلبت منك أن تعرفني بها ؟

قال : كلا ..

قلت : إن احمد حسن كان ابلغني أنها تريد ان تتعرف بي !

قال : لم تذكر لي هي شيئاً من هذا ..

قلت : اذاً لماذا ألححت علي هذا المساء بالحضور لكي تعرفني بها ؟

ضحك وقال : لان اسمهان هي اللي راح « تجيب داغك » ! !

وضحكت أنا وقلت : تفتكر ؟

قال : بل متأكد !
قلت : سوف ترى !

لماذا عرفني عبد الوهاب بأسمهان ؟

تركت عبد الوهاب ومضيت الى داري اسأل نفسي ترى ما الذي كان يقصده بقوله « اسمهان هي اللي راح تجيب داغك » ؟

ظاهر القول طبعاً هو المزاح .

ولكن لماذا ألح علي بالحضور ليعرفني باسمهان ؟

ألكي « تجيب داغي » كما قال ؟

غير معقول ان يكون هذا قصده . ثم اية مصلحة له – وأنا صديقه – في أن « تجيب داغي » اسمهان أو غير اسمهان ؟

ثم هل هو كان يصارحني بها لو كان هذا هو قصده حقاً ؟

أعترف أنه كان سخيفاً مني أن أفكر طويلاً ذلك المساء في عبارة المطرب الموسيقار .. ولكن ألم يشغل أحدكم نفسه مرة بالتفكير في مسألة تافهة وسخيفة ؟ ألم يقع لاحدكم مرة مسألة تافهة سخيفة ومع ذلك فقد جرت الى تفكير طويل عميق ؟

وهكذا شغلت نفسي تلك الليلة بما قاله عبد الوهاب .

وأخيراً انتهيت الى رأي او الى تفسير وهو ان قصد محمد عبد الوهاب والهدف الذي كان يرمي اليه هو الدعاية لفيلمه القادم (يوم سعيد) .

وعبد الوهاب يتقن فن الدعاية كما يتقن فن الغناء ! بل هو بين أمهر من عرفت في فنون الدعاية ! الدعاية المستورة التي لا تظهر فيها يده ولا يمكن أن تنسب اليه !

لقد عرفني باسمهان ، ورأى ان يتحداني او يتحدى فضولي فقال ما قال لكي يثير اهتمامي بها – أو يثير غروري – وهل هناك رجولة برئت

تماماً من داء الغرور ؟

لعل وعسى نصبح – هي وأنا – صديقين ! وسوف يكون من حق الصديقة على صديقها الصحفي وصاحب المجلة – هكذا قدر محمد عبد الوهاب الماكر الواسع الحيلة – سوف يكون من حقها علي أن أشيد بجمال صوتها وأن أتغنى بمواهبها كمطربة وأن أنشر صورتها وأن أتحدث الى قراء « آخر ساعة » في كل اسبوع عن اسمهان وعن اغانيها في فيلم « يوم سعيد » !

ولما كانت اسمهان في عام ١٩٣٩ وبعد غيبة ستة أعوام قضتها في جبل الدروز مجهولة تقريباً عند الجمهور فانه سيكون في هذا كله دعاية – ودعاية مجاناً – لها هي .. ثم وهذا هو الاهم دعاية لفيلم السيد محمد عبد الوهاب !!

قدرت ان هذا هو التفسير الصحيح وابتسمت . وقررت ان ارد على مكر الصديق بمكر أحسن منه وهو ان لا أكتب ولا انشر كلمة واحدة لا عن اسمهان ولا عن فيلم « يوم سعيد » .. الا بعد عرض الفيلم المذكور !

* * *

ولقد بقيت على هذا الرأي او هذا التفسير نحو عام الى كان ذات مساء في صيف ١٩٤٠ – وكنا في رأس البر – وقد جلست أنا واسمهان على شرفة العشة نتحدث عن مقابلتنا لاول مرة في مكتب عبد الوهاب ..

وضحكت هي اثناء الحديث وقالت :

– هل تعرف لماذا عرفني بك عبد الوهاب ؟

قلت : علشان اعمل دعاية لك وللفيلم .

قالت : كلا . غلطان . السبب الحقيقي هو انه كان يريد ان يشمت فيك !

سألتها : كيف ؟

وراحت هي تقص علي كيف كانت اثناء زواجها واقامتها في جبل الدروز

تزور القاهرة من عام لعام .. وكيف انها بدافع حبها للموسيقى وللغناء كانت تغشى اوساط الموسيقيين وكيف تعرفت بعبد الوهاب وكانت شديدة الاعجاب به وبفنه .. وانها كانت تزوره احياناً في داره . وأنه غازلها وأنها بادلته غزلاً بغزل .. ولكن الغزل أو المغازلة — وقفت بهما في أول الطريق .

وهنا سألتها — وكنت قد عرفت خلال هذا العام الذي انقضى على معرفتي بها — أن « الشقاوة » في دمها وان المغازلة طبيعة فيها ..

سألتها : ولماذا وقفتما في أول الطريق ؟

قالت : لانه لم يعجبني .. وعبد الوهاب في مجلس الغناء شيء يعجب ويفتن .. وأما في مجلس العشق والغزل فانه شيء آخر .. شيء لا يعجب ولا يفتن ..

ضحكت انا وقلت : هذا رأي لن تجدي سيدة اخرى تقرك عليه !

قالت : ربما .. فهناك نساء وفتيات يعجبن بهذا النوع من الرجال .

قلت : أي نوع ؟

قالت : الرجل المغرور !.. ان عبد الوهاب يريد دائماً من المرأة التي يحبها ان توفر عليه كل عناء الحب ! عليها هي ان تكون لها جرأة الرجل وإقدام الرجل .. وان تترك له هو — لعبد الوهاب — حشمة المرأة وحياءها وخفرها !.. اي ان الاوضاع تنقلب ! هو يجلس مطرقاً برأسه .. وعلى المرأة ان تزحف اليه على ركبتيها . وليس عليه الا أن يتفضل ويتقبل منها حبها وقبلاتها وخضوعها تحت قدميه !.. هذا هو حب عبد الوهاب (ثم هزت رأسها بشدة وهي تقول) : لم يعجبني .. أبداً لم يعجبني !

ثم مضت تقول ان عبد الوهاب حاول بطريقته الخاصة ان يخضعها لحبه هذا أو لما يظن انه الحب فلم يفلح . وانه عاود المسعى بعد عودتها الى مصر وطلاقها فلم يوفق .. واخيراً قال لها — وكان ذلك يوم عرفني بها — قال : (سأعرفك اليوم بالرجل اللي راح يجيب داغك) .

وضحكت أنا طويلاً وسألتها : هل قال لك ذلك حقاً ؟

قالت : نعم

قلت : ولكنه قال لي نفس العبارة في نفس اليوم .. قال لي بعد أن انصرفت أنت (ان اسمهان هي اللي راح تجيب داغك) ..

وضحكنا طويلاً . واخيراً قلت :

– اذن فقد كان مراده ان يجيب احدنا داغ الآخر .. ويقف هو يضحك من المغلوب !

قالت : تماماً .

قلت : ولكن .. افهم انه كان يريد ان اجيب أنا داغك لكي يشمت فيك وينتقم منك على إعراضك عنه . ولكن لماذا كان يريد ان تجيبي داغي وأنا لم اسيء اليه في شيء ؟

ضحكت رحمها الله وقالت :

– هل سمعت حكاية « اشمعنى بنتنا احنا اللي فقدت عفتها .. وبنت الجيران لأ ؟ »

وهي حكاية لا تنشر !

ثم مضت تقول :

– لعله كان يعزيه ويعزي كرامته المجروحة ان يراك قد فشلت كما فشل هو وأن يراك صريع الهوى طريحاً تحت قدمي !

ثم ابتسمت وقالت :

– على فكرة مين فينا اللي جاب داغ التاني .. أنا والا أنت ؟

وابتسمت بدوري وقلت :

– ايه رأيك ؟

ومالت هي برأسها قليلاً الى جانب وتظاهرت بأنها تفكر طويلاً ثم قالت :

– أظن أننا احنا الاتنين جبنا داغ بعض !

قلت : يعني نبقى خالصين ؟

قالت : اليس كذلك ؟
قلت : وهو كذلك !

* * *

هذا ما قالته لي اسمهان ذات مساء في صيف ١٩٤٠ عن صديقي عبد الوهاب ولماذا حرص على ان يعرفني بها .

ولكن الانصاف يقتضيني ان اقرر هذه الحقيقة وهي ان الصدق وعدم المبالغة لم يكونا دائماً من فضائل اسمهان يرحمها الله !

واعود الآن الى سياق الحديث .. اي الى غداة اليوم الذي عرفت فيه اسمهان

قابلتها في المعادي ثم تحدثنا في مسكني

مرّ يومان أو ثلاثة قبل ان اطلبها ذات صباح بالتليفون . وكانت تسكن وقتئذ في حدائق القبة .

ورد علي صوت سيدة . وذكرت لها اسمي وقلت اني اود محادثة السيدة اسمهان .

وقالت السيدة أنها والدة اسمهان (وقلت أنا : تشرفنا !)

— .. وعن اذنك دقيقة واحدة حتى ادعوها من حجرتها ..

وسمعت صوت السيدة الأم — وهي تنادي « ايميلي .. ايميلي .. »

وظننت أنا أنها تنادي خادمة اسمها ايميلي لكي تطلب منها ان تنادي سيدتها اسمهان !

ولكن السيدة كانت تنادي ابنتها ولم اكن عرفت يومئذ ان اسم اسمهان الحقيقي هو ايميلي أو آمال .. بل كنت أظن ان اسم اسمهان .. هو اسمهان !

وسمعت صوت اسمهان في التليفون وحييتها وقلت :

— آسف اذا كنت ازعجتك في ساعة مبكرة (كانت الساعة العاشرة

صباحاً تقريباً)
قالت : ابداً ..
قلت : اذن لم اكن السبب في ايقاظك من النوم ؟
ضحكت وقالت : كانت تبقى صبيحة هنيه لو كنت ايقظتني من النوم ؟!
وتحدثنا قليلاً في هذا المعنى ثم سألتها متى تود ان تتناول العشاء في داري
قالت : وحدي أو أنا وفريد ؟
قلت : كما تحبين ..
قالت : أظن الافضل ان يكون فريد معنا .
قلت : وهو كذلك ..
قالت : اذن أمهلني ريثما اتفق مع فريد على اليوم .. اين استطيع ان اكلمك هذا المساء ؟
قلت : في مكتبي ..
قالت : إذن سوف اكلمك بالتليفون .
وفي المساء كلمتني بالتليفون وقالت انها في المعادي فهل استطيع ان اذهب الى المعادي لكي تعود معي الى القاهرة في سيارتي ؟
قلت : بكل سرور .
قالت : سأكون الساعة كذا في انتظارك في كازينو سان جيوفاني .
وذهبت اليها فوجدتها جالسة وحدها الى مائدة وأمامها قدح شراب وقالت أنها كانت تزور صديقتها (امتثال) كريمة فلان باشا من اعيان اسيوط .
ثم قالت بابتسامة انها أرادت ان تلقاني على انفراد ..
— علشان نعرف بعض كويس قبل ان اقبل دعوتك لتناول العشاء .
— وهل مقابلة واحدة تكفي لكي يعرف كل منا صاحبه ؟
قالت : لا .. ولكن شوية شوية !
وضحكت أنا وقلت : على مهلك .
ثم ركبنا معاً السيارة الى القاهرة وفي الطريق سألتني :

– عندك ويحكي في البيت ؟
قلت : نعم .. هل نذهب الى البيت ؟
قالت بابتسامة : إذا لم يكن هناك مانع !
قلت : اي مانع ؟
قالت : ما اعرفش . يمكن فيه حد هناك ؟
قلت : لا أحد .. وأنا اعيش وحدي :
قالت : دائماً ؟
قلت : دائماً .. ولكن لماذا تسألين ؟
قالت : لاني سمعت عنك كثيراً . وبعض ما سمعته لا يتفق مع ما تقول .
قلت : لا تصدقي كل ما تسمعينه عني ..
ابتسمت وقالت : وأنت ايضاً لا تصدق كل ما تسمعه عني !
قلت : ولكني لم اسمع شيئاً ..
قالت : ربما لانك لم تهتم بالسؤال .
قلت : وهل اهتممت أنت بالسؤال عني ؟
قالت : ربما !
قلت : لماذا ؟
قالت : حتى يمكنني ان افهمك وافهم اخلاقك !
قلت : لن تفهمي اخلاقي مما يقوله الناس عني .. إن اكثره ظلم أو مبالغ فيه
قالت : وهل هناك دخان من غير نار ؟
ولكني تركت سؤالها وسألتها :
– ولكن لماذا تريدين ان تفهمي اخلاقي ؟
ضحكت وقالت : عايزه كده ! عندك مانع ؟
وضحكت أنا ايضاً وقلت : ابداً .

* * *

وكنت طلبت من السائق ان يذهب بنا الى مسكني .

وجلسنا نتحدث وفي يدها قدح من الويسكي .

وتقول لي ذاكرتي اننا كنا في جلستنا الاولى هذه متحفظين او متحفزين . كان كل منا يرقب ويدرس صاحبه ويحاول ان يتبين مواطن القوة ومواطن الضعف فيه .. اشبه بالملاكمين حينما ينزلان الى الجولة الأولى !

أما أنا فقد كنت سمعت من عبد الوهاب ان هذه الفتاة « هي اللي راح تجيب داغي » .. ولهذا رأيت من الحكمة ان اكون منها على حذر وان لا اخطو معها الا على مهل .

وهي كذلك كانت قد سمعت نفس العبارة من صديقنا الموسيقار .

وطالت بنا هذه الجلسة او هذه الخلوة نحو ساعة او اكثر .. ولقد خرجت منها بأن اسمهان ذكية الفؤاد سريعة الخاطر حلوة الحديث تجيد فن الغزل وما فيه من الوان الدلال وضروب الكر والفر ..

.. وانها تسرف في الشراب إسرافاً لم أعرفه في امرأة سواها . ولقد قالت هي مرة عن نفسها (ما اقدرش اشوف الكاس مليان ولا اقدرش اشوف الكاس فاضي !)

وهذه حقيقة شهدتها بعيني . فقد كان القدح لا يكاد يوضع أمامها ملآناً حتى تحتسيه وتفرغه الى آخر قطرة .. ثم تعود وتملأه .. ثم تحتسيه وهكذا ..

وكانت قدرتها على الشراب لا حد لها . وكم من مرة ضمها مجلس واحد مع سيدات ورجال .. فشربت هي وحدها قدر او اكثر مما شرب الآخرون جميعاً .. هذا دون ان تتأثر قواها او يبدو عليها انها سكرت ..

بل كم من ليلة قضتها في الشراب – اثناء عملها في فيلميها انتصار الشباب وغرام وانتقام – ثم اصبحت بعد نوم لم يطل اكثر من ساعتين او ثلاث ساعات – وذهبت الى الاستوديو وسجلت اغانيها .

وكنت اعجب لهذا الصوت !! الا يتأثر من هذا الاسراف في التدخين وهذا الاسراف في الشراب !! والاسراف كلمة خفيفة .

وخصوصاً بعد ان عرفت انها كانت تشكو من احدى رئتيها ..
هذا الصوت الذي اشجى الملايين واحبته الملايين .. والذي احتفظ بقوته وصفائه وعذوبته ورنينه الذهبي بالرغم من الرئة الضعيفة المصابة .. وبالرغم من الاسراف في الشراب والاسراف في التدخين .

هذا الصوت !. بل اي صوت كانت اسمهان تطلع به على الدنيا .. وتبهر به الدنيا لو انها عرفت كيف تحكم نفسها وتعيش كما تعيش المطربة او كما يجب أن تعيش ! عيشة الاتزان والاعتدال والبعد عن التدخين وعن الشراب !

ولكن اسمهان كانت مسرفة في كل شيء . وكان إسرافها في صحتها يفوق اسرافها في كل امر آخر .

اذكر مرة وكنت جالساً معها في حجرة جلوسها بفندق الملك داود في القدس .. وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر او نحو ذلك ..

وتناولت هي التليفون تطلب من ادارة الفندق ان يرسلوا لها زجاجة ويسكي وبعض زجاجات ماء بريه .

وقلت أنا :

– حرام عليكي ايه الجنان ده ؟ دي الشمس لسه طالعه ..

وضحكت هي وقالت :

– طيب ما تزعلش ..

وقامت الى نوافذ الحجرة فاحكمت اغلاقها واسدلت الستائر واضاءت مصابيح الكهرباء .. وعادت الى مقعدها وهي تقول :

– خلاص ما تزعلش بأه !.. ادحنا بقينا بالليل !

وفي مرة اخرى ، وكنت لاحظت ان شقيقيها فؤاد وفريد الاطرش لا يقربان الخمر الا نادراً .. واذا شرب احدهما فقدحاً واحدة .

وسألتها لماذا هي دون شقيقيها تسرف هذا الاسراف في الشراب فقالت وهي تضحك :

— كان لازم واحد فينا يحافظ على سمعة الوالد !..
ثم قالت انها ورثت حب الشراب عن أبيها فهد الاطرش .
وقد توفاه الله قبل ابنته بقليل .

• • •

وفي مرة اخرى — وكنا في رأس البر — قال لي الوزير السابق ورئيس مجلس الشيوخ الاستاذ محمد محمود خليل — بعد ان رأى اسمهان لاول مرة — قال :

— البنت دي تقدر تكتسح أمامها عالم الغناء في مصر . فهي جميلة ومهذبة ومتعلمة وبنت أصل Elle est racée (لان سعادته كان يكلمني بالفرنسية) وصوتها جميل وهكذا اجتمعت لها صفات ومواهب لم تجتمع لاية مطربة اخرى .

وأعدت عليها ما قاله محمود خليل ورحت انصحها للمرة لا ادري كم واقول لها :

— انك تحبين الترف والعيش الرغد والملابس الانيقة .. وكل ما هو جميل في الحياة .. ولا سبيل لتحقيق هذا كله الا بالمال والمال الكثير . ولست انت فيما عرفته عنك من النساء اللاتي يرضين لانفسهن بالنزول الى سوق المذلة والهوان من اجل المال .. فلم يبق أمامك اذن من سبيل للحصول على ما تشتهين سوى فنك .. فن الغناء .. فهلا استطعت ان تحكمي نفسك وتحكمي نزواتك وتقبلي على عملك وفنك وتكرسي نفسك وجهودك وقواك للغناء .. والغناء وحده . وأنا واثق من انك قادرة في خمس سنوات فقط على جمع ثروة تعينك على العيش الذي تشتهين .

وابتسمت رحمها الله وقالت :

— وهل أنت تضمن لي ان اعيش هذه السنوات الخمس ؟. او أعيشها وأعيش بعدها لكي اتمتع بالثروة التي اجمعها ؟. صدقني انني لن اعيش

طويلاً .. بل اني اشعر انه لم يبق لي من العمر الا أقله !. دعني اذن اعيش اليوم كما اشتهي !

وهذه ذكريات قطعت علي سياق الحديث !

* * *

ونظرت اسمهان الى ساعة يدها ونهضت واقفة وهي تقول أنها على موعد مع شقيقها فريد الاطرش في ملهى الكيت كات . وسألتها متى تجيب دعوتي للعشاء فقالت ان فريد مشغول طول هذا الأسبوع وانها سوف تكلمني مرة اخرى بالتليفون .

* * *

وكلمتني وكلمتها بالتليفون مرة او مرتين .

وتقابلنا مرة او مرتين .

وذات مساء — الاثنين ١٥ مايو ١٩٣٩ وهو اول يوم بدأت ادون فيه شيئاً ما عن اسمهان — دعتني لمقابلتها في « بار فندق الكونتننتال » وهناك لقيتها وشقيقها الاستاذ فريد الاطرش .

وقمنا الى داري حيث كان ينتظرنا الاستاذ محمد عبد الوهاب ..

وتناولنا العشاء ثم ذهبنا الى الكيت كات .. الى آخر ما سبق ان ذكرته نقلاً عن مفكرة الجيب .

وبعد هذا بيومين اثنين او على وجه التحديد في يوم الخميس ١٨ مايو كلمتني بالتليفون ودعتني لمقابلتها في ستوديو مصر بشارع الهرم لكي أحضر تسجيل اغنية « محلاها عيشة الفلّاح » وهي إحدى اغنيات فيلم (يوم سعيد) .

ولبيت الدعوة وذهبت .. ولقيت هناك الاستاذ محمد عبد الوهاب .

وأخذني الموسيقار من ذراعي الى ركن وقال :

— عايز اطمئن !.

قلت : تطمئن على ايه ؟

قال : جابت داغك والا لسه ؟

قلت : لسه !

قال : حاسب على روحك منها !

قلت : متشكر !

وكان هذا كما قلت في مايو ١٩٣٩ ولم اكن قد سمعت بعد رواية اسمهان .. التي قصتها علي في رأس البر في صيف ١٩٤٠ وأشرت اليها في صدر هذا الفصل .

فؤاد الأطرش

وانتهى تسجيل الاغنية . وأقبلت عليّ اسمهان تحييني وأخرجت من حقيبة يدها شيئاً وضعته خفية في جيبي — حتى لا يراها احد وخصوصاً شقيقها — وقالت :

— كل سنة وانت طيب ..

فقد كان اليوم — ١٨ مايو — عيد مولدي .

اما الشيء الذي وضعته في جيبي فكان « ولاعة » للسجاير .

ثم اشارت بيدها الى شاب كان يجلس بمفرده في ركن بعيد من قاعة التسجيل فنهض واقبل نحونا ..

وقالت وهي تقدمه الي :

— أخويا الكبير فؤاد ..

وتبادلنا التحية . ثم ذهبنا الى فندق مينا هوس حيث تناولنا نحن الثلاثة طعام العشاء .. ثم عدت بهما الى ستوديو مصر حيث تركتها وانصرفت أنا الى داري .

ويحسن بي ان اقف هنا قليلاً لكي اتحدث عن الشقيق الاكبر لاسمهان السيد فؤاد الاطرش .

مؤدب . ناعم الملمس . ولكن الغاية تبرر عنده الوسيلة ..

كانت تخاف منه .. ولكنها لم تكن تحبه بعكس شقيقها فريد فانها كانت تحبه وتحترمه . وكان بين الاثنين — فريد واسمهان — صداقة قبل ان تكون هناك اخوة .

كانت اسمهان تلجأ الى فريد كلما ضاقت بها الدنيا وتبكي على صدره وتشكو له سرها . بل وتبوح له بما كانت تخشى ان تبوح به لأمها او لشقيقها فؤاد .

وكان فريد يفهم اسمهان . وكان يقول في ذلك وهو يبتسم :

— انها فنانة وأنا افهمها لأنني فنان !

وكان فريد أبيّ النفس معتزاً برجولته . عرف الضيق — أو ضيق ذات اليد — في اول عهده بالنضال في سبيل العيش والشهرة ، ولكنه كان حريصاً دائماً على ان يدفع نصيبه من نفقات البيت . كما انه عمره ما مد يده الى اسمهان يسألها ان تقرضه مالاً او تعطيه في الوقت الذي كانت فيه اسمهان تلعب بالمال !

أما فؤاد ..

ومع ذلك فإن سياق الحديث سوف يضطرني للعودة الى فؤاد الاطرش والى ما قاسته منه شقيقته اسمهان ولكنني سوف أختصر كثيراً ! واحذف كثيراً ليس إكراماً له .. وانما إكراماً لذكراها هي يرحمها الله .

ويكفي الآن ان اذكر هذه الواقعة وتاريخها الاحد ٣ مارس ١٩٤٠ كما هو مدون بمفكرة الجيب .. وسوف اعود اليها فيما بعد بالتفصيل .

لجأت الي اسمهان في مساء ذلك اليوم شاكية باكية .. فقد كان فؤاد ضربها ضرباً مبرحاً !

سألتها : ماذا يفعل فؤاد ؟. اعني من اي مصدر يعيش ؟

هزت كتفيها وسكتت !

قلت : ليس له عمل ولا مصدر رزق معروف !

وسكتت هي ولم تجب .

قلت : ما رأيك اذا ذهبت غداً الى وزارة الداخلية وقابلت فلاناً — وهو موظف كبير — وسألته لماذا تسمح الوزارة بالبقاء في مصر لرجل ليس له عمل ولا مصدر رزق معروف ..

وكان فؤاد يحمل في ذلك الوقت جواز سفر فرنسي لأن سوريا كانت وقتئذ مشمولة بالانتداب الفرنسي . ولكن اسمهان اسرعت ترجوني ان لا أفعل .. لانه قد يعتقد انها هي التي أوحت الي بهذا . ثم اضافت ..

ومع ذلك لا اعتقد أنك تنجح في مسعاك .

قلت : لماذا ؟

قالت : لأن الشاذلي باشا صديق لفؤاد .

وعبد السلام الشاذلي باشا كان وقتئذ عضواً في وزارة علي ماهر باشا .

٢

العقد النفسية التي كانت تحكمها

كانت تكره الغناء أمام السيدات

وفي اليوم التالي – اي الجمعة ١٩ مايو – اقمت حفلة ساهرة في مسكني بمناسبة عيد مولدي .. وغنى عبد الوهاب وغنت اسمهان .

وانصرفت هي مبكرة في الساعة الحادية عشرة واكتفت وأنا أشيعها الى الباب بالاعتذار بأنها متعبة ..

وأخرجت أنا محفظة الجيب وهممت أن افتحها ولكنها مدت يدها بسرعة وقالت :

– ماذا تريد أن تفعل ؟

وكان في نيّتي أن أقدم لها أجراً عن غنائها في الحفلة !

ولما لم اجب .. مدت هي يدها واعادت المحفظة الى جيبي وهي تقول :

– يا عيب الشوم .. عايز تعطيني اجرتي والا عايز تعطيني ثمن الولاعة اللي اهديتها لك امس ؟

وخجلت أنا واعتذرت. ثم سألتها هل ضايقها شيء ما في الحفلة حتى تنصرف في هذه الساعة المبكرة . ولكنها اكتفت كما قلت بالاعتذار بالتعب .

ولكنها لم تكن متعبة لانها انصرفت من داري الى ملهى الكيت كات ..

والحقيقة كما عرفتها فيما بعد أن اسمهان كانت تكره او تأنف من الغناء امام السيدات .. اللهم الا إذا كن من صديقاتها القديمات .

وكان في حفلتي هذه عدد من السيدات مع ازواجهن !

عادت اسمهان مرة بعد حفلة غنت فيها في دار أحد أفراد اسرة البدراوي أو أسرة ابي الفتوح لا اذكر — وكانت حفلة زفاف .

وسألتها : هل أجادت الغناء ؟

قالت : كلا . بل غنيت زي الزفت !.. وغنيت وصلة واحدة وهربت من الحفلة ..

ثم مضت تقول ويكاد الدمع يطفر من عينيها :

— أحسن مني في ايه الستات دول علشان اقف أمامهم اغني ؟. الله ينعل ابو الزمن اللي خلاني اغني علشان أكل العيش !

والحقيقة أن اسمهان كانت تعاني يومئذ في مجالس السيدات وأمام السيدات من عقدة نفسية ولعلها مركب النقص !

لم تكن نسيت تماماً في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ انها كانت الاميرة آمال حسن الاطرش ، اميرة جبل الدروز .

كانت تعتقد أنها ارفع حسباً ونسباً من هؤلاء السيدات ! فلماذا تقف أمامهن — أو بين ايديهن — موقف « الارتست » الاجيرة ؟!. تغني لهن في مقابل كذا من الجنيهات !

ولكن هذه العقدة النفسية او مركب النقص هذا كان مقصوراً فقط على مجالس السيدات !

أما الرجال فان اسمهان لم تكن تجد حرجاً — ولا ما يمس كبرياءها — في ان تغني لهم وأمامهم وفي كل مجلس وفي اي مكان ، لانها شأن الفنانة الاصيلة كانت حقيقة تحب ان تغني .. ولانها رحمها الله كانت تنظر الى

الرجال عامة على أنهم اطفال بين يديها .. يمكنها دائماً ان تحركهم كما تشاء .. وتسخرهم كما تشاء .. وتلهو بهم وتلعب ثم تصرفهم حينما تشاء !

كانت شديدة الاعتداد بنفسها وبقوتها أمام الرجال ..

ولكنها كانت تحس بضعف مركزها أمام السيدات !

ربما لأنها غير متزوجة .. بينما هن سيدات محصنات متزوجات !. ومهما تلطفن بها وتأدبن معها في الحديث فانها ستلمح دائماً في عيونهن نظرة « السيدة » الى « الارتست » !

دعتها مرة الاميرة شويكار الى حفلة خاصة في قصرها وكنت أعرف مما سمعته من اسمهان نفسها ان الاميرة شويكار تعطف عليها وتحبها وانها كثيراً ما اغدقت عليها وأجزلت لها في العطاء .

ولكن اسمهان اعتذرت بالمرض من عدم قبول دعوة الاميرة .. وكانت هذه ثالث أو رابع مرة تعتذر فيها اسمهان من عدم قبول دعوة الاميرة شويكار مع أنها كانت في ذلك الوقت تعاني ضيقاً مالياً مستحكماً !

وقالت لي يومئذ اسمهان :

– عايزاني أروح واقف اغني أمام شوية ستات !. علشان ايه ؟ علشان ما هي اميرة ؟. وأنا كمان اميرة !!

* * *

وبهذه المناسبة ..

اود ان اقرر هذه الحقيقة وهي أنه لا يوجد امير واحد او اميرة واحدة في اسرة الاطرش او الطرشان كما يسمون انفسهم .

وان كبير الاسرة وزعيمها الشيخ الجليل سلطان « باشا » الاطرش لم يزعم لنفسه في يوم ما ولا زعم له احد انه امير . وكل ما هنالك هو انه كان يحمل لقب الباشوية الذي كانت الحكومة التركية في عهد السلطنة العثمانية قد انعمت به عليه .

وحسن الاطرش زوج اسمهان كان في عهد الانتداب الفرنسي محافظاً لجبل الدروز .

وكان لقبه الذي ينادى به « المير حسن الاطرش » .

ثم حرفت « المير » الى « الامير » .

ولعل « المير » هذه هي نفسها مأخوذة من كلمة « Maire » الفرنسية ومعناها عمدة او محافظ .

* * *

ولكن اسمهان كانت تتمسك دائماً بلقب الامارة المزعومة هكذا كان يوحي اليها مركب النقص الذي كانت تعاني منه في تلك الأيام .

اسمي آمال ... لا اسمهان !

وفي الصباح – أي غداة الحفلة التي اقمتها في داري – ارسلت اليها في دارها سلة من الزهور ومعها بطاقة كتبت عليها كلمة شكر وكتبت العنوان هكذا : (الى السيدة المحترمة المطربة اسمهان) .

وكانت ثورة !. وانفجرت اسمهان في التليفون ..

بدأت حديثها بقولها : (يظهر اننا مش رايحين نفهم بعض !)

ثم مضت تقول أنها تمقت اسم اسمهان .. وان اسمهان ليس اسمها .. وانما هو اسم مستعار تخفي وراءه اسمها الحقيقي واسم اسرتها حرصاً منها على عدم جرح كبرياء الاسرة . وانها سكتت وصبرت عليّ في اول الأمر عند ما كنت أناديها (مدام اسمهان) لأننا لم نكن بعد صديقين .. ولكن أما وقد أصبحنا كذلك فإن اصدقاءها ينادونها باسمها الحقيقي وهو آمال !. والاغراب وحدهم هم الذين ينادونها اسمهان ! فهل أنا صديق او غريب ؟!

ومضت تقول في ثورتها :

– وحكاية المطربة دي انساها احسن لك .. اذا كنت تود ان نظل صديقين ! أما اذا كنت عرفتني فقط علشان صوتي وعلشان اغني لك .. فمن النهار ده أنا من هنا .. وأنت من هناك !

يعني نقطع صداقتنا ..

الى آخره .. الى آخره !.

وطبعاً اكدت لها انه لم يدر ببالي مطلقاً ان لها اسماً غير اسم اسمهان وان هذه اول مرة اسمع فيها ان اسمها آمال ..

وما زلت بها حتى هدأت ثورتها .

* * *

ولكن اسمها الحقيقي هو ايميلي كما ذكرت وقد استبدلت به اسماً عربياً هو آمال .

وايميلي Emily هو اسمها المدون في جواز سفرها « الباسبورت » وهو كذلك اسمها المثبت في عقد زواجها العرفي بالاستاذ احمد بدرخان المخرج السينمائي المعروف .

وأما الاسماء التي ساقها السيد فؤاد الاطرش فيما ينشره عن شقيقته فلا أصل ولا ظل لها من الحقيقة .. فلم يكن اسمها في يوم ما ولا عرفت في يوم ما باسم (بحرية او حرية او امل) الى آخر ما قاله فؤاد المذكور !

وقد يقول القراء « ولكنها كانت مسلمة فكيف كان اذن اسمها ايميلي وهو اسم لا يتسمى به سوى المسيحيات وبنات اسرائيل ؟ »

والحقيقة هي ان طائفة الدروز الفاطميين التي تنتمي اليها اسرة الطرشان الكبيرة – ومن افرادها اسمهان او ايميلي – تطلق على ابنائها وبناتها اسماء عربية صميمة من اسماء المسلمين واسماء اجنبية لغير المسلمين .

* * *

وأمشي في مذكراتي او مفكرة الجيب فأجد أننا: اسمهان وشقيقها وأنا تناولنا العشاء معاً في مساء الاثنين ٢٢ مايو وذهبنا بعدها الى ملهى « بيكاديللي » ثم الكيت كات .

واننا أمضينا معاً السهرة في يوم ٢٣ مايو ..

وفي مفكرة الجيب كتبت يومها :

« كلمتني اسمهان بالتليفون الساعة الثالثة والنصف صباحاً بعد عودتها الى دارها لكي نتفق على موعد غداً »

وكما يرى القراء كنت لا أزال أشير اليها في (مفكرة الجيب) باسم اسمهان .. وفي يوم ٢٦ مايو كتبت :

« ذهبت اسمهان اليوم الى عزبة .. فلان ! مع انها كانت قالت لي امس أنها مدعوة في عزبة كريمة يحيى ابراهيم باشا . وهكذا هيأت لي فرصة للغضب ووضع حد لهذه الصداقة ! »

وأما فلان الذي ذهبت اسمهان الى عزبته .. فقد كان احد أصحاب المعالي الوزراء وكان في وقت ما وزيراً للزراعة .

وفي يوم ٢٨ مايو :

«كنت اليوم على موعد مع اسمهان ولكنها لم تحضر ولم تعتذر ! »

وفي يوم الاثنين ٢٩ مايو :

« كلمتني اسمهان في الصباح لكي تخبرني انها ستسافر اليوم الى الاسكندرية لأن الامير فواز الشعلان عاد من اوروبا وقد دعاها لمقابلته في الاسكندرية .. وقد رددت عليها أنا ببرود .. ولم اهتم بسؤالها لماذا يدعوها فواز الشعلان لمقابلته .. أو لماذا تهتم هي بتلبية دعوته ! »

وفواز الشعلان من امراء القبائل الكبيرة الضاربة في صحراء سوريا .. وهو صهر آل سعود .

وفي يوم ٣٠ مايو :

« كلمتني اسمهان بالتليفون لكي تلح عليّ بالسفر اليها في الاسكندرية لأني وحشتها .. طبعاً لن اسافر ! »

وفي يوم الاربعاء ٣١ مايو :

« كلمتني اسمهان بالتليفون في المساء ، وقلت لها انني لن أسافر الى الاسكندرية . »

وفي يوم الجمعة ٢ يونيه :

« عادت اسمهان من الاسكندرية وزارتني الساعة السابعة مساء واستقبلتها ببرود .. وانصرفت وهي غاضبة .. »

وفي يوم السبت ٣ يونيه :

« زارتني اسمهان وأمضينا في الحديث والمناقشة نحو اربع ساعات . وقالت هي انه من الخير لنا أن نقطع صداقتنا .. فوافقتها وقلت لها ان هذا هو تماماً ما كنت أريد أن أقوله لها وخرجت على ان لا تعود .. والحمد لله ! »

وفي يوم الاحد ٤ يونيه :

« كلمتني اسمهان بالتليفون ودعتني لمقابلتها في « سان جيمس » ذهبت ووجدتها مع شقيقها فؤاد . تناولنا العشاء معاً ثم ذهبنا الى الكيت كات . »

وفي يوم الثلاثاء ٦ يونيه :

« كانت اسمهان وشقيقاها فؤاد وفريد مدعوين لتناول الغداء عندي اليوم . ولكنها اعتذرت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر بأنها مريضة ! ولم أرد عليها بكلمة واحدة واكتفيت بأن اقفلت التليفون في وجهها !. عادت وكلمتني في المساء وقالت ان الحقيقة هي أن فؤاد وفريد يعترضان على صداقتها لي وكثرة مقابلاتنا ! »

وفي يوم ٧ يونيه :

« زارتني اسمهان على غير موعد وشكت لي كثيراً مما تلقاه في حياتها وخصوصاً من فؤاد — هل اصدقها ؟ حقيقة أنا حائر في أمرها ! »

صورة من اسمهان

نعم كنت حائراً في أمرها كما كانت هي كذلك حائرة في أمري !

ماذا كنت أريد منها ؟

وماذا هي كانت تريد مني ؟

ماذا كان كل منا ينتظر او يرجو من صاحبه ؟

أما أنا فقد كنت لا أزال منها على حذر ! ولم اكن قد حددت بعد موقفي .. أو اذا حرصت على تقرير الواقع لم اكن حددت او تبينت بعد حقيقة عاطفتي نحوها ؟

هل انظر اليها على أنها ليست سوى (ارتست) .. اي المطربة اسمهان وكفى؟

أو أنظر اليها على أنها انسانة يمكن ان يكون بينها وبيني صداقة وود وتقدير ؟

لقد كتبت في مفكرة الجيب — في ٧ يونيه :

« وشكت لي كثيراً مما لقيته ومما تلقاه في حياتها . »

هذه هي العبارة المقتضبة التي دونتها في ذلك اليوم .

ولكن هذه العبارة تخفي وراءها قصة طويلة .. هي قصة شقاء اسمهان وبؤسها أيام نضالها هي واسرتها من أجل العيش .. على أول عهدهم بالحياة في مصر ..

وقصة خوفها مما يخبئه لها المستقبل بعد طلاقها من زوجها وعودتها الى الحياة في مصر ..

كانت تخاف أن تعود بها تصاريف الزمن الى أيامها الاولى ، أيام البؤس

والشقاء .. وكان هذا اخشى ما نخشاه !
كانت اسمهان في ذلك المساء – مساء ٧ يونيه – وقد زارتني كما قلت على غير موعد . كانت مضطربة .. واكثر من مضطربة : لماذا .. لا أدري .

احسست أول ما تكلمت أن الزمام افلت من يدها !

زال عنها تحفظها وسقط عنها قناع التكلف المصطنع !

كانت كمن أصابتها صدمة عنيفة هزتها الى الاعماق .. أما ما هي الصدمة ؟ ما هي الأسباب ؟ لم تقل هي .. ولم اعرفها أنا حتى اليوم ..

ولكن اسمهان – كما عرفت في الشهور التالية – كانت مرهفة الحساسية الى درجة المرض !

كلمة طيبة واحدة كانت تكفي لاشاعة السرور في وجهها والمرح في نفسها .

وكلمة نابية او كلمة قاسية واحدة كانت تكفي لاشاعة الاصفرار في وجهها وملء عينيها بالدموع !

وكان يزيد في هذه الحساسية خيال مضطرب مريض .. خيال ليس فيه شيء من روح الشباب ونضارة الشباب وحرارة الرجاء في المستقبل الطيب .. كلا . لأن خيالها كان خيال الشيخوخة المريضة اليائسة من رحمة الله ورحمة الناس

في هذه الازمات كان يفلت منها الزمام ويسقط عنها القناع .. وتبكي وتتحدث وتصرخ من قلبها !

وهذه كانت حالتها في ذلك المساء ..

قالت – وسوف أغفل كثيراً من التفاصيل مراعاة لخاطر بعض الاقربين اليها من أهلها ..

قصة بؤس وجوع وشقاء !

قالت أنها تذكر من أيام طفولتها في الجبل – جبل الدروز – أنها كانت سعيدة راضية . لم يكن في عيشها ترف .. ولكنها لم تعرف الحاجة

ولا العوز . فقد كانت هناك الكفاية من كل شيء ..

ثم قامت ثورة الدروز ضد الفرنسيين وهي الثورة التي اشعل نارها وحمل لواءها سلطان باشا الاطرش أو « عمي سلطان باشا » كما كانت تناديه اسمهان ..

ورأت والدتها – السيدة عالية – ان تلجأ الى بيروت بأولادها الثلاثة فؤاد وفريد واسمهان ريثما يعود السلام الى جبل الدروز .

ولكن السيدة عاليه (وهنا أغفل ذكر التفاصيل التي اشرت اليها) لم تلبث لسبب خاص ان قررت القدوم الى مصر هي وأولادها .. وكانت اسمهان يومئذ في العاشرة او نحو ذلك من عمرها .

ولم ينقض عام واحد على اقامة الاسرة الصغيرة في مصر حتى نضب المورد الذي كانت الام تعتمد عليه في اعالة نفسها واعالة اولادها الثلاثة .

ووقف شبح الجوع بالباب .. وعرفت الصغيرة اميلي ما هو الجوع وما هو الحرمان .

قالت : وذات يوم وقد خلت الدار من الطعام ارسلتني أمي الى الدكتور عبد الرحمن شهبندر (أحد زعماء سوريا من اللاجئين الى مصر وقد مات مقتولاً في دمشق) الذي كان يعرفنا ويعرف اسرتنا جيداً .. لكي يقرضنا شيئاً من المال . وقطعت الطريق الى مسكنه – وكان الطريق طويلاً جداً – على قدمي .. ولما قابلته ابلغته رسالة أمي وشكوت له حالنا .. فناولني ريالاً !.. ريالاً واحداً . عدت به الى أمي .. ولما رأته بكت وبكيت معها !. كنت ما أزال صغيرة السن ولكنني فهمت يومها أننا أصبحنا او نوشك ان نصبح من المتسولين .

* * *

وكنت ذات يوم أزور اسرة الاميرالاي محسن بك ودارهم في شارع الشيخ ريحان بالقرب من ميدان عابدين .. وكنت اظن أنهم سيخرجون

بسيارتهم فيوصلونني الى مسكني وكنا يومئذ نقيم في حي الظاهر .. ولكن السماء امطرت وكان مطراً ثقيلاً كأنه من أفواه القرب .. وهكذا عدلوا عن الخروج .

واقبل المساء والسماء لا تزال تمطر .

وحان موعد عودتي الى مسكني .. فاستأذنت من سيدات الاسرة وخرجت !

خرجت وقد خجلت ان أقول لهن ان ليس في جيبي قرش واحد اركب به الترام !

وعلى قدمي وتحت وابل المطر وفي الوحل مشيت المسافة من عابدين الى الظاهر !!

* * *

ومضت اسمهان في قصتها فقالت :

وبدأت أمي تعمل في خياطة ملابس السيدات .. وكان ما تحصل عليه قليلاً ولكنه كفانا شر الجوع .

وذات يوم شاءت المصادفة ان تلتقي أمي في دار صديقة سورية لها بالاستاذ داود حسني (وهو من الملحنين والمطربين القدماء وله ادوار مشهورة) .

ولعلك لا تعرف — لانك لم ترها بعد — ان أمي كانت بارعة الجمال جميلة الصوت ولقد ورثنا — فريد وأنا — صوتنا عنها .

وسمعها الاستاذ داود حسني وهي تغني عند صديقتها وتنقر على الدف فسألها لماذا لا تحاول استغلال موهبتها هذه ؟

وتعرفت أمي في نفس الوقت تقريباً بالاستاذ سامي الشوا عازف الكمان المشهور .. وساعدها الاثنان وبدأت أمي تغني وتحيي حفلات خاصة عند بعض العائلات .. واتسع رزقنا قليلاً وامكن لها ان تدخلنا — فريد وأنا — المدرسة لنتمم دراستنا التي كنا قطعناها يوم تركنا بيروت وجئنا الى مصر .

والمصادفة كذلك هي التي شاءت ان يسمعني الاستاذ داود حسني — وكان

يزورنا في مسكننا المتواضع - وأنا (ادندن) اغنية لام كلثوم كانت ذائعة في ذلك الوقت . وأقبل عليّ رحمه الله يلاطفني ويسألني هل أريد ان أتعلم قواعد الغناء وقلت : نعم ..

وبدأ يعلمني ويلقنني أصول فن الغناء ..

وكانت أمي قد عبأت بعض اسطوانات بأغانيها .. ولم يطل الأمر حتى توسط الاستاذ داود حسني عند نفس شركة الاسطوانات التي رضيت ان تدفع لي بضعة جنيهات عن كل اغنية اسجلها في اسطواناتها ..

والاستاذ داود حسني هو الذي اختار لي اسمي المستعار .. اسمهان !

وهكذا بدأت حياتي .. المطربة اسمهان .. ولكن فقط في الاسطوانات !

وكنت لا أزال في نفس الوقت طالبة بالمدرسة .. ولكن سرعان ما انتشر الخبر وعرفت فتيات المدرسة ان زميلتهن « ايميلي » تحترف الغناء وان لها اسطوانات .. وان اسمها المستعار او اسمها المسرحي هو اسمهان !

وبدأت زميلاتي في المدرسة يعايرنني ويسخرن مني .. حتى أصبحت حياتي في المدرسة لا تطاق .

وذات مساء عدت الى أمي وأنا أبكي وقلت لها .. لن أعود الى المدرسة . فان حياتي فيها اصبحت مستحيلة .

وهكذا .. خطوة فخطوة واحترفت الغناء .. الى ان وقفت على مسارح عماد الدين .. واتسع رزقنا عن ذي قبل !. ولكنني أنا .. كنت أتألم واطوي صدري على ما فيه .. بل كثيراً ما غالبت دمعي حتى لا يسيل على خدي وأنا واقفة اغني أمام جمهور من السكارى يقذفني بالنكات وبالألفاظ التي تنطلق من أفواه رواد صالات عماد الدين !

كنت احس انني لم أخلق لهذا .. وكنت احياناً اثور . ولكن ما الحيلة ؟ كان يجب ان نعيش ! وكان يجب علينا - فريد وأنا - ان نعمل لكي نعول الاسرة !

ولقد حاول بعض صاحبات الصالات ان يغرينني بالجلوس مع زبائن

الصالة ولكنني كنت ارفض دائماً .

ولقد حرص شقيقاي بعدها – في كل عقد ارتبطت به مع احدى الصالات على ان ينص في العقد على انني غير ملتزمة بالجلوس مع زبائن الصالة .. ولا بطلب المشروبات !

تلك أيام لا اعادها الله ..

* * *

وسكتت اسمهان وبدا في عينيها ما يشبه الخوف ثم انحنت فجأة وامسكت بيدي و قالت :

– طمني ! قل لي أن تلك الأيام لن تعود .. انني لن اقف اغني على مسارح الصالات !

وسكت أنا ..

وتركتها تبكي فليس هناك مثل البكاء في إراحة الأعصاب المرهقة !

ثم قالت :

– انني احب الغناء وأحب دائماً ان اغني .. ولكن اغني لنفسي .. ولمزاجي واغني لمن احب .. ولمن ارتاح لهم .. اما الغناء بالأجر .. طاب مزاجي أو لم يطب .. وأمام اي جمهور فهذا هو الذي امقته . ولقد جعلتني صالات عماد الدين امقت الغناء !. من أجل جنيه واحد كنت اقف على قدمي ساعات طويلة اغني أمام جمهور من السكارى .. واسمع ما اسمع من بذيء اللفظ والمعنى !.. تلك هي الأيام التي – من كل قلبي – ادعو الله ان لا تعود ..

وهكذا أمضيتُ ربيع الشباب !.. ذل أحسه وألم أطويه .. ودمع أحبسه .. ومن قبلها طفولة محرومة جائعة ..

الى ان زار مصر ابن عمي الامير حسن الاطرش .. وكان طبيعياً ان يزورنا وأن يراني . وأعجبته وأحبني .. وطلب من أمي ان تزوجني اياه . ولكن امي رفضت في اول الأمر والتمست لرفضها مختلف المعاذير !.

رفضت أمي لأنها لم ترد أن تفقد الدجاجة التي تبيض لها الذهب !

اذا تزوجت أنا فمن اين تنفق وكيف تعيش ؟.. كان هناك طبعاً فريد .. وكان فريد هو ايضاً يعمل ويغني في الصالات .. ولكن فريد كان شاباً – كان رجلاً – يستطيع دائماً ان يقف على قدميه وأن يأخذ لنفسه ما يشاء ويترك لأمي الباقي ! أما أنا فقد كنت دائماً ضعيفة لا حول لي ولا قوة .. فكانت أمي تأخذ مما اكسبه ما تشاء .. ولا تترك لي سوى ما تشاء .. وكان أقل القليل !

ولهذا عارضت أمي في زواجي .

وسافر حسن الاطرش عائداً الى الجبل واقام ثائرة الطرشان ضد أمي .. وقال لهم أنني أعمل كمطربة وأن أمي دفعتني لاحتراف الغناء !

وقامت قيامة الأسرة وخشيت أمي العاقبة .. بل خافت على حياتها من بطش الطرشان !

وهكذا لما عاد حسن الاطرش الى مصر وطلبني زوجة له للمرة الثانية لم تعارض أمي .. ولكنها طلبت منه ان يؤمن لها عيشها !

ولقد أعطاها فيما أعطاها أياه داراً كبيرة في دمشق وخمسمائة جنيه من الذهب !

وتم زواجي من الامير حسن وكان هذا في عام ١٩٣٣ .

ولقد طلقت منذ شهرين ، لا لخطأ من زوجي .. فهو احبني وما زال يحبني . وأنا الذي طلبت الطلاق وألححت فيه .. لأنني لم احب زوجي .. وكنت دائماً احب مصر واحن اليها .. ولقد وافقتني أمي على الطلاق

– ولا اظلمها فأقول أنها اغرتني بالطلاق – ولكنها وافقتني ولم تعارض .. ولكنني في الأيام الأخيرة بدأت أراجع نفسي واخشى ان اكون قد اخطأت في طلب الطلاق !. اخشى ان أعود الى الغناء في الصالات !. ليس لي في الدنيا كلها سوى أمي وشقيقيّ .. ولكنني لا اثق ولا اطمئن الى أحد منهم سوى فريد .. وفريد ليس قادراً دائماً على الوقوف بجانبي !. لهذا أراني في حاجة الى صديق .. الى قلب حنون .. الى ذراع قوية تسندني عند اللزوم .. فهل تقبل أنت ان تكون كذلك ؟ لقد جئتك هذا المساء على غير موعد .. ولم يكن في نيتي ان ازورك .. ولكنني كنت في حاجة لأن اخفف عن صدري بعض ما فيه .. وكنت في حاجة للبكاء !

* * *

ولما انصرفت اسمهان جلست افكر .

كان قد مضى على معرفتي بها نحو شهرين .. وكنت لمست في أخلاقها كثيراً من المتناقضات .. وكنت عرفت كذلك أنها تستطيع ان تكذب ويمكنها عند الحاجة ان تمثل ! وان بكاءها لا يدل على حزن أكيد لأنه نزوة !.. كما أن سرورها لا يدل على فرح اكيد .. لانه نزوة !.. وانها تستطيع دائماً ان تبكي وتضحك في ساعة واحدة .!

ولهذا كتبت يومئذ في مفكرة الجيب :

« هل اصدقها ؟. حقيقة أنا حائر في أمرها ! ؟»

* * *

والحقيقة في أمر اسمهان – وهي نتيجة المعرفة الطويلة والدرس والتحليل – انها كانت مزيجاً من الخير والشر !

الشر ؟. كلا . ليس هذا ما اقصد ! بل هي كلمة ظالمة اذ لم يكن في طبيعة اسمهان ذرة واحدة من الشر . او حب الشر ..

أقول اذن أنها كانت مزيجاً من الخير ومن الضعف ! الضعف الذي كثيراً ما يؤدي بصاحبه الى حيث لا يرضى له الناس ولا يرضى له الخير ولا العرف الطيب السليم !

وكانت اسمهان تدرك — بعد فوات الاوان — انها اخطأت . ولكنها كانت اضعف من أن تستطيع حكم نفسها أو رد نفسها عن الوقوع في الخطأ !

وكانت في كل مرة تنوي في سريرة نفسها ألا تعود ..

ولكنها كانت تعود !.

هذه هي ... اسمهان

وأصبحت — أي الخميس ٨ يونيه — وقصة اسمهان لا تزال في سمعي .. واثر دموعها في نفسي ..

شيء نحيل صغير مسكين يستحق العطف والرثاء !

وطلبتها بالتليفون في مسكنها .. واذا بالسيدة أمها تقول أنها قد سافرت بقطار الصباح الى الاسكندرية .

هكذا .. سافرت من غير كلمة واحدة تقولها لي عن سفرها ..

ولابد أنها كانت تعرف في مساء امس أنها ستسافر اليوم الى الاسكندرية ومع ذلك فقد جلست أمامي تشكو وتبكي وتقول أنها في حاجة الى قلب حنون وذراع قوية تسندها .. ولكن دون ان تذكر شيئاً عن سفرها اليوم !

.. آرتست !. ممثلة !. قلتها لنفسي وأنا اهز كتفي !

وكتبت يومئذ في مفكرة الجيب :

« حجزت محلاً لي في الباخرة النيل الى مرسيليا تاريخ ٢٩ يونيه »

« سافرت اسمهان الى الاسكندرية ! »

واكتفيت بعلامة التعجب عن كل تعليق .

* * *

وكان من عادتي – اثناء الصيف – ان امضي عطلة نهاية الاسبوع في الاسكندرية .

وفي يوم السبت ١٠ يونيه سافرنا – مصطفى امين وأنا – بالسيارة الى الاسكندرية ونزلنا في فندق وندسور .

وامضينا السهرة مع محمد محمود باشا في جناحه الخاص ، وكان يومئذ رئيساً للوزارة . وأذكر انه رحمه الله شكا لنا ليلتها كثيراً مما كان يلقاه من رئيس الديوان علي ماهر باشا ..

ولكن هذا حديث سياسة وليس مجاله هنا .

واستأذنا من محمد محمود باشا .. ونزلنا الى الطابق الارضي لنطلب شيئاً ما نأكله ..

وبينما نحن في طريقنا الى قاعة الطعام رأيت اسمهان جالسة مع فلان باشا (وهو احد أصحاب المعالي الوزراء) الذي كانت زارته في عزبته يوم قالت لي أنها مدعوة في عزبة كريمة المغفور له يحيي باشا ابراهيم .

وتظاهرت بأنني لم أرها ..

واثناء الليل أيقظني من النوم جرس التليفون الموضوع بجانب الفراش . وكانت اسمهان ..

ولكنني قلت لها ان هذا ليس وقت الحديث لأنني نائم .. وانني متعب .

وأقفلت التليفون .

وفي الصباح قابلتها في بهو الفندق وجهاً لوجه .. هي والباشا المذكور ولم يكن هناك بد من أن احييه لأني أعرفه .. ومن أن أحييها .

وأقبلت هي عليّ تصافحني وتقول .. لنا الاثنين :

– بأه تعرفوا بعض ؟

قلنا : طبعاً

قالت : عال .. اذن يا فلان (نادته باسمه مجرداً من اللقب) تعزم محمد – أي أنا – عندنا في العزبة الاسبوع القادم ..

وأجاب سعادته :

– اكون مسروراً جداً لو يشرفني الاستاذ بقبول هذه الدعوة .

وشكرته أنا ووعدته بتلبية الدعوة .

« عندنا » في العزبة !!

هكذا قالت . ومعناها أنها – اسمهان – والباشا شيء واحد أو شخص واحد ، وان لها الحق في دعوة من تشاء (عندنا في العزبة) .

وفي ذلك اليوم – الاحد ١١ يونيه – كتبت في مفكرة الجيب ألفاظاً قاسية عن اسمهان .. ألفاظاً لا يمكنني ان أنقلها هنا ..

وفي اليوم التالي – الاثنين – عدت الى القاهرة .

ثم أجد في مفكرة الجيب انني كتبت في يوم الخميس ١٥ يونيه :

« كلمتني اسمهان مساء بالتليفون لتقول انها مشتاقة الي ! »

* * *

أول خناقة ... ! ؟

وفي يوم الجمعة سافرت بالسيارة الى الاسكندرية لتمضية عطلة الاسبوع ولم أرَ اسمهان يومها . كما أنها لم تكلمني في التليفون .

وفي يوم السبت تناولت طعام الغداء مع زوجة صديق لي ثم ذهبنا الى سباق الخيل في نادي سبورتنج .

وهناك رأتنا اسمهان . وراحت تتبعنا اينما سرنا في ميدان السباق !

وتجاهلتها أنا تماماً !

وبعد انتهاء السباق أوصلت السيدة زوجة صديقي الى دارها في الرمل وعدت الى الفندق .

وبينما أنا أستريح في حجرتي دخلت عليّ اسمهان .

ولمحت من وجهها أنها تنوي شراً !!

سألتني عن السيدة التي كانت معي في سباق الخيل ومن تكون ؟
وأجبتها أنها زوجة صديق .

قالت : لا اصدقك .

قلت : سيان عندي صدقت أو لم تصدقي !

قالت : ولماذا لم تحيّني عندما رأيتني ؟

قلت : وهل واجب مفروض عليّ ان أحيي كل آرتست أعرفها ؟

وتقدمت اسمهان مني .. ولم أشعر إلا ويدها تهوي على وجهي .

واندفع الدم الى رأسي !

وأحسست ان بركاناً من الغضب والغيظ قد انفجر في صدري ! وانني أريد أن اهوي على وجهها باللطمات . وأن أركلها بقدمي .. وأن أنهال عليها ضرباً موجعاً ..

ولكن .. كيف ألطم وأضرب امرأة تبكي ؟ فقد كانت اسمهان هوت بيدها على وجهي .. ثم ارتمت على صدري تبكي !

وقليلاً .. قليلاً .. حكمت أعصابي وهدأت .

وجلست هي بجانبي تبكي وتعتذر .

ثم أخذت يدي بين يديها .. والتصقت بجانبي ووضعت رأسها على كتفي وهي لا تزال تبكي !

أما أنا فقد كنت في حيرة من نفسي !

ما سر هذا البركان الذي انفجر في صدري ؟.

لقد اعتدت ان آخذ نفسي وعواطفي بالتحليل وأن أحاول رد كل نتيجة الى سببها واصلها .. فما سر أو سبب غضبي الشديد ؟ وأنا الذي اغبط نفسي على انني قادر دائماً على كبح جماح غضبي وكظم الغيظ ؟؟

لانها هوت بيدها على وجهي ؟

كلا !. لا يمكن ان يكون هذا هو سبب ثورة الحقد والغضب التي تملكتني .

البركان كان هناك !.. كان راقداً في صدري ! ما اصله ؟ ما سببه ؟
واخيراً .. طالعتني حقيقة بشعة ! وكان لابد ان ألقاها وجهاً لوجه :
حقيقة بشعة !!

هل هذه المرأة – هذه الارتست ؟ – قد استطاعت ان تبعث في صدري
ذلك الشيء الكريه .. الذي يسمونه الغيرة ؟!
وأنا الذي كنت اغبط نفسي على أنني لا اعرف الغيرة ولا أغار ؟
هل عرفت اسمهان كيف تجعلني أغار ؟!

* * *

وفي يوم الاحد ١٨ يونيه كتبت في مفكرة الجيب :
« تناولت العشاء في (مونسنيير) مع اسمهان والدكتور
بيضا وفؤاد الاطرش »
وفي صباح يوم الاثنين عدت الى القاهرة .
وفي مساء نفس اليوم كلمتني اسمهان بالتليفون لتسأل عن صحتي !
ولتطمئن على انني وصلت الى القاهرة بالسلامة !
وبعد يومين اثنين فوجئت بصوت اسمهان وهي بالتليفون من القاهرة
وتقول أنها وصلت الآن فقط .
واتفقنا على ان نتناول العشاء معاً .
وفي مفكرة الجيب كتبت :
« حضرت اسمهان الساعة التاسعة مساء . وكانت متحفظة .
وكنت أنا مؤدباً وبارداً في نفس الوقت . ولكن لسانها
انطلق بعد قدح الويسكي الرابع !! هل هي حقيقة مخلصة
او هي تمثل دوراً ؟ »

* * *

وطلبتها بالتليفون عند الظهر .. ولكني تلقيت نفس الخبر الذي كنت تلقيته في مرة سابقة .

« لقد عادت الى الاسكندرية بقطار الصباح » !

ومرة اخرى تسافر دون أن تذكر لي شيئاً .!

لقد تركتها أمام باب دارها الساعة الثالثة صباحاً .. ولكنها استطاعت مع ذلك ان تنام وان تسافر بقطار الصباح ؟!

كيف نامت .. ومتى نامت ؟

بل كأنها لم تنم !

ولماذا كل هذا الحرص على أن تعود الى الاسكندرية بأول قطار ؟

هناك تفسير واحد . ولا يمكن ان يكون هناك تفسير سواه ..

لقد حضرت أمس الى القاهرة خفية من غير ان يعرف أحد وقد حرصت على أن تعود سريعاً الى الاسكندرية قبل ان يكتشف أحد غيابها او يعرف بسفرها الى القاهرة .

هل ضاق صدري ساعتها ؟

هل أحسست بالغيرة ؟

لا أظن . فقد كنت اخذت نفسي على ان « « أعرف » اسمهان كما هي !. فلا اعطيها مني اكثر مما تستحق .. ولا اطلب منها ما ليس فيها :

وكنت ارتحت الى هذا القرار وقلت لنفسي : لن اغار !

او على الاقل .. لن ادعها تعرف انني أغار !

* * *

وفي يوم السبت ٢٤ يونيه كلمتني بالتليفون من الاسكندرية لتذكرني بوعدي ، وهو أنني قبلت دعوة الباشا لتمضية يوم في عزبته ، وهل أوافق على ان يكون ذلك في يوم الجمعة القادم ؟

وقلت أنا : ولكن فلان باشا لم يدعني ؟

قالت : كيف ؟

قلت : نعم . فأنت التي دعوتني لا الباشا ..

وضحكت هي . ولكن خيل الي أنها « اتلخمت » وان ضحكتها كانت متكلفة ..

واضمت قائلاً :

– وعلى كل حال يمكنك ان تعتذري نيابة عني للباشا بتاعك .. لانني سأسافر الى اوروبا يوم الخميس القادم !

واقفلت أنا التليفون !

ولم تكن هي قد عرفت بعد بقرب سفري الى اوروبا .

تريد السفر معي الى اوروبا !

وسافرت الى الاسكندرية بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٨ يونيه .

ولم اكد استقر في حجرتي بالفندق حتى كلمتني اسمهان بالتليفون لتحييني وتسألني هل أنا مسافر غداً الى اوروبا ؟

قلت : طبعاً !

قالت : اذن أتناول معك العشاء الليلة !

قلت : لماذا ؟

قالت : لانك تسافر غداً . وقد لا ألقاك بعدها وقد لا تلقاني . أنا افهم سبب غضبك . ولكن هذه مسألة يطول فيها الحديث . والذي احب ان تصدقه انني حريصة على ان نفترق صديقين فلماذا لا نمضي السهرة معاً ونفترق صديقين قبل سفرك ؟

قلت : لا بأس .. وهو كذلك .

* * *

وحقيقة لم لا ؟

ما الذي يهمني من أمرها ومن مَن تعرف ومن تلقى ؟!

ثم أنا اسافر غداً وسوف أغيب شهوراً .. وقد لا القاها بعدها . بل ويمكنني اذا أردت أن أعود بعد هذا الغياب فلا القاها ولا أراها وان اقطع كل ما بينها وبيني !

والذي كان بينها وبيني كان يومئذ امراً يسيراً .

إذن القاها هذا المساء ونتناول العشاء معاً .. وغداً اسافر الى اوروبا وسوف لا ألقاها بعدها !

هكذا قدرت .

ولكني – وأنا اكتب الآن هذه الكلمات – اذكر عبارة كانت اسمهان رحمها الله تقولها لي دائماً .. (لن تخلص مني ! فسوف ابقى دائماً على قلبك) !!

كانت تقولها بلهجة مزاح . ولكن رب مزاح هو الجد !

* * *

وتناولنا طعام العشاء في احد مطاعم المكس . ومعنا شقيقي الذي كان قدم الى الاسكندرية لكي يودعني على ظهر الباخرة .

ولعل وجوده بيننا هو الذي جعل حديثنا اثناء السهرة حديثاً عادياً لا شيء فيه .. فوت على اسمهان – أو عليّ أنا – الفرصة او الرغبة في العتاب والاخذ والرد ولماذا وما السبب وما كان وما قد يكون ؟

وفي نهاية السهرة أوصلناها الى دار في ستانلي باي .. حيث كانت تمضي صديقتها (امتثال) فصل الصيف . وكانت اسمهان ستمضي ليلتها عندها .

لماذا ؟.. غداً يعرف القراء السبب !

* * *

وفي الصباح - الساعة الثامنة - كلمتني اسمهان بالتليفون لتسألني متى سأذهب الى الباخرة ؟

ورجوتها أنا أن لا تتعب نفسها بالحضور الى الميناء . وشكرتها .. الى آخره .

ولكنها حضرت ، وصعدت الى ظهر الباخرة .. وطلبت مني أن أريها حجرتي أو (القمرة) بلغة البواخر .

وقالت هي .. بدون مقدمات :

- أسافر معك الى اوروبا ..

قلت : ماذا ؟

قالت : جئت لكي أسافر معك !

ظننت أنها تمزح . ولكنها مضت تقول :

وفتحت حقيبة يدها واخرجت منها جواز سفرها (الباسبورت) وقالت :

- والباسبورت جاهز . وقد حصلت على « فيزا » فرنسا اول امس .

وبهت أنا ..

واخيراً قلت :

- هل جننت ؟ كيف تسافرين هكذا ؟.. ومن غير ملابس .. ومن غير حاجة ؟

قالت : صحيح . ولم يكن في امكاني أن احضر ملابسي معي وإلا لسألوني الى أين ! ولكن يمكننا ان نشتري ما يلزمني .. في مرسيليا وفي باريس .. اسمع . لقد تركت مع صديقتي - وهي واقفة تحت على الرصيف - خطاباً لأهلي قلت فيه انني سافرت الى اوروبا . ولم اذكر طبعاً اسمك . وسوف تضعه صديقتي في صندوق البريد بعد قيام الباخرة ..

وامسكت أنا بكتفيها وهززتها وأنا اقول :

- مستحيل . مستحيل ما تقولين . انك مجنونة . ماذا يقول الذين معنا على ظهر الباخرة ؟.. ان الباخرة عليها عشرات من المصريين والمصريات . وبينهم من يعرفوني ويعرفونك فماذا يقولون عنا .. عنك وعني ؟!

قالت : وهل يهمك هذا ؟
قلت : طبعاً يهمني !
قالت : لماذا ؟ ألست حراً ؟
قلت : بلى .. ولكنني لست حراً .. الى هذا الحد !

* * *

وما زلت بها حتى اقنعتها بأن سفرها معي أمر مستحيل .
ولما أيقنت بذلك ارتجفت شفتاها واغرورقت عيناها بالدموع !
وصعدنا الى ظهر الباخرة .. ومشيت معها الى رأس السلم ..
وترددت قليلاً قبل ان اقول :
— انني أحمل معي مالاً كثيراً .. فهل استطيع أن أقدم لك مساعدة او قرضاً .. قبل سفري ؟
ولكنها قطعت كلامي وهزت رأسها .
— كلا .. لست محتاجة الى شيء منك .
ونزلت من الباخرة
ولما قامت الباخرة « النيل » بعد نحو ساعة .. كانت اسمهان لا تزال واقفة على الرصيف .
وكنت ألوح لها بمنديلي .. ولكنها لم ترد لانها كانت تمسك حقيبتها الصغيرة بيد ..
بينما كانت يدها الاخرى على صدرها .



٣

تركتها وسافرت إلى أوروبا

سافرت كما قلت في يوم الخميس ٢٩ يونيه سنة ١٩٣٩ .

وأمشي في مذكرة الجيب فأجد انني لم أدون شيئاً في يوم الجمعة .. أما في يوم السبت اول يوليه فقد كتبت :

« سمعنا في الراديو ان الاسطول الانجليزي قد احتشد .
وان فرنسا عبأت جيشها وأن بولنده أرسلت ثلاث فرق
الى حدودها الغربية (من جهة المانيا) – هل هي الحرب ؟! »

ولا شيء في يوم الاحد ٢ يوليه سوى ان البحر هائج مضطرب وأنني لزمت غرفتي بعد الظهر وفي المساء .

وفي يوم الاثنين وصلنا الى جنوا .

« ونزلت مع طبيب الباخرة الدكتور عبد العزيز منيب
ومعنا فتاتان كنا تعرفنا بهما على ظهر الباخرة احداهما
انجليزية واسمها فيليس والاخرى فرنسية اسمها بوليت
وتناولنا الغداء معاً »

وفي صباح يوم الثلاثاء وصلت الى مرسيليا ..
وفي منتصف الليل وصلت أنا الى باريس ..

* * *

وهكذا لم اخط حرفاً واحداً عن اسمهان . ولا أنا ذكرت اسمها منذ غادرت الاسكندرية حتى وصلت الى باريس .

ولكني لم اكد اصل الى باريس حتى جاءني منها خطاب في صباح اليوم التالي .. اي الاربعاء ٥ يوليه .

لابد اذن انها كتبت خطابها هذا وارسلته في نفس اليوم الذي سافرت أنا فيه .

ومع ذلك فهي تقول أنها مريضة .. وأنها تلازم الفراش ؟

كيف .. وقد تركتها في ميناء الاسكندرية .. وهي في أحسن صحة وعافية ؟

لهذا لم اصدق حكاية مرضها هذه .. ومع ذلك فقد كتبت اليها خطاباً قصيراً ابديت فيه أسفي لمرضها وتمنيت لها شفاء سريعاً .

* * *

والى هنا انتهت حكاية اسمهان او هكذا خيل إلي . فهي لم تكتب الي بعد ذلك .. ولا أنا كتبت اليها .

ولما سألني صديقي علي أمين – وكان غادر مصر قبلي الى اوروبا ثم تقابلنا في باريس – لما سألني عن اخبار اسمهان قلت له : لا أعرف .. ولا يهمني أن أعرف !

ثم امشي في مفكرة الجيب طول شهري يوليه واغسطس فلا أجد ذكراً لاسم اسمهان او كلمة واحدة عن اسمهان ..

وامضيت بقية الصيف بين فرنسا وسويسره وايطاليا والمانيا . ولم أعد الى مصر إلا بعد أن اندلعت نار الحرب العالمية الاخيرة .

ووصلت الباخرة النيل الى ميناء الاسكندرية قبل ظهر يوم الاثنين ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ .. متأخرة ساعتين عن موعد وصولها .

يا حبيبي تعال الحقني ! ...

ووجدنا الصديق مصطفى امين ينتظرنا على رصيف الميناء ..

وقال مصطفى ان اسمهان انتظرت وصول الباخرة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة ثم عادت الى فندقها . وأنها ترجوني أن أتصل بها فور وصولي بالتليفون في فندق « لروى Le Roi »

ولكنني لم أفعل ولم اهتم ..

وركبت – أنا وعلي امين – قطار الساعة الثانية عشرة ظهراً الى القاهرة .

وكنت اشتريت في محطة الاسكندرية الاعداد الاخيرة من عدة مجلات مصرية .. وجلست في القطار اقطع الوقت بالقراءة .

وفي احدى هذه المجلات – وفي باب أخبار المجتمعات – قرأت تحت عنوان (يا حبيبي تعال الحقني !) – وهو مطلع اغنية مشهورة لاسمهان – أنه بينما كانت المطربة اسمهان تسبح في البحر في ستانلي باي ادركها التعب وأشرفت على الغرق .. فصرخت تستغيث .. يا حبيبي تعال الحقني ! .. وان شاباً مصرياً (وقد ذكرت المجلة اسمه) ألقى بنفسه في البحر وسبح اليها وانقذها ..

ثم علقت المجلة بما يفهم منه ان المطربة اسمهان لا تزال تبدي في كل يوم من آيات اعترافها بالجميل للشاب المذكور الذي انقذ حياتها !

الى آخره .. الى آخره !

وفي مساء نفس اليوم كلمتني اسمهان بالتليفون من الاسكندرية لتهنئني على سلامة العودة وتعاتبني على أنني لم اتصل بها ولم أحاول مقابلتها في فندق « لروى » .. وتسألني ألم يبلغني مصطفى امين رسالتها ؟

وقلت أنا : كلا لم يقل لي شيئاً .

ولقد كذبت لكي اختصر الحديث والا لكانت سألتني لماذا – ما دمت عرفت بوجودها وأنها تنتظرني – لماذا لم اتصل بها .. الى آخره .

وقالت هي :

– اذن انتظرك يوم الخميس هنا ؟

قلت : ان شاء الله !.. وعلى فكرة .. حمد الله على سلامتك !

قالت : سلامتي من ايه ؟

قلت : قرأت في احدى المجلات انك كنت اشرفت على الغرق وان فلاناً انقذك ؟

وضحكت هي وقالت :

– لا تصدق كل ما تقرأه في المجلات .. خصوصاً وأنت صاحب مجلة وتعرف احسن من غيرك قيمة اخبار المجلات !

وقلت : متشكر !

* * *

ولم أسافر الى الاسكندرية وفضلت ان امضي عطلة الأسبوع في مصيف رأس البر ..

وكلمتني اسمهان مرتين بالتليفون من الاسكندرية . وفي كل مرة كنت أعدها بالسفر الى الاسكندرية .. ثم اخلف وعدي ولا أسافر !

وسكتت عني .. ولعلها ادركت انني عرفت !

لماذا كانت تسعى للزواج

وامشي في مفكرة الجيب لعام ١٩٣٩ فلا أجد ذكراً لاسمهان .. لا شيء في بقية شهر سبتمبر ، ولا شيء طول شهر اكتوبر .. الى أن

أصل الى أواخر شهر نوفمبر فأجد أنني كتبت في يوم السبت ٢٥ نوفمبر :

« أرسلت زهوراً الى آمال الاطرش بمناسبة عيد مولدها »

وهذه اول مرة اذكرها في مفكرة الجيب باسم « آمال الاطرش » ولا أعرف لماذا !

ومنذ ذلك اليوم — وفي الشهور والسنوات التالية — كنت اشير اليها دائماً في مفكرة الجيب باسم آمال .

* * *

وكانت رحمها الله كلمتني في صباح ذلك اليوم — ٢٥ نوفمبر — لتعاتبني على عدم سؤالي عنها وتناديني (يا خاين ..) الى آخر ما تقوله النساء في مثل هذا الموقف !

ثم قالت أنها تحيي هذا المساء في مسكنها حفلة بمناسبة عيد مولدها فهل أشرفها بحضوري ؟

وكانت تركت مسكنها في حدائق القبة الى عمارة سيف الدين في جاردن سيتي .

وسألتها عن عدد الشموع التي سوف توضع في كعكة عيد مولدها ؟

ضحكت وقالت : أنا على كل حال اصغر سناً منك !

قلت : طبعاً وأنا اعرف هذا .. ولكن كم سنك اليوم ؟

قالت : غداً أبدأ السنة الخامسة والعشرين !

اي أنها ولدت في ٢٥ نوفمبر عام ١٩١٥ . وهذا غير صحيح . والصحيح أنها ولدت في نوفمبر عام ١٩١٢ . ولو كانت عاشت لكان عمرها اليوم تسعة واربعين سنة .

وبهذه المناسبة ..

قالت مجلة المصور الغراء ان اسمهان ولدت في عام ١٩١٨ ، وهذا غير صحيح .

ويبدو ان السيدين فؤاد وفريد الاطرش — وكلاهما اكبر سناً من

اسمهان – أرادا ان يغالطا في ذكر حقيقة سنها لكي يغالطا في حقيقة سنهما هما .. فاذا هما أنقصا من سن اسمهان ست سنوات انقصا في نفس الوقت ست سنوات من سن فؤاد ومن سن فريد .

والواقع ان الموسيقار فريد الاطرش قد جاوز الآن سن الخمسين .

وأما شقيقه فؤاد الاطرش فقد اشرف على الستين من عمره .

* * *

وأعود الى سياق الحديث وكيف عرفت حقيقة سن اسمهان .. كنت ذهبت في شهر مارس سنة ١٩٤٠ الى قنصلية فرنسا في القاهرة لكي استخرج منها شهادة بأن آمال او ايميلي الاطرش قد طلقت من زوجها الامير حسن الاطرش في عام ١٩٣٩ .

وكانت آمال قد تزوجت يومئذ بمقتضى عقد عرفي من الاستاذ احمد بدرخان المخرج السينمائي المعروف .

والسبب في اكتفاء الطرفين بهذا العقد العرفي هو ان الحكومة المصرية كانت اصدرت في اوائل الحرب العالمية الاخيرة قانوناً يحرم على المصريين الزواج من اجنبيات الا بعد الحصول على موافقة وزارتي الداخلية والعدل .

ولقد نصحت لها صديقاتها – وعلى رأسهن في ذلك الوقت السيدة امينة البارودي – بعمل عقد زواج عرفي .. ثم السعي بعدها لدي ولاة الأمور من أجل الموافقة على عقد الزواج .

وكان كل ما يهم آمال الاطرش هو الحصول على الجنسية المصرية .. وكانت جنسيتها وقتئذ سورية فرنسية .

وسعيت أنا من أجل الحصول على موافقة الحكومة على زواجها من الاستاذ بدرخان . وقابلت بين من قابلتهم لهذا الغرض مدير ادارة الجنسية والجوازات وكان يومئذ الاستاذ زكي سعد الذي يشغل اليوم في امريكا منصب احد مديري بنك النقد الدولي .

وسألني السيد زكي سعد :

– ولكن هل تحت يدها دليل على أنها بريئة الذمة والعهد وان زوجها حسن الاطرش طلقها نهائياً ؟.. فلتقدم لنا اولاً هذا الاثبات ونحن ننظر بعدها في الموضوع .

وعدت الى آمال اسألها اين ورقة طلاقها من الامير حسن الاطرش ؟ فقالت – وهذا صحيح – ان الدروز لا يسيرون في شؤون الزواج والطلاق على ما يسير عليه المسلمون في مصر فليس في جبل الدروز مثلاً محاكم شرعية ولا مأذونون .. ولا دفاتر ولا سجلات تسجل فيها عقود الزواج .. او الطلاق . وان الزواج يتم عندهم شفوياً وأمام الشهود .. وان الطلاق يقع أمام الشهود .. ولا حاجة بعدها لتسجيل الزواج او الطلاق في اية ورقة من أي نوع كان .

قلت : يعني ليس تحت يدك اي مستند مادي يثبت طلاقك من زوجك حسن الاطرش ؟

قالت : كلا . والذي أعرفه أنه طلقني اثناء جلوسه على شرفة فندق الكونتننتال وأمام شهود كان بينهم اذا صدقتني الذاكرة لملوم باشا .. وأنه كتب أمامهم ورقة بهذا الطلاق .

سألتها : أين هذه الورقة فقد تفيد في اثبات الطلاق .

قالت : أخذتها أمي ..

قلت : سليها عنها .. واحضريها منها ..

قالت : لا أعتقد أنها تعطيني إياها ستقول أنها ضاعت منها !..

قلت : لماذا ؟

قالت : لأنه .. لا أمي ولا فؤاد راضيان عن زواجي من بدرخان ..

واخيراً ذهبت الى قنصلية فرنسا .. وكان معي جواز سفر آمال الاطرش لكي يقنع رجال القنصلية بأنها هي التي كلفتني باستخراج هذه الشهادة .

وتناول الموظف المختص جواز سفرها وقلب صفحاته ثم ابتسم واشار

الى الخانة المكتوب فيها تاريخ الميلاد وقال بالفرنسية :

-- هذا تزوير ساذج !

وأشار الى رقم (٥) في (١٩١٥) وقال أن أصل الرقم كما هو ظاهر بوضوح كان (٢) لا (٥) .. وان السيدة ايميلي غيرته الى (٥) وهذا تزوير ساذج وسخيف لأنها لم تكسب بهذا التزوير سوى ثلاث سنوات فقط وضحكنا نحن الاثنان .

وأعطاني موظف القنصلية الشهادة وقد استخرجها من سجلات القنصلية ولكن زكي سعد رفض ان يعترف بهذه الشهادة أو أن يقيم لها أي وزن وقال ان شهادات قنصلية فرنسا لا يمكن ان تحل محل الاشهاد الشرعي ودفتر المأذون !!

قلت له : واذا لم يكن عند الدروز شهادات شرعية أو مأذونون يبقى الحل أيه ؟

ابتسم وقال : يبقى الحل أن وزارة الداخلية لا يمكنها ان تسمح لاسمهان بالزواج من بدرخان ؟!

وهكذا كان ..

والواقع -- ولم أعرف السبب حتى اليوم -- ان زكي سعد كانت عنده نظرة او فكرة سيئة جداً بخصوص آمال الاطرش . وكان دائماً -- وفي حدود منصبه -- يسعى لإخراجها من مصر .. او يضع العقبات في سبيل عودتها الى مصر .

وقد أعود الى هذا الموضوع مرة اخرى في سياق الحديث .

ولقد كانت آمال -- يرحمها الله -- تسعى دائماً للزواج من مصري .. وليكن اي مصري ما دام نظيفاً لا يشينه شيء حتى ولو كان موظفاً صغيراً لا يزيد مرتبه الشهري على بضعة جنيهات .

وكانت تريد الزواج لسببين : اولهما -- وهو الاهم -- ان تحصل على الجنسية المصرية لكي تبقى في مصر التي تحبها ..

والسبب الثاني ان تكون لها صفة .. واعتبار . أي ان تكون مدام فلان او حرم فلان حتى ولو كان فلان هذا كما قلت من صغار الموظفين .
لا يهم !

المهم أن تكون زوجة ولها زوج !.. لأنها كانت تعتقد أنها بهذا تنال احترام من تلقاهن من السيدات ! أو على الأقل تصبح في مأمن من لسان بعض من تعرفهن من السيدات !

وكان يحز في نفسها اذا خرجت الى حفلة ما أو سهرة ما أن لا يكون بجانبها زوج تضع يدها على ذراعه وتواجه الناس .. ونظرات الناس .. وانها تضطر كلما خرجت - وكانت تحب دائماً ان تخرج وأن تغشى المجالس والسهرات والحفلات - ان تخرج مع معرفة او صديق .. وان تعرض نفسها واسمها واسم اسرتها لاثقال القيل والقال !

هنا ... وهناك !

أرسلت لها في حفلة عيد مولدها كما قلت سلة من الزهور .. ولم اذهب الى حفلتها .

وكلمتني هي في صباح اليوم الثاني لتعاتبني على عدم تلبيتي لدعوتها ولتشكرني على الزهور .. ثم قالت ان الحفلة كانت بديعة جداً وأن السهرة طالت الى قرب الفجر .. وأنها غنت كثيراً وأنه كان بين الذين لبوا دعوتها وحضروا الحفلة فلان وفلان وفلان .. الى آخره . وكلها اسماء شخصيات محترمة ومعروفة !..

ثم قالت :

- هل تكتب كلمة عن حفلتي هذه في آخر ساعة ؟

قلت : بكل سرور ..

ونشرت « آخر ساعة » كلمة عن حفلة (المطربة اسمهان) وذكرت

اسماء كبار المدعوين الذين حضروا الحفلة !

وقامت الدنيا .. وصدرت التكذيبات من هنا وهناك !

ذلك لأن بين اسماء المدعوين التي نشرتها المجلة كان اسم صاحب المعالي عبد السلام الشاذلي باشا وزير الاوقاف في ذلك الوقت ..

وعاتبني يومها صديق للباشا وقال :

– حرام عليك ! كيف تنشر أنه حضر حفلة المطربة اسمهان وهو وزير الاوقاف !

قلت : وهل المفروض دائماً في وزير الاوقاف ان يضع على رأسه عمامة كبيرة .. وفي يده مسبحة طويلة .. وان تكون له لحية تتدلى الى ما تحت الركبتين ؟ ان كان هذا هو المفروض .. فان الشاذلي باشا على ما عرف عنه من كفاءة ونزاهة هو آخر من يليق لوزارة الاوقاف !

وأما آمال رحمها الله فقد سرها كثيراً نشر الخبر وأن الناس قد عرفت ان هناك كبراء – وبينهم وزراء – يحضرون حفلاتها الخاصة !

* * *

وبعد ذلك بنحو اسبوع وكنت اسير في شارع قصر النيل قابلتها وهي تخرج من محل لبيع الزهور .

وتبادلنا التحية . وقالت هي من غير أن أسألها :

– كنت اوصي على زهور يرسلونها باسمي لصديق كان في خطر الموت .. كان مريضاً بالتيفود .. ولكنه نجا والحمد لله ..

وكان طبيعياً أن اسألها من هو الصديق الذي كان في خطر الموت ؟

قالت : فلان !

وكان « فلان » هذا هو الشاب الذي كان انقذها من الغرق في حمام ستانلي باي وكنت اشرت اليه في صدر هذا المقال ..

وابتسمت هي في وجهي وقالت :

– خلاص !.. صدقني والله العظيم خلاص ..

قلت : وهل أنا سألتك عن شيء حتى تقسمي ؟..

ثم اكدت لها انني لم افكر بل ولم يخطر لي مطلقاً ان أفكر في هذا الموضوع ..

قالت وقد تجهم وجهها :

– أنت تحتقرني !

قلت : معاذ الله !

قالت : إذن تحترمني ؟

ابتسمت وقلت :

– يا لها من اسئلة ! هل تسألين دائماً كل من تعرفين وكل من تلقين إذا كان هو يحتقرك .. او إذا كان هو يحترمك ! ..

قالت : انك تهرب من الجواب .

قلت : مفروض فيك وأنت سيدة انك لا تعرفين إلا الذين يحترمونك !

وقنعت هي مني بهذا الجواب .. وسار كل منا في سبيله ؟

* * *

ثم أجد في مفكرة الجيب بتاريخ السبت ٩ ديسمبر ..

« سمعت آمال بمرضي فأرسلت الي طاقة زهور ثم زارتني مساء وكان عندي عبد الله نجيب واحمد الالفي عطية ثم حضر علي امين وعبد الغني ابو سمرة وامضى الجميع السهرة عندي ! »

ويظهر أنه كان آخر يوم من أيام المرض . او انني كنت في الواقع قد شفيت لأنني وجدت في مفكرة الجيب بتاريخ اليوم التالي مباشرة اي الاحد ١٠ ديسمبر :

« اقمت حفلة في مسكني غنت فيها اسمهان وفريد الاطرش ومحمد عبد الوهاب ونجحت الحفلة جداً واستمرت

الى الساعة الثالثة صباحاً .. »

وذكرت اسماء المدعوين وزوجاتهم المدعوات .

ولابد أن اكون قد اتفقت مع آمال في اليوم السابق اثناء زيارتها لي على اقامة هذه الحفلة ولو أنني لم اذكر شيئاً عن هذا في تاريخ ٩ ديسمبر لانني كما سبق ان قلتُ في اول مقال لا ادون في مفكرة الجيب سوى عبارات مقتضبة سريعة ولكنها اشبه بالمفاتيح الصغيرة التي يمكنها مع ذلك ان تفتح الأبواب .. أبواب الذاكرة ومغالق الذكريات !

وبعدذلك بيومين اثنين اي بتاريخ الثلاثاء ١٢ ديسمبر وجدت في مفكرة الجيب :

« تناولت آمال الاطرش الغداء معي وبقيت حتى المساء ؛
وكان يوم تجربة الغارة الجوية ونزلت واوصلتها الى مسكنها
وكانت المدينة في ظلام دامس . »

وبعد ذلك بأربعة أيام اي في ١٦ ديسمبر وجدت :

« طلبت مني آمال أن أرسل لها بنواراً في حفلة ام كلثوم .
ارسلت البنوار »

هل معنى هذا أننا كنا تصافينا وارتضينا فيما بيننا صداقة او وداً من لون ما ! »

لا ادري . أو لا أذكر . ولكنني امشي في مذكرة الجيب من يوم ١٦ ديسمبر فلا أجد شيئاً حتى أصل الى يوم الاربعاء ٢٧ ديسمبر :

« كلمتني اسمهان بالتليفون ورددت عليها ببرود ! »

هذا هو كل ما دونته عنها في ذلك اليوم !

وهنا تلاحظون — كما لاحظت أنا قبلكم — أنني كنت اذكرها حيناً باسم آمال .. وحيناً باسم اسمهان !

ولعل الفرق في استعمال الاسمين هو الفرق بين الرضا والغضب !

ولكن ماذا جرى اليوم حتى تركت اسم آمال وعدت الى اسمهان ؟..

ربما شيء حدث .. — منها لا مني — في فترة حفلات عيد الميلاد ٢٤ ديسمبر وما تلاه

ربما !..

رأيت زوجها في بيروت

وكنت اعتدت في السنين السابقة أن أمضي فصل الشتاء بين الثلوج في سويسرا . فهل أسافر الى سان موريتز برغم قيام الحرب في اوروبا ؟ قررت اولاً ان أسافر لان ايطاليا لم تكن قد دخلت الحرب بعد (ديسمبر ١٩٣٩) ولان السفر بطريق البحر الابيض كان لا يزال مأموناً الى حد ما .

ولكنني عدت وعدلت عن السفر الى سويسرا لانني خفت ان تدخل ايطاليا الحرب فجأة .. ويقطع عليّ طريق العودة الى مصر ..

اين اذهب إذن ؟ وأين أجد الثلج ؟

الى لبنان وارز لبنان .. الذي يعلو نحو ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر اي أنه أعلى من سان موريتز بأكثر من الف متر .

وكانت آمال تعرف بسفري هذا . وكانت أوصتني أن أقابل في بيروت الدكتور بيضا وأن اطلب منه لها نسخة من اسطوانة سجلتها وكان دخولها مصر ممنوعاً وقتئذ بسبب قضية كانت رفعتها السيدة بهيجة حافظ ضد شركة بيضافون بخصوص الاغنية المسجلة في الاسطوانة المذكورة .

والاغنية — او القصيدة — هي التي مطلعها (ليت للبراق عيناً فترى)

وطلبت مني ايضاً رحمها الله ان احضر لها بقلاوة من محل الصمدي وحلويات من محل البحصلي !

وكان هذا قبل ٢٧ ديسمبر .. اي قبل أن أرد عليها ببرود ! !

* * *

وغادرت القاهرة في يوم الجمعة ووصلت الى بيروت مساء السبت ٣٠ ديسمبر ونزلت في فندق سان جورج .

وأمضيت حفلة رأس السنة في بيروت . وعرفني بعض كرام القوم وقد رأوني جالساً وحدي الى مائدة صغيرة في ركن منزو في قاعة الحفلات

فقاموا ودعوني للجلوس معهم .. ولبيت دعوتهم شاكراً . وكان منهم الصديقان السيد واصف عزالدين والاستاذ حبيب ابو شهلا .

وفي صباح اول يناير ١٩٤٠ – وكان المطر ينهمر وكأنه من أفواه القرب – حملتني سيارة الى ارز لبنان .. ونزلت في فندق الارز وصاحبه ومديره أحد كبار رجال الدين واسمه مونسنيور كيروز .

ولكنني لم أجد في ارز لبنان شيئاً مما اعتدت ان ألقاه في مشاتي سويسرا من العناية والتنظيم خصوصاً في تخطيط وتحديد مناطق الزحلقة على الجليد ولهذا لم اقم سوى اسبوع واحد ثم عدت الى بيروت .

وقابلت الدكتور بيضا وكنا نمضي معاً معظم الوقت ..

وذات يوم وقد عدنا الى فندق سان جورج لنتناول معاً طعام الغداء .. وبينما نحن نجتاز بهو الفندق جذبني الدكتور برفق من ذراعي وهمس :

– أنظر .. الى اليمين .. هل رأيته ؟

وتطلعت الى حيث أشار وقلت :

– من ؟

قال همساً :

– الامير حسن الاطرش .. زوج اسمهان .

واعدت النظر .. وبامعان ! وعجبت .. لماذا لم تحبه زوجته آمال ؟ شاب . ربع القامة . اشقر . صارم المظهر الى حد ما .. وسيم وجيه : بل حلو التقاطيع ..

وفي عينيه حزن دفين !

وكان يعتمد رأسه بيد وقد شاعت عيناه في الفضاء !

وقال الدكتور بيضا ونحن حول المائدة .

– أراهنك على أنه يفكر فيها !

قلت : يفكر في من ؟

قال : في اسمهان . فهو يحبها حتى الان ! لقد تزوج من اخرى ..

ولكنه لا يزال يحب اسمهان ويحن الى اسمهان !

قلت : سمعت أنها لم تحبه ؟..

قال : صحيح .

قلت : لماذا ؟

قال : .. لأنه أحبها !.. أحبها جداً .. وحبه هذا جعله ضعيفاً أمامها ! واسمهان لا تحب ولا يمكن ان تحب الرجل الضعيف .

٤

اسمهان لم تعرف الحب ..؟

ابنتي لا تحبك !

هذا ما قاله لي الدكتور بيضا ونحن جلوس حول مائدة الغداء في فندق سان جورج في بيروت .

ولكن . هل عرفت اسمهان الحب ؟

الحب الحقيقي .. القوي الجارف .. العاطفة العلوية التي تعيش بين الامل والألم وتسمو بالنفس الى حد التضحية من أجل من تحب !!

قالت لي مرة السيدة أمها اثناء مشهد عاصف جمع بيننا نحن الثلاثة .. قالت وهي تشير الى اسمهان بأصبع تهتز غضباً :

— لا تخدع نفسك في أمرها ! إنها لا تحبك ! لأنها عمرها ما أحبت رجلاً .. ولن تحب عمرها .. صدقني فأنا اعرف الناس بأيميلي !

وبعد هذه السنوات .. وعندما اخلو بنفسي واستعيد الذكريات الماضية ما بين ذكريات حنون عزيزة غالية وذكريات باسمة واخرى حزينة

او مولّة باكية .. أعود فأقول .. « كانت السيدة عالية على حق ! » فاسمهان لم تعرف الحب . وعمرها ما أحبت ذلك الحب الذي تغنى به الشعراء ! »

وبقدر ما كانت كريمة مسرفة في متاع الدنيا وما لها .. كانت شحيحة ضنينة بعواطفها .. لا تعطي منها الا النزر اليسير او أقل القليل !

ومع ذلك ما اكثر الذين غبطوا انفسهم على أنهم فازوا بحب اسمهان .. ثم ما اكثر الذين أفاقوا من أحلامهم فاذا حب اسمهان وهم من الأوهام !

أكان ذلك لنقص في أنوثتها ؟

كلا . فقد كانت اسمهان ذات انوثة طاغية !

أم كان ذلك لجمود في عواطفها أو بلادة او برود في احساساتها ؟

كلا . فقد كانت رحمها الله طيبة القلب جداً . كريمة النفس رقيقة المشاعر ، مرهفة الاحساس أصيلة العنصر والعاطفة . عمري ما سمعتها تنطق بكلمة نابية في حق انسان حتى ولو كان اساء اليها وما اكثر الذين اساءوا اليها في حياتها .. فكانت تلقى اساءتهم بالصبر والسكوت .. واذا ذكرتهم ذكرتهم بالخير أو التمست لهم الاعذار !

اذن لماذا لم تعرف الحب في معناه الحقيقي الاصيل !؟

هناك اكثر من سبب ..

أولها وأهمها .. الانفة والكبرياء !! كبرياء الدرزية بنت الصخر والجبل !

بنت الصخر الصلد والجبل الأشم الأسود .

أو أنفة الظبي النافر في فيافي الصحراء !

لم يكن إذن في طبيعتها ولا في تكوينها أن تسلم أو تسلس قيادها لمخلوق !

ومن طبيعة الحب ان يعطي المرء بعضاً من حياته ومن قلبه ومن حريته ومن سيادته .

ولقد كانت سيادتها على نفسها وحريتها في أن تفعل ما تشاء وتشتهي هي كل شيء عند اسمهان !

لعبت بالحب .. نعم .
ومدت يدها للحب .. نعم .
ولكن لم تكن يدها تشتبك حتى تسحبها وتجفل !
ولم تكن تخطو خطوة حتى تخاف وتتراجع خطوتين !
ومن هنا كان الحب عندها أن تأخذ كل ما تستطيع من العواطف – ان جاز هذا التعبير – وأن تعطي أقل ما يمكن من عواطفها هي ! أو بعبارة اخرى كانت تأخذ اكثر الكثير وتعطي أقل القليل ! وهكذا مشت حياتها وقد خلفت وراءها صرعى كثيرين !

ليس عندها وقت للحب

ثم هناك سبب آخر ..
لم يكن عند اسمهان وقت للحب ! لهذا الحب الذي يتغنى به الشعراء ويعيش له وبه رجال ونساء !
كانت تؤمن في قرارة نفسها – ولا ادري لماذا أو كيف – انها قصيرة الأجل وأن نصيبها من هذه الحياة قليل .. ومن هنا – وكما قلت في الفصل السابق – كان خيالها خيال الشيخوخة المريضة اليائسة من رحمة الله ورحمة الناس ! هذا وهي بعد في ربيع العمر والشباب .
وكم من مرة قالت – يرحمها الله بقدر ما أساءت الى نفسها – لي وأنا أزجرها لسبب ما :
– استحملني ! كلها سنة أو سنتين كمان وترتاح مني .. أنا عارفه أن موتي قريب !
وليس هذا من خيال كاتب يستجدي دموع قرائه ولكنها الحقيقة ويشهد على صدقها صديقات اسمهان اللاتي سمعن منها نفس العبارة وهي أنها لن تعيش طويلاً .

* * *

كان هذا هو احساسها أو شعورها وهو أنها لن تعيش طويلاً ومن هنا مشت في الحياة وهي تلهث شأن الذي يمشي على عجل !

كانت تهوى الجمال في كافة ألوانه ومعانيه . الموسيقى .. الشراب الجيد .. الطعام الجيد .. الزهر الجميل .. العطر الجميل .. الثوب الجميل .. الصوت الجميل .

غروب الشمس في لجة من الذهب المذاب .. كان يملأ عينيها الجميلتين بالدمع ؛

أو نور القمر أشبه بقطرات الفضة تتساقط من بين أوراق الشجر الكثيف .. كان يمسك بأنفاسها ويشيع في وجهها عجباً من جمال الله وصنع الله !

شهدنا مرة — هي وأنا — شروق الشمس عند اللسان في رأس البر فاذا بها تخرج مصحفاً صغيراً كانت تحمله دائماً في حقيبة يدها .. وتقبل الكتاب الكريم وتبكي !

يرحمها الله ! لو أن المتناقضات جمعت في شخص واحد لكان هذا الشخص اميلي الاطرش او اسمهان !

كانت إذن تهوى الجمال في كل معنى وكل لون .. ولكنها كما قلت كانت تمشي على عجل !.. تسرع الخطى وتلهث لأن عمرها قصير .. وكانت تريد ان تتذوق من كل معنى وكل لون من ألوان الجمال .. بل وتملأ راحتيها وتنهل .

ولكن دائماً على عجل !.. وقتها قصير لأن حياتها قصيرة .. هكذا كانت تعتقد . وعمرها ما صدقت في شيء كما صدقت في هذه النبوءة التعسة !

لهذا لم يكن عجيباً — وهذا شأنها — ان لا يطول وقوفها عند الحب .. لان الحب — عندها — لم يكن سوى معنى واحد او لون واحد من ألوان الجمال .. وهي كما قلت كانت تريد ان تعب من كل معنى وتنهل من كل لون !

* * *

وأعود الآن الى سياق الحديث .

عدت الى القاهرة في مساء يوم الجمعة ١٢ يناير ١٩٤٠ . وأرسلت الى آمال اسطوانة « ليت للبراق عيناً فترى » و « بقلاوة الصمدي » و « حلوى البحصلي » .

وأجد في مفكرة الجيب بتاريخ الاحد ١٤ يناير هذه العبارة المقتضبة :

« كلمتني آمال بالتليفون لتسلم عليّ بمناسبة عودتي »

ثم أمشي في مفكرة الجيب فلا أجد حرفاً واحداً عنها الى أن أصل الى يوم الاربعاء ٢٤ يناير :

« كلمتني آمال بمناسبة عودتها من مطاي »

وقد عرفت منها فيما بعد أن كبيراً — يرحمه الله — كان استضافها هي وشقيقها فريد في ضيعته بمطاي .

ثم زارتني في اليوم التالي الخميس .

* * *

وكانت محكمة الجنايات أصدرت حكماً بتعطيل مجلة « آخر ساعة » لمدة ثلاثة شهور تنتهي في آخر يناير .

وفي مفكرة الجيب بتاريخ الخميس أول فبراير ..

« أقمت حفلة ساهرة بمناسبة استئناف إصدار المجلة ودعوت فريقاً كبيراً من الصحفيين . وغنت أم كلثوم وفريد الاطرش أما اسمهان فقد اعتذرت بالمرض من عدم الحضور ! »

ولكنني كتبت في يوم ٢ فبراير :

« كلمتني اسمهان بالتليفون ثم زارتني واعترفت أنها لم تكن مريضة ولكنها لم تحضر بسبب ام كلثوم ! »

وأذكر من كلامها يومئذ قولها وهي تضحك :

– يبقى كثير على حفلة واحدة .. أنا وأم كلثوم !..

وقد يظن أحد من هذه العبارة أن اسمهان كانت تغار من أم كلثوم .

وهذا غير صحيح لأن آمال كانت تعجب جداً بصوت ام كلثوم وكانت أسبق من غيرها – من المطربات والمطربين – الى تبيان ما في صوت ام كلثوم من ألوان وطبقات لم يهبها الله لصوت مطربة سواها . بل كثيراً ما كنت ألقاها جالسة تصغي لاسطوانة لام كلثوم وقد اقبلت عليها بكافة جوارحها وشفتاها ترتجفان شأنها عندما يغلبها التأثر وفي عينيها ما يشبه الدموع .

لم تكن الغيرة إذن هي التي منعتها من حضور الحفلة .. ولكنها الكبرياء ! الكبرياء هي التي أبت عليها ان تشهد حفلة يكون لها فيها المقام الثاني !

* * *

وكانت آمال تقيم يومئذ في فندق ميناهوس .

وقالت وهي تهم بالانصراف أنها تدعوني للعشاء غداً في ميناهوس وأنه سيكون معنا السيد واصف عزالدين والسيدة حرمه والسيد حبيب ابوشهلا .

وكلا السيدين من وزراء لبنان السابقين . وكنت سعدت بمعرفتهما وقضاء سهرة رأس السنة معهما في بيروت . وكانا حضرا الى القاهرة منذ أيام في زيارة قصيرة .

ولبيت دعوتها . وكانت سهرة جميلة أضفت عليها آمال الكثير من ظرفها ومرحها . وغنت فيها أغاني لبنانية طرب لها اصدقاؤنا الكرام .

وبعد ذلك ببضعة أيام – وعلى وجه التحديد في يوم الخميس ٨ فبراير – اقمت في داري حفلة لأصدقائنا اللبنانيين هؤلاء .

وكان بين المدعوين احمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك فاروق وغنت اسمهان في هذه الحفلة ، وغنى كذلك صديقي محمد عبد الوهاب .

هل احبت اسمهان احمد حسنين باشا ؟ !

وأقف هنا قليلاً عند هذا التاريخ ـ ٨ فبراير ١٩٤٠ ـ لانني أعده نقطة التحول في حياة اسمهان .. أو بداية الطريق الذي اختاره لها القدر والقضاء ، ففي تلك الليلة كتب القدر في لوحه المحفوظ أنه بعد أربع سنوات أو نحو ذلك سوف يحاول الأستاذ احمد سالم ان يطلق الرصاص على زوجته الكوكب السينمائي المطربة اسمهان أو آمال الاطرش بسبب شكوكه وغيرته من احمد حسنين باشا .

وان هذا الحادث سوف يرهق أعصاب آمال فتركب سيارة الى رأس البر لكي تستريح فيها وتسترخي . ولكنها تلقى منيتها المفجعة في الطريق !

نعم . كان مساء ٨ فبراير نقطة التحول أو بداية النهاية التي اختارها القدر لأسمهان .

استغفر الله .. ولكن لولا هذه الصداقة التي قامت بينها وبين حسنين باشا يرحمه الله لما كان ما كان ولاتصلت الحياة في عام ١٩٤٤ هنية راضية بينها وبين زوجها احمد سالم .. ولما كان حادث اطلاق الرصاص ..

ولما سافرت لرأس البر .. ولما لقيت منيتها في الطريق ..

ولكنه القدر .. ومرة اخرى استغفر الله

* * *

لقد قلت في الكلمة التي قدمت بها هذه القصة انني كنت أوثر كثيراً أن لا أنشر مذكراتي عن اسمهان لأسباب وأسباب .. ومنها انني حريص على أن لا أعرض لشخصيات لها في نفوس الكثيرين احترام وتقدير .. وأن لا أعبث بالجروح التي أرجو لها الشفاء ...

ومن هذه الشخصيات .. احمد حسنين باشا يرحمه الله .

* * *

بعد أيام من الحفلة أو هذه السهرة دعانا حسنين باشا لتناول الغداء .. ثم إلى حفلة ساهرة في داره ..

وتوالت بعدها الحفلات والسهرات : عنده أو عند أصدقائنا .. ومن هنا تعددت مقابلاته لأسمهان .

ودعتني مرة لتناول الشاي معها وكانت لا تزال تقيم في فندق ميناهوس ..

وبينما نحن جالسون نتحدث دخل علينا حسنين باشا .

وقالت هي بعد انصرافه : إنها لم تدعه لتناول الشاي وأنه جاء على غير موعد

وقد تكون يرحمها الله صادقة في قولها هذا يومئذ ..

ولكن حسنين كان رجلاً ولا كل الرجال !

كان رجلاً يفتن ويسحر ويبهر ويستوقف النظر في أية حفلة مهما اشتد فيها الزحام !

شكله . مظهره . اناقته . رجولته . اسمه المدوي . تاريخه المليء . منصبه الخطير . مغامراته المشهورة . حديثه الساحر . خبرته العميقة بالنساء وطباع النساء ..

لا عجب ان بُهرت به اسمهان ..

ولأول مرة أحست آمال بما يشبه الحب ..

وكان احمد حسنين أول رجل – أو الرجل الوحيد كما اعتقد اليوم – الذي عرف كيف ينساب في كياسة وحذر الى هذه الكبرياء النافرة ويجعلها تأنس اليه وتطمئن وتسلس له قيادها ..

ولكن الى حد ما !

وهو ؟.. هل أحبها ؟

نعم . أحبها وفي غير تحفظ الا ما كان يفرضه عليه منصبه الكبير الخطير وكان حبه لاسمهان أمراً معروفاً في المحيط الرفيع الذي كان يتحرك فيه .

واني لأسأل نفسي هنا هل اكتب وأنشر كل ما أعرف ؟ وهل اذكر مثلاً أنه كان هناك كبير آخر يشغل هو أيضاً منصباً كبيراً من مناصب

الدولة وهو المرحوم مراد محسن باشا مدير الخاصة وقد أحب اسمهان ..
وأن الغيرة أو المنافسة ، قامت بين الرجلين أو الكبيرين .. وأن سير العمل
في ديوان فاروق كاد يتعطل بسبب هذه الغيرة بين الاثنين ؟!

لو أنني كتبت لأدرك القراء ورأوا أنه كان لاسمهان أثر — أي أثر ،
وإن يكن عن غير قصد منها — في سياسة مصر الداخلية وما كان يجري
بين « الكواليس » في عام ١٩٤٠ .

* * *

ومضت معرفتي أو صداقتي باسمهان بسيطة طيبة .. صداقة خالصة
لا شيء فيها ..

كانت تسأل عني بالتليفون ، وكنت اسأل عنها بالتليفون .

ومرة واحدة في كل أسبوع — وغالباً في يوم الاحد — كانت تتناول
معي الغداء ونجلس ونتحدث ونتبادل الاخبار مثل أيِ صديقين .

وكانت صريحة معي ، لا تخفي عني شيئاً من اخبارها ..

فلان باشا يتودد اليها وقد اهدى اليها صندوق شمبانيا ..

ودعاها لمقابلته في مكان كذا ولكنها لم تذهب !

وفلان — الوزير السابق — دعاها لتناول العشاء معه ومع زوجته وأولاده ..
وبينما هم حول المائدة .. مد يده من تحت غطاء المائدة يحاول أن يمسك بيدها !

حسنين باشا دعاها لتناول الغداء .. ثم تركها ولكنه عاد بعد دقائق
وقد استبدل ملابسه ووقف أمامها يقول :

— هذه سترة لركوب الخيل !

ثم خرج من باب .. وعاد من باب آخر وقد استبدل ملابسه مرة
أخرى ووقف أمامها يقول :

— وهذه سترة للصيد !

ثم خرج .. وعاد .. يقول :

– وهذه سترة .. التشريفة الكبرى ..
.. وهذه بدلة السهرة
.. وهذه بدلة الفراك .. وهذه « البونجور » ..
قالت : وأخيراً قمت اتفرج على خزائن ملابسه لكي أوفر عليه مشقة هذا الاستعراض !.. ووجدت فيها عشرات السترات . وعشرات رباطات العنق . وعشرات من القمصان .. ولكني لم أجد منديلاً واحد ذا قيمة .. كل مناديله كانت من القطن .. أو من التيل الرخيص !
وضحكت وقالت :
– وفي اليوم التالي أهديته أربعة وعشرين منديلاً من « اللينو » .
وكانت يرحمها الله تقص عليّ أخبارها هذه – أو نوادرها مع عظماء مصر وكبرائها – وهي تضحك وتقول :
– آه لو تستطيع نشر هذه الاخبار اذن لعرفت مصر الكثير عن زعمائها وكبرائها المشهورين !

* * *

كانت صداقتنا كما قلت طيبة خالصة . وقد قنعت منها أنا بهذه الصداقة فكنت أرتاح للجلوس معها . وكانت هي تطمئن لي وتثق بي وتلجأ الي كلما نزلت بها شدة أو حرج كما حدث في مناسبات عديدة .
وأمامي الآن وأنا اكتب خطاباتها وبرقياتها العديدة التي ارسلتها اليّ تارة من القدس وتارة من دمشق أو بيروت وفيها ما فيها .. وقد انشر بعضها فيما يلي من الفصول .
وأمامي كذلك خطاب جاءني اخيراً من قنا وقد اكتفى صاحبه بامضائه (المخلص) وفيه يقول أنه سمع من سيدتين شقيقتين كانتا من اعز صديقات المرحومة اسمهان كذا وكذا .. وأنها قاست مني كثيراً بسبب إسرافي في الشكوك والظنون ، ثم يطلب مني حضرته أن أجلو هذه النقطة وأردت

وهأنذا أفعل وأقول أن ما سمعه من السيدتين غير صحيح .

وأن الصحيح هو أن اسمهان رحمها الله لم تحبني ولم تكن لأي رجل حباً بالمعنى الصحيح .

ربما كنت اعتقدت في وقت ما أن قلبها يطوي لي شيئاً اكثر من الصداقة وأقوى من الود .. وربما كانت تحدثت الى بعض صديقاتها في هذا .. ولكن الحقيقة هي ما أقول الآن .

وهذه الحقيقة هي أنه لم يكن هناك من جانبها اي حب لي .. وما أنا بمغرور حتى أطوي قلبي على وهم لا ظل له من الحقيقة .

كانت تضمر لي وداً ، نعم . وكانت هناك صداقة وثقة وتقدير . ولكن هذا كل ما كان هناك .

اسمهان الطيبة القلب

وهذه حادثة اقصها لا لأن لها دلالة خاصة ولكن لأنها تكشف عن ناحية من أخلاق آمال الاطرش ومعدنها الأصيل .

دعتها مرة مطربة — من مطربات الدرجة الثانية أو الثالثة — لحضور حفلة لها ولبت اسمهان دعوة « الزميلة » وألحت علي أن أصحبها ..

وجلست في البنوار الذي وضعته المطربة الداعية تحت تصرف اسمهان .. ورفع الستار وانطلقت المطربة تغني بصوت أشبه بصرير الباب العتيق ! وزمت اسمهان شفتيها وشدت على أسنانها ..

أما أنا فقد تراجعت بمقعدي الى مؤخرة البنوار .. وتهيأت للخروج !

ولكن اسمهان أصرت علي أن نبقى الى نهاية الحفلة .. والتفتت الي تهمس وتهددني بأنها مستعدة لأن تعمل فضيحة وتمسك بخناقي إذا لزم الأمر لكي ترغمني على البقاء !.. وصاحت في .. اقعد !

وقعدت .. واضطررت أن اسمع « صرير الباب العتيق » الى ما بعد

منتصف الليل !

ولما خرجنا الى الشارع قالت :

– هل يكلفك كثيراً أن تجبر بخاطر الناس ؟ أي ألم كنت أسببه لها لو كانت رأتني أغادر حفلتها بعد الوصلة الاولى ؟

قلت : ولكن من مصلحتها هي نفسها أن تعرف أن صوتها لا يصلح للغناء .

وابتسمت رحمها الله وهي تقول :

– دعها تغني فلعل بلوى الناس بسماع صوتها أخف كثيراً من بلواهم بها إذا هي اشتغلت بغير الغناء !

ومضينا نبحث عن تاكسي ..

وعلى افريز شارع عماد الدين عند ناصية شارع دوبريه رأينا امرأة شابة في ملابس رثة ممزقة قد افترشت بلاط الافريز وأسندت رأسها الى الجدار .. وهي في سبات عميق !..

وعلى صدرها يرقد رضيع قد أحاطته بذراعيها ..

ووقفت آمال أمام الاثنين .. ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها ورقة مالية ..

وترددت والتفتت اليّ تقول :

– ولكن لو وضعت الفلوس في يدها يمكن حد يفوت ويشوفها ويسرقها منها وهي نايمة !

وجلست آمال القرفصاء أمام الشابة النائمة . ومدت يدها وتناولت الرضيع برفق من على صدرها .. ثم مدت يدها بالورقة المالية ودستها في صدر المرأة .. وهنا أفاقت الأم من نومها مذعورة فزعة .. وحملقت في اسمهان ثم مدت يدها بلهفة تسترد رضيعها .

وقالت أسمهان :

– ما تخافيش .. ما تخافيش .. أنا خدته علشان أقدر أحط لك الفلوس في صدرك ..

ومدت المرأة يدها الى صدرها واخرجت الورقة ونشرتها بين يديها وتطلعت فيها كأنها لا تفهم :

وأشك أنا كثيراً أن هذه البائسة رأت عمرها ورقة مالية من هذه القيمة .

لقد كنت حسبت لحظة رأيت اسمهان تخرج من حقيبة يدها ورقة مالية مطوية أنها ستعطي المرأة جنيهاً ..

ولكنها أعطتها ورقة من فئة الخمسة جنيهات !

ولعل هذا المبلغ كان كل ما تملكه اسمهان في ذلك المساء !

تريد أن تهرب وتعود الى زوجها

وأمشي في مفكرة الجيب الى أن أصل الى يوم الاحد ٣ مارس ١٩٤٠ وأفك العبارات المقتضبة وأعود بالذاكرة الى التفاصيل .

كنت جالساً وحدي اقرأ عندما دق جرس التليفون وكانت الساعة العاشرة تقريباً وكانت اسمهان .

قالت :

— هل يمكنك أن تستضيفني يومين أو ثلاثة ؟

وظننت أنها تمزح وضحكت .

وقالت هي : ان المسألة جد .. فهل يضايقك أن أنزل في ضيافتك يومين أو ثلاثة ؟

قلت : ابداً . ولكن لماذا !؟

قالت : سأقص عليك السبب فيما بعد .

سألتها : وأين انت الآن ؟

قالت انها تتكلم من دار حسنين باشا ثم اضافت :

— أنا باكلمك من غرفة المكتب . وأنا الآن وحدي . لأنه صعد الى الطابق الأعلى .. وهو لا يعرف انني اكلمك الآن .

قلت لها :

– على الرحب والسعة وسوف أعد لك حجرة ..

* * *

واعددت لها حجرة الضيوف . وجلست انتظر .

وطال انتظاري حتى ظننت أن الأمر مزاح وأنها لن تحضر ..

ولكنها حضرت اخيراً قبيل منتصف الليل .

وفتحت لها الباب .. ومن نظرة واحدة الى وجهها وعينيها أدركت أنها كانت تبكي !

وتوجهت هي مباشرة الى غرفة المائدة وتناولت قدحاً صبت فيه جرعة طيبة من الويسكي ثم عادت وجلست أمامي في مقعد كبير .

وسكت أنا وانتظرت حتى تبدأ هي الحديث ..

واخيراً قالت .. ان حياتها مع أمها وشقيقها فؤاد أصبحت لا تطاق وان فؤاد ضربها اليوم ضرباً موجعاً وسجنها في غرفتها . أما لماذا ضربها فهذا كما وعدت في فصل سابق ما أؤثر أن أمر به مرّ الكرام !

.. ولم ينقذها من سجنها هذا سوى تليفون من حسنين باشا الذي تكلم ليسأل عنها ويذكرها بموعدها معه هذا المساء . وأن فؤاد لما سألها عن هذا الموعد قالت إن حسنين باشا يحيي في داره حفلة هذا المساء وأنه دعاها لتغني في الحفلة .

وهنا فقط رضي فؤاد أن يخرجها من سجنها .. وأصر على أن يوصلها بنفسه الى دار حسنين باشا ليتأكد من أنها لم تكذب عليه !

ثم قالت :

– ولقد قصصت على حسنين ما جرى . وكنت ابكي وقلت له انني لن أعود الى داري لأن فؤاد سوف يضربني من جديد . ولقد بكى حسنين لبكائي . وعرض عليّ أن أقيم في داره وأن يدعو السيدة شقيقته لتقيم معي

في الدار قطعاً لألسنة السوء ولكني شكرته ورفضت اشفاقاً على منصبه الكبير من تقولات الناس وتخرصاتهم وأنت تعرف أن خصومه وحساده كثيرون .

* * *

وفي مفكرة الجيب بتاريخ الاثنين ٤ مارس :

« لا تزال آمال عندي . ولا يزال أهلها يبحثون عنها .

وقد كلمتني أمها اليوم بالتليفون لتسأل عنها فأنكرت علمي بأي شيء !

ولقد قضت آمال يومها وهي في حالة خوف بل رعب شديد من ان يهتدي شقيقها فؤاد الى مقرها .. وكانت تغلق باب حجرتها عليها ولا تفتحه إلا إذا سمعت صوتي واطمأنت أن ليس هناك أحد سواي .

وفي المساء جلسنا نتحدث .. وفي هذه الجلسة قصت عليّ كثيراً مما كانت تلقاه وتقاسيه في حياتها العائلية .

وأخيراً قلت لها .. إن سر اختبائها عندي لابد أن ينكشف فماذا هي تنوي أن تفعل ؟

وقالت هي :

— سأعود الى جبل الدروز وأقبل قدمي حسن (تقصد زوجها السابق حسن الاطرش) .. لكي يردني زوجة له .. فاذا رفض توسلت اليه أن يبقيني خادمة في داره !

وبكت وهي تقول : وهذا خير ألف مرة من هذه العيشة التي أنا فيها !

وأخيراً اتفقنا على أن تسافر غداً الى الاسكندرية وتقيم عند صديقتها الممثلة إلهام حسين ريثما تدبر أمر سفرها الى بيروت .. إما بالباخرة وإما بالقطار عن طريق القنطرة وحيفا .

* * *

وأصبحنا يوم الثلاثاء .
وأمضت آمال يومها .. مثل أمس في غرفتها وقد اقفلت عليها بابها بالمفتاح .
وفي ستر من ظلمة المساء غادرت داري لكي تسافر الى الاسكندرية.
وقالت وهي تصافحني وتشكرني أنها سوف تكلمني غداً — الاربعاء — بالتليفون الساعة الواحدة بعد الظهر لكي تطمئنني على أحوالها .
ولما ودعتها ودعوت لها بالسلامة بكت !.. وتندت عيناي أنا بالدموع !
ورأيتها ساعتئذ — كما رأيتها اول مرة — شيئاً صغيراً نحيلاً مسكيناً يبعث الرحمة في الصدور !

فضيحة كبرى ولكن الله سلم !

وفي منتصف الليل دق جرس التليفون وإذا شقيقها فؤاد الاطرش يسألني هل أعرف أين توجد شقيقته آمال لأنها اختفت منذ يومين ..
وقلت له انني لا أعرف !
وفي الصباح كلمني بالتليفون المرحوم سليم زكي — (حكمدار العاصمة اللواء سليم زكي باشا) — وسألني نفس السؤال .. أين اسمهان ؟
ولما قلت له انني لا أعرف صاح بحدة :
— لا .. أنت تعرف هي فين والحكاية مش هزار !.. دي ممكن تبقى فضيحة كبيرة .. ولا استطيع أن أقول لك اكثر من هذا بالتليفون !..
ودعوته لمقابلتي في داري في منتصف الساعة الواحدة .
وكنت أعرف ان آمال الاطرش صديقة لأسرة المرحوم اللواء سليم باشا زكي وأنه رحمه الله هو والسيدة زوجته كانا يعطفان عليها كثيراً ويعاملانها كابنة لهما ..
وفي الموعد المحدد حضر سليم زكي باشا ومعه الامير الاي احمد طلعت بك .

وقال يرحمه الله ان فؤاد الاطرش يبحث عن آمال منذ يومين . وأنه جاءه اخيراً يقول أنه – أي فؤاد – كان أوصلها بالسيارة الى باب دار احمد باشا حسنين ولما لم تعد ليلتها سأل عنها حسنين باشا بالتليفون فأجابه أنها غادرت الدار ولما لم تعد عاد فؤاد وسأل حسنين أين آمال ؟

وأجابه حسنين أنه لا يعرف أين هي .

ومضى سليم زكي باشا يقول :

– وأخيراً جاءني فؤاد يقول .. إذا كانت اختي ماتت أو قتلت فعايز أعرف قبرها فين !.. وأنا وصلتها بنفسي لباب بيت حسنين باشا وأنا راح أخرج من هنا وأروح اقدم بلاغاً للنائب العمومي اروي فيه الحكاية وأطلب منه التحقيق .. وان يبدأ التحقيق بسؤال معالي رئيس الديوان احمد باشا حسنين !

ثم قال سليم زكي باشا :

– ولقد اخذت فؤاد تارة بالرجاء وتارة بالتهديد حتى رضي ان ينتظر وأن لا يقدم بلاغه للنائب العمومي . وأنت (موجهاً حديثه اليّ) تعرف اية فضيحة بل اية ازمة كبيرة قد يثيرها تقديم هذا البلاغ .. وحسنين باشا صديقك الى آخره .. الى آخره ..

وقصصت عليهما – على سليم زكي باشا واحمد طلعت بك – حكاية اسمهان منذ كلمتني بالتليفون في مساء الاحد الى آن غادرت داري في مساء امس الثلاثاء . وقلت أنها ستكلمني الآن – الساعة الواحدة – بالتليفون من الاسكندرية .

ولم يطل انتظارنا ..

ودق جرس التليفون . وكانت آمال .

وحييتها وسألتها عن حالها فقالت أنها منقبضة الصدر ولا تعرف بعد كيف تدبر أمر سفرها الى الشام .

قلت لها : هنا صديق يريد أن يحدثك .

وقبل أن تجيب أو تسألني من هو .. ناولت السماعة للمرحوم سليم باشا زكي. وتناوب هو واحمد طلعت بك الحديث معها وهدآ من خوفها ورعبها من شقيقها فؤاد واكدا لها أنه لن يجسر على الاساءة اليها .. ووعدها سليم زكي باشا بأنه والسيدة حرمه سوف يستقبلانها بنفسهما في المحطة ويأخذانها معهما الى دارهما حيث تنزل عندهما ضيفة معززة مكرمة الى أن يتم صلحها مع شقيقها فؤاد .

وهكذا كان .

وهكذا أنقذ سليم زكي باشا وطلعت بك الموقف . أو انقذا رئيس ديوان فاروق من فضيحة لم يكن له يد فيها ولا كان مسؤولاً عنها .

٥

حياتها العائلية المضطربة

خطاب من اسمهان

وهذا خطاب واحد من كثير .. وكنت أحب ان لا أشير الى خطابات اسمهان وان لا انشر شيئاً منها .. ولكن بعض أقاربها أثار ضجة اثناء نشر هذه القصة واتهمني بالكذب والافتراء وزعم أن اسمهان كانت سعيدة جداً في حياتها العائلية .. الى آخره ...

ثم تحداني أن اقيم الدليل على صدق روايتي ..

ومن هنا رأيت نفسي مضطراً الى نشر هذا الخطاب ..

ومع ذلك فأنا اكتفي بنقل فقرات معينة من الخطاب .. وقد جمعتها بعضها الى بعض ..

وأما الخطاب كله فها هي ذي صورته بالزنكوغراف . ولسوف يجد القارىء صعوبة في قراءة خط اسمهان — او آمال — وهي نفسها تعترف برداءة خطها ..

وها هي الفقرات التي نقلتها من الخطاب .

« القدس في ٢١ يونيه ١٩٤١

عزيزي محمد

لم اتعود الكتابة لاحد . هذا عدا ان كتابتي رديئة . وانشائي اردأ

ولكن هل لك بالله عليك ان تقل لي ماذا انتظر من وراء وجودي بمصر بعد الذي رأيته وما تحملته من شقاء اثناء اقامتي فيها ؟

اني بائسة يا محمد وبائسة جداً .. انني لا أعلم ماذا افعل فاني دائماً امرأة بدون مستقبل وأنت الوحيد الذي اعتمد عليه في هذه الدنيا فلم أعد أعرف ولا أعترف ان لي أماً ولي أخوات بعد الذي شفته منهم .

لقد أرسلت الى فؤاد حين وصولي الى هنا مبلغ ١٠٠ جنيه مصري فلم يكتب لي بعدها ولا كلمة شكر فماذا أنا منتظرة منهم

اكتب لي يا محمد واني بعد الآن لن اطلب منك ان تخبرني عن أي شيء والذي أطلبه منك فقط ان تكتب لي دائماً وتخبرني عنك وعن كل شيء يهمني عنك وأنت تعرف ماذا اقصد فهل يا ترى سيسمح الزمان القاسي واراك »

* * *

وفي ختام خطابها تقول ..

وابقي امضي مرة ثانية (لأنني لم أوقع باسمي على خطابي الذي كنت ارسلته اليها) ارجو ان تعرف تقرأ خطي . سلامي الى جمال (جمال جبر) واني متكلة عليه يأخذ باله منك .

آمال الاطرش

قبلاتي الى امينة (السيدة امينة البارودي) والى زينب هانم واني لم انساهم ابداً وصورة امينة دائماً امامي ...

وهذا قسم من خطاب اسمهان محفور بالزنكوغراف يحتوي المقطع الاول والمقطع الاخير :

وسأخلص لك دائماً وإلى الأبد . (د منتظر كده على مهمتي عليك) وأبقيت أمضي مرة ثانية أرجو ان تعرف تقرأ خطي .

سلامي إلى جمال وأنا أشكره جداً بأنه يحفظ باله منك

آمال الأطرش

قبلاتي إلى أمينة وإلى زينب هانم وإني لم أنساهم أبداً وصورة أمينة دائماً أمامي

آمال

الحكم عندها للعاطفة .. أما المادة فلا شيء !

كيف كانت تعيش !؟ من أين كانت تنفق ؟

قلت في فصل سابق ان آمال الاطرش يرحمها الله عرفت الفقر والحاجة بل وذاقت ألم الجوع ومرارة الحرمان في طفولتها ومستهل صباها .. كما عرفت فيما بعد – في سنة ١٩٤١ وما تلاها – سعة الرزق والترف والاسراف

الذي ما بعده أسراف يوم كان الذهب يجري بين يديها .

ولكنني أكتب اليوم عن أسمهان في عام ١٩٤٠ .. كيف كانت تعيش ؟ ومن أين كانت تنفق ؟

لقد كانت تبدو دائماً أنيقة رشيقة نظيفة . ومع ذلك فانها لم تكن تملك يومئذ أكثر من ثوبين أو ثلاثة أثواب .. بينما كانت الحلي التي كانت تتزين بها من زجاج . او حليها الذهبية .. من النحاس !

وهي ، كما سبق أن قلت ، كانت تحب كل لون وكل معنى من ألوان ومعاني الجمال .. الثوب الجميل والحذاء الجميل . ومعطف الفرو الثمين . والزهور والعطور .. الى آخره .

وما كان أسهل عليها في تلك الأيام ان تحقق لنفسها ما تشتهي وأن تشبع حبها للترف ولزينة الدنيا ومتاعها . فكيف رضيت اذن بالثوبين أو الثلاثة وبسوار النحاس وخاتم الزجاج ؟

كبرياؤها وأنفتها الطبيعية التي لا زيف فيها ولا تقليد .

عمرها ما رضيت أن تحط من كبريائها من أجل المال ..

كانت تحب المال نعم . لكي تنفقه .. ولكن كبرياءها كانت دائماً فوق المال وقبل المال !

كانت اسمهان في حياتها تسير حيناً وتندفع أحياناً .. ولكن دائماً بحكم العاطفة !

كانت هوائية نعم . كثيرة النزوات . سريعة التقلب . ولكن كل هوى وكل نزوة كان مصدرهما دائماً عاطفة ما .. أو احساساً ما ..

أما المادة واغراء المادة فلم يكن لهما عند اسمهان تقدير أو حساب .

ومن هنا رضيت — وهي القادرة بجمال صوتها وجمالها . وشبابها على أن تنال من دنياها ما تشتهي — رضيت بحياتها التي وصفت ، وحرمانها لأنها كانت تعلم أن التي تريد أن تنزل الى السوق تبتاع منها كل ما تشتهي لابد لها أولاً أن تنزل الى (سوق) أخرى ليس فيها للكبرياء حساب !

وليس فيها للعاطفة وزن ولا تقدير !
سوق المذلة . أو سوق الهوى والهوان !
ولكن كبرياءها .. كانت عندها فوق كل اعتبار .
وعواطفها واشباع عواطفها ونزواتها كان زادها في هذه الحياة !

* * *

وكانت اسمهان يومئذ — عام ١٩٤٠ — قد اتفقت مع محطة الاذاعة على ان تذيع منها مرة واحدة في كل شهر في مقابل اجر لا يزيد فيما اذكر على ١٤ جنيهاً زادوها فيما بعد الى ١٧ جنيهاً ، هي وأفراد التخت. وكان نصيبها وحدها من هذا الاجر عشرة جنيهات أو نحو ذلك .

وكانت تسجل في الوقت نفسه — وكل بضعة شهور — أسطوانة أو اسطوانتين لحساب شركة بيضافون . وكان أحد أصحاب الشركة المرحوم الدكتور بيضا يعطف كثيراً عليها كما أسلفت ويقرضها على الحساب من وقت الى آخر ما تحتاج اليه من المال .

وكانت رحمها الله تدعى أحياناً لاحياء حفلات الزفاف في القاهرة أو في الارياف وتنال عن كل حفلة ما بين ثلاثين وأربعين جنيهاً ..
ولكنها كانت تنفر بل كانت تمقت هذه الحفلات ، لأنها — كما سبق أن قلت — كانت تكره وتأنف أن تقف وتغني أمام سيدات لسن أعلى مقاماً منها ولا خيراً منها في شيء !

الجو الذي كانت تعيش فيه !

كانت تحب الغناء ، وشأن الفنانة الاصيلة كانت تحب دائماً أن تغني ..
ولكن تغني لمزاجها هي .. وبرغبتها هي .. وأمام من تأنس لهم وترتاح .
أما الغناء بالاجر .. وأمام من تعرف ومن لا تعرف .. فهذا هو الذي

كانت تضيق به وتثور من أجله !

ولكنها كانت مضطرة لأن تغني لكي تعول أسرتها .. أمها وابنتها كاميليا (من زوجها حسن الاطرش) .

وكان الاستاذ فريد الاطرش يساهم في النفقات . ولكن النصيب الاكبر من هذه النفقات كان يقع دائماً على عاتق أسمهان .

قالت لي مرة يرحمها الله في لحظة ضيق طفرت فيها الدموع من عينيها :

ـ ان أهلي لا يقولون لي صباح الخير إلا بالثمن .. صباح الخير .. عايزين النهارده خمسة جنيه !.. صباح الخير .. لا تنسي أن تشتري للبيت كذا وكيت !.. صباح الخير .. بكره لازم ندفع قسط المقاول عشر جنيهات !

ومن هنا كانت تقبل أن تغني في هذه الحفلات التي تكرهها . وأن تسافر الى كفر الشيخ والى المنيا وزفتى وأسيوط .

ولو كان أمرها بيدها أو لو كان عيشها مقصوراً على نفسها لأرضت كبرياءها ورضيت بالقليل وعاشت على القليل .. ولكن كانت هناك أسرتها .. وطلبات الاسرة !.. بل وطلبات القادرين على أن يعملوا ويعولوا أنفسهم ولكنهم لا يعملون !

هذه ناحية من نواحي حياة اسمهان الداخلية أو حياتها العائلية .. جلوتها في شيء من الصراحة أو الصرامة لكي يفهم من له قلب لماذا كانت أسمهان تهرب أحياناً أو تلجأ أحياناً الى الحياة الخارجية تلتمس فيها بعض التسلية وبعض العزاء .

وقد يجدر بي وأنا بصدد الحديث عن هذا الجانب من حياتها أو هذه الناحية من أخلاقها أن أروي هنا حادثة أو حادثتين .

حدث ذات يوم أن جاءني خادم سيدة قريبة لها ـ وأغفل عامداً ذكر اسمها ودرجة قرابتها لاسمهان ! ـ واسم الخادم المذكور (حكمت ..) جاءني موفداً من قبل سيدته يطلب باسمها خمسة عشر جنيهاً لأنها في شدة الحاجة للمبلغ المذكور .. وناولته المبلغ ولم أقل شيئاً عن هذا لاسمهان .

ولكن كم كانت دهشتي — وسخطي — في اليوم التالي حين كلمتني السيدة المذكورة بالتليفون تقول أن خادمها حكمت اخطأ في رقم المبلغ المطلوب .. لأنها محتاجة الى ثلاثين جنيهاً لا خمسة عشر !

وقلت لها — وأنا أحياناً اضع حيائي في جيبي وأقول ما أعتقد أنه حق ! — قلت لها :

— كنت أصدقك لو أنك طلبت الآن (٢٥) جنيهاً .. لان خادمك قد يخطىء بين رقمين متشابهين مثل (٢٥) و (١٥) .. ولكن كيف يخطىء بين (٣٠) و (١٥) ؟

واقفلت في وجهها التليفون !

ويظهر أن حضرتها — لما رأت أنني أرسلت اليها على الفور ما طلبت — عادت وندمت لأنها لم تطلب اكثر مما طلبت !

ورويت ما حدث لاسمهان .. واصفر وجهها يرحمها الله ، وأطرقت برأسها خجلاً .. وأخيراً قالت :

— عدني أن لا تفعل شيئاً من هذا بعد الآن .. والا فتحت على نفسك باباً يصعب عليك اغلاقه فيما بعد .

/ ثم اقرأوا هذه الحكاية :

في اوائل شهر مايو ١٩٤١ مرضت أسمهان وعادها الطبيب ووصف لها الدواء .

ولكنها لم تكن تملك ثمن الدواء . وكان تعيش يومئذ وحدها في مسكنها بعمارة ايموبيليا .

وأحس خادمها وخادمتها بأن سيدتهما لا تملك ثمن الدواء الذي وصفه الطبيب فتعاون الاثنان على شراء كل ما يلزمها الى أن تم لها الشفاء .

وبعد شفائها تقابلنا . وكان خادمها الامين أسر الي بما حدث واستدرجتها في الحديث الى أن اعترفت بما كان وأنها لم تكن تملك ثمن الدواء .

وعاتبتها وسألتها لماذا لم تلجأ الى صداقتي فقالت :

– تكفيني صداقتك . ثم أنا لم اعتد ان أمد يدي لأحد بالسؤال !

* * *

وفي مرة أخرى قطع النور عن مسكنها لأنها لم تدفع « فاتورة » النور وباتت ليلتها في الظلام وجاءني خادمها في الصباح .

قلت له : ولكن سيدتك كانت تكلمني الآن بالتليفون ولم تذكر لي شيئاً من هذا .

وقال الرجل : حضرتك تعرفها كويس . وأنه يستحيل عليها أن تطلب منك أو من أي أحد فلوس !

وهذا صحيح . عمرها ما مدت يدها ولا فتحت فمها بطلب مال . بل على العكس كانت تتظاهر دائماً انها ليست محتاجة لشيء وأن عندها ما يكفيها !

هذه حكاية ! وتلك حكاية !.

أو هذه أخلاقها !.. وتلك أخلاق السيدة قريبتها او اقرب الناس اليها !

واحكموا في أي جو عائلي كانت تعيش المسكينة اسمهان .

* * *

وأمشي سريعاً في مفكرة الجيب وفي الحوادث لأنني – كما قلت – أود أن أختار منها وأكتفي بكل ما يجلو شخصية اسمهان وأخلاق اسمهان أو بما كان له أثر واضح في حياتها يرحمها الله .

أمشي سريعاً الى أن أصل الى صيف عام ١٩٤٠ .

ودخلت ايطاليا الحرب .. وبدأت الغارات الجوية على مدينة الاسكندرية.

ولأول مرة عرف مصيف رأس البر الصغير معنى الاقبال ومعنى الزحام فقد آثر الذين اعتادوا قضاء الصيف في رمل الاسكندرية ان يمضوه في مصيف رأس البر في أمان أو ما يشبه الامان .

وكان من هؤلاء آمال .. وكانت تقيم في فندق كورنيل . بينما كنت

أقيم في عشة على شاطىء البحر .

وكان طبيعياً أن ألقاها وتلقاني في كل يوم . وخصوصاً عند ما كان يزورني صديقات وأصدقاء لها مثل الاستاذ محمد عبد الوهاب والاستاذ احمد سالم وزوجته (يومئذ) أمينة البارودي وكانت أعز صديقة لآمال !

كنا نتناول الغداء معاً والعشاء معاً ونمضي معاً يومنا وسهرتنا .

وكم من مرة جلسنا فيها على رمال الشاطىء في نور القمر ما بين موسيقى وغناء عبد الوهاب واسمهان .

* * *

وجاءها أحد متعهدي الحفلات يعرض عليها أن يقيم حفلة في رأس البر تغني فيها .

وقبلت هي لأنها كانت محتاجة دائماً لأن تعمل بحكم ظروفها التي أسلفت فيما سبق من الحديث .

وأقام الرجل سرادقاً عند لسان رأس البر .. وأقبل الجمهور على الحفلة ..

ووقفت اسمهان تغني — من غير ميكرفون — ومن ورائها وحولها هدير الأمواج ..

وصاح أحد السامعين .. وكان يجلس في صحبة من رفاقه .. وكانوا مثله سكارى :

— مش سامعين ... ارفعي صوتك شوية ! واخيراً نهض وهو يصيح في اصحابه بصوت عال :

— قوموا يا اولاد بلاش قرف ! يا الله بنا نروح نسمع في الراديو حاجة لأم كلثوم والا ليلى مراد !

وانسحب الجميع !

وفي تلك الليلة بكت اسمهان لا للاهانة التي لحقتها وإنما بكت حسرة وحزناً لأن حكم العيش يرغمها على الغناء أمام مثل هذا الجمهور !

طريق الموت ... !

وذات يوم في أوائل شهر سبتمبر كنا ذاهبين بالسيارة من القاهرة الى رأس البر — هي وصديقنا جمال جبر وأنا ..

واجتازت السيارة كوبري المنصورة وانحرفت الى اليمين في طريقها الى دمياط ورأس البر .. تاركة بلدة طلخا وراءها الى اليسار .

وعلى مسافة كيلو مترين أو ثلاثة من بداية هذا الطريق الزراعي — وربما في نفس المكان الذي انقلبت فيه سيارتها في الترعة .. ووقعت الفاجعة التي لقيت فيها منيتها بعد ذلك بنحو اربع سنوات

.. كانت هناك آلة بخارية للري .

وكان صوت الآلة يقرع السمع دق متواصل منتظم مطرد !

وكانت آمال في تلك اللحظة تغني !

كانت تغني قصيدة عن الموت والقبر والفناء . هي قصيدة ابي العلاء المعري التي مطلعها :

« غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح باك ولا ترنم شادي »

وكانت محطة الاذاعة قد اختارت هذه القصيدة وعهدت الى الموسيقار الاستاذ زكريا احمد بتلحينها والى اسمهان بغنائها . ولقد غنتها فعلاً وأذكر أن المرحوم الدكتور زكي مبارك كتب يومئذ يقول ان عمره ما سمع غناء أشد كآبة من هذا الغناء ولا صوتاً أعمق حزناً من صوت اسمهان !

وكانت آمال قد تلقت اللحن يوم سفرنا الى رأس البر من المرحوم زكريا احمد وراحت — ونحن في السيارة في طريقنا الى رأس البر — راحت تحفظه و (تتمرن) على غناء القصيدة قبل تسجيلها على شريط لمحطة الاذاعة ..

وكانت في يدها ورقة مكتوبة فيها القصيدة . وكانت تلقي

نظرها عليها من وقت لآخر كلما خانتها الذاكرة أو نسيت كلمة او مطلع بيت .

* * *

كانت تغني والسيارة في طريقها ..

ووصلت السيارة الى مقربة من الآلة البخارية للري .. وكانت آمال تغني في تلك اللحظة البيت الذي يقول فيه أبو العلاء :

صاح.. هذه قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد!

هذا وصوت الآلة البخارية يقترب ويعلو .. ويدق السمع دقاً منتظماً مطرداً .

وفجأة تقلصت عضلات وجه آمال وغشي صفاء عينيها رعب مباغت ! وتركت الورقة تقع من يدها ..

وأخفت وجهها بيدها ..

ودهشت .. وسألتها : ماذا جرى ؟

ولم تجب !.. ومرت لحظات . وكانت السيارة قد ابتعدت بنا ... وغاب عنا صوت آلة الري ودقاتها .

واخيراً رفعت يديها عن وجهها وقالت :

– لقد خيل الي أنها دقات دفوف الجنازة . وأنا ما سمعت هذا الدق مرة إلا انتابني رعب شديد . وفي السويداء (عاصمة جبل الدروز) بالقرب من قصر الأمير (تقصد زوجها حسن الاطرش) آلة للطحن . وكنت اتحاشى المرور بالقرب منها حتى لا أسمع صوت دقاتها لانه كما قلت يذكرني بقرع دفوف الجنازة !

هذه واقعة اذكرها جيداً وأرويها كما وقعت . فهل كانت المسكينة أحست في تلك اللحظة أنها تجتاز طريق الموت !.. نفس الطريق الذي سوف تلقى فيه حتفها بعد أربع سنوات ؟

من يدري ! ومن ذا الذي يستطيع ان يلم بأسرار الالهام وإحساس النفس واتصالها بالمعلوم والمجهول !

خمسة جنيهات فقط من ٣٠٠ ! !

وجاءتني ذات يوم في رأس البر فرحة متهللة الوجه ..

لقد كلمها بالتليفون من القاهرة موظف باحدى الهيئات السياسية الشرقية وابلغها أنه تلقى خطاباً من سمو الأمير (فلان) ومعه شيك لها بمبلغ ثلاثمائة جنيه وان سمو الامير يبعث اليها بتحياته وبالمبلغ المذكور !

وكانت آمال حدثتني في مناسبات شتى عن الامير العربي المذكور وهو من اكبر امراء العرب شأناً ومقاماً – وهو غير الامير فواز الشعلان الذي جاء ذكره في فصل سابق – وكيف أنها غنت أمامه مرة في فندق هليوبوليس بالاس بمصر الجديدة فطرب من غنائها كثيراً .

.. وكيف انه أهداها قبل سفره سيارة « لنكولن » .. وهي السيارة التي استولى عليها شقيقها فؤاد .

ولكن لماذا يرسل اليها اليوم ثلاثمائة جنيه ؟

هذا ما حارت في فهمه يومئذ اسمهان .. ولم تعرف سره وسببه الا بعد عودتها الى القاهرة .

* * *

فرحت رحمها الله يومئذ بهذه البشرى ، وقالت ان الثلاثمائة جنيه جاءت من السماء !.. وأنها سوف تدفع منها ديونها هنا وهناك .. وتشتري كذا وتبتاع كيت !

وأسرعت بالسفر الى القاهرة لكي تتناول الشيك وتقبض المبلغ المذكور !

ثم عادت الى رأس البر بعد يومين اثنين .. حزينة واجمة !

وقالت لي .. إنها ذهبت فور وصولها الى القاهرة الى الهيئة السياسية الشرقية التي أشرت اليها وقابلت الموظف الذي كان كلمها في رأس البر بالتليفون وتناولت منه الشيك ورجته أن يبلغ شكرها لسمو الأمير ..

قالت :

— وذهبت الى البيت لكي استبدل ثوبي واذهب الى البنك وأقبض المبلغ .. ووجدت شقيقي فؤاد في انتظاري ! واخبرته بسلامة نية عن الشيك فقال انه يحسن بي أن أحوله باسمه وأن يذهب هو لصرف القيمة من البنك ثم يعود الي .. ووافقته ولم أجسر طبعاً على أن أرفض . ولكنه ذهب ولم يعد .. واخيراً ذهبت ابحث عنه الى أن وجدته .. ولما طلبت منه المبلغ قال انه احق بالمبلغ مني لأنه هو الذي كان كتب لسمو الامير المذكور يشكو له الحالة ويطلب العون !.. ثم اخرج من محفظته ورقة من فئة خمسة جنيهات وضعها أمامي وهو يقول : (آدي خمسة جنيهات لما تصرفيها اعطيك غيرها) .

وهكذا كل ما نالته من الثلثمائة جنيه كان خمسة جنيهات .

وتاريخ هذه الحادثة كما دونته في مفكرة الجيب هو الثلاثاء ٣٠ يوليو ١٩٤٠ .

* * *

وكانت آمال الاطرش كما قلت طيبة القلب جداً عفيفة اللفظ واللسان . ولكنها لم تكن تسكت على إهانة .. أوتقبل من أحد ان يجرح كبرياءها أو كرامتها

ذات يوم في رأس البر — وكنا نتحدث في مسألة ما — انقلب الحديث الى مناقشة حادة ثم مشادة عاصفة . وأغلظت لها في القول . ولعله بدرت مني ألفاظ جارحة .. أو عدتها هي جارحة .

وانتفضت واقفة .. ثم مشت الى الباب واغلقته واسندت ظهرها اليه حتى لا أخرج .. أي لكي ترغمني على البقاء وسماع ما كانت تريد ان تقوله لي .. ثم سألتني .. بسخرية :

— تقدر حضرتك تقوللي أنت تبقى مين في البلد ؟

وأجبتها بنفس اللهجة :

— ولا حاجة !

— وتبقى ابن مين في البلد ؟

قلت : ولا حد !

قالت : أما أنا فآمال الاطرش وأبي فهد الاطرش وعمي سلطان باشا الاطرش وزوجي الامير حسن الاطرش .. وتقوم أنت ياللي لا هنا ولا هناك تشتمني !

قلت لها يرحمها الله وقد غلبني الضحك :

- جوزك الامير ده لا يزيد مقامه عندنا هنا في مصر على مقام مشايخ الحارات أو على الاكثر مشايخ البلاد !

وغلبها البكاء وفاضت دموعها ..

يرحمها الله . ما كان أسرع أن تغضب . وما كان أسهل ان تصفح وترضى ! ولكنها كانت اذا غضبت او ارهقها اليأس تداعت أعصابها الرقيقة المرهفة واندفعت في ثورة الغضب أو في ظلمة اليأس الى ابعد حد ..

سألت عنها بالتليفون ذات مساء — وكانت قد عادت الى القاهرة من مصيف رأس البر — فأجابتني خادمتها واسمها على ما اذكر فاطمة او فايقة وقالت ان سيدتها تستريح في حجرتها فهل تناديها ؟

قلت : كلا بل دعيها تستريح ..

وسألتني الخادمة :

— وأين تجدك سيدتي إذا أرادت أن تكلمك ؟

قلت : أنا ذاهب الى الكيت كات .

وذهبت الى ملهى الكيت كات . وجلست مع زميل — ولعله الاستاذ الفاضل محمود كامل المحامي — وان هي إلا ساعة او بعض ساعة حتى استدعيت الى التليفون .

اسمهان تحاول الانتحار ! !

وتناولت السماعة وإذا بصوت خادمة اسمهان وهي تصيح :

— الحقني يا سيدي .. ست آمال انتحرت !

وأسرعت اعدو خارج الملهى . ووثبت الى تاكسي ..

ولحسن الحظ كانت اسمهان تسكن يومئذ في شقة باحدى عمارات الزمالك أي أن مسكنها كان قريباً من ملهى الكيت كات ..

ووجدت الخادمة تنتظرني أمام الباب ..

ولم يكن في المسكن ساعتئذ سوى آمال وخادمتها .. أي ان شقيقيها لم يكونا موجودين وأما السيدة والدتها فكانت تقيم في ذلك الوقت في دار صغيرة شيدتها لنفسها في شارع الاهرام .

ولكن ماذا يهم !! لو أنني كنت وجدت جميع أفراد اسرتها لما ترددت مع ذلك في الدخول !

ودخلت عليها حجرة نومها فاذا بها في فراشها وقد جمعت ركبتها الى صدرها كأنها تغالب ألماً موجعاً وقد علا وجهها اصفرار شديد .

وقالت الخادمة وهي تشير الى انبوبة اسبرين فارغة — أن سيدتها بلعت كل ما كان في الانبوبة .. وكانت جديدة أي كان فيها عشرون قرص اسبرين !

وهدأ روعي قليلاً لأن الاسبرين ليس سريع المفعول .

وقلت لآمال : قومي !

هزت رأسها أن لا !

قلت : اذن سأحملك بالقوة .

وتقدمت منها فعلاً وحملتها كما هي وخرجت بها الى التاكسي الذي كان لا يزال ينتظر أمام الباب .

ولحقت بي الخادمة وناولتني معطفاً وضعته على كتفي اسمهان لأنها كانت بملابس النوم

وصحت في السائق ان ينطلق بأقصى سرعة الى الاسعاف !

وكانت هي طول الطريق مغمضة العينين .. وقد زاد اصفرار وجهها وبدأ مفعول تخدير الاسبرين !

وأعترف أنني خفت في تلك اللحظة أن أجس نبضها أو أصغى الى

دقات قلبها ..

خفت أن يخونني سمعي .. او يصدق واجد أن قلبها قد توقف . أو أن نبضها قد سكت !

وحملتها أنا وسائق التاكسي ودخلنا بها مركز جمعية الاسعاف .

وسألني الموظف الذي كانت عليه سهرة الليل فقلت ان السيدة بلعت خطأ كمية من الاسبرين ..

سألني : هل ابلغتم البوليس ؟

قلت : كلا .. والمهم الان انقاذها ..

وبدا لي أنه من الموظفين عبيد (الروتين) فسألته : هل هناك طبيب ؟

قال : نعم ..

وناولته بطاقة باسمي .

وحضر الطبيب على الفور .. شكر الله فضله .. وادرك الحالة من نظرة وكلمة .. واجرى لها في الحال عملية غسل المعدة .

ولما انتهى كل شيء قال الطبيب أن واجبه كان يفرض عليه في مثل هذه الحالات – التي تشبه محاولات الانتحار ! – أن يبلغ البوليس وان يرسل المريضة الى القصر العيني لكي تمضي ليلتها هناك ولكنه يقبل كلمتي ويكتفي بها ..

وشكرته بحرارة .. وقد ظننت ان الاجراءات قد انتهت !

ولكن الطبيب تناول الدفتر أو سجل الحالات وقيد فيه اسمي ثم التفت الي يسألني عن اسم السيدة – ولحسن الحظ لم يكن الطبيب قد عرف اسمها .

قال : واسم الست ايه ؟

قلت بدون تردد ولا وعي :

– آمال ..

قال وهو يكتب : آمال ايه ؟

وهنا أفقت وأدركت الخطر ! خطر الفضيحة .. اذا ذاع غداً أن

آمال الاطرش حاولت الانتحار .

ولم يستغرق تفكيري ثانية واحدة .

قلت : آمال حسين ؟

ولا أعرف لماذا اخترت لقب حسين . ربما لأن شقيقي اسمه حسين فكان اسمه أول اسم وثب الى خاطري !

كذلك لم اكن اعرف يومئذ ان هناك مطربة — أو سوف تكون هناك مطربة اسمها آمال حسين !

وشكرت الطبيب ومساعده مرة اخرى .. وخرجنا — وهي تستند الى ذراعي — واوصلتها الى مسكنها . ولحسن الحظ وجدنا الدار كما تركناها اي لم نجد سوى الخادمة .

وهكذا ظل هذا السر مكتوماً حتى اليوم فلم يسمع به أحد ولم يعرف احد لماذا حاولت آمال الانتحار في مساء السبت ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤١ .

ولعل كل ما بقي من هذه الحادثة هو ما دُوِّن في سجل مركز جمعية الاسعاف تحت التاريخ المذكور وهو ان فلاناً — أنا — احضر سيدة اسمها آمال حسين وابلغ أنها بلعت بطريق الخطأ كمية كبيرة من أقراص الاسبرين !

* * *

ولو أنني رويت للقراء القصة كما روتها هي يومئذ يرحمها الله .. قصة انتحارها لعرف الذين يتشدقون بحديث الفضيلة وبآداب اللياقة وما يجوز نشره وما لا يجوز .. لعرف هؤلاء أية مأساة كانت تعيش فيها اسمهان صباح مساء !.. وأي عواصف كانت تهز حياتها هز أطراف النخيل .. وأي الهموم كانت تجثم فوق صدرها وقلبها ..

نعم .. لو أنني رويت القصة كما سمعتها منها في ذلك المساء لادرك كل ذي قلب أن هذه الفتاة لا يمكن ان تلام !.. وأنه حرام أي حرام —

وعيشها هذا وحياتها كما وصفت — حرام ان تؤخذ بالنقد الشديد أو بالحساب العسير .

والذي يستطيع ان يفهم .. يستطيع أن يعفو ويغفر !

° ° °

قلت في فصل سابق أن ادارة الجوازات والجنسية — أو بعبارة أدق مديرها الحازم الاستاذ زكي سعد — كانت تنظر الى المطربة اسمهان نظرة غير رحيمة .

كانت الادارة المذكورة ترخص لمطربات وراقصات اجنبيات — اجنبيات بكل معنى الكلمة — بالبقاء في مصر والعمل في مسارحها وانديتها الليلية .. بل وتسمح لراقصة اوروبية — بلغارية الجنسية — بالزواج من وجيه مصري كبير والحصول على الجنسية المصرية ولكن نفس الادارة كانت تضع العقبات في طريق اسمهان .. ثم ترفض الموافقة على زواجها بالمخرج الاستاذ بدرخان كما سبق ان ذكرت ولعل السبب في ذلك هو « اللغط » الذي كان يحيط باسمهان .. وكثرة ما كان يتردد حولها من قال وقيل كان اكثره كذباً أو مبالغاً فيه .

وكانت آمال قد تلقت في شهر أغسطس اثناء اقامتها في مصيف رأس البر خطاباً من قلم الجوازات بوزارة الداخلية فحواه أن المدة المرخص لها باقامتها في مصر قد أوشكت أن تنتهي .. وأنه مطلوب منها أن تمر في يوم كذا الساعة كذا بقلم الجوازات لعمل اللازم :

ولكنها — كعادتها أهملت ولم تذهب . وما كان اكثر اهمالها في المسائل الخطيرة أو التي تمس حياتها في الصميم .

ومع ذلك — وأقولها إنصافاً لقلم الجوازات — فان وزارة الداخلية لم تحرك ساكناً ضد اسمهان الا في شهر ديسمبر .

وفي يوم الاربعاء ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠ — وبينما كنت اتناول الغداء —

دخلت عليّ آمال وهي تبكي .

قالت أن وزارة الداخلية طلبتها في الصباح بالتليفون . وأنها لبت الدعوة وذهبت الى مكتب الاميرالاي مصطفى ثابت مدير قلم الجوازات الذي ابلغها ان مدة اقامتها في مصر قد انتهت وأنه يجب عليها أن تغادر الاراضي المصرية في ظرف اسبوع ؟ !

ولم تصدق هي الخبر لأنه لم يسبق أن وجه اليها مثل هذا الطلب أو هذا الانذار وظنت أن الأمر مزاح فقالت بابتسامة :

— وإذا لم أخرج في ظرف أسبوع ؟

قال مدير الجوازات بلهجة أسف ولكن الجد في عينيه :

— في هذه الحالة يخرجك رجال البوليس بالقوة فيركبوك القطار ويشيعونك الى الحدود !

ولما عرفت أن الأمر جد راحت تقول لمصطفى ثابت كيف ولماذا وما هي الاسباب ؟.. وأنها أمضت من حياتها في مصر اكثر مما امضت في وطنها سوريا أو في لبنان ؟.

وعاد مدير الجوازات يبدي أسفه ولكن الأوامر هي الأوامر .

سألته : أليس ممكناً أن يعاد النظر في هذا الأمر ؟

وأجابها ان الأمر صدر فعلاً وأمضاه فعلاً — لا زكي سعد كما كانت تظن — بل نفس دولة رئيس الوزراء ووزير الداخلية الذي هو في الوقت نفسه الحاكم العسكري . وأنه يود لو استطاع خدمتها في شيء ولكنه لا يستطيع مراجعة دولة الوزير في أمر أصدره وأمضاه !

ثم مضى المدير يخفف أو يهون عليها ويقول ان لا فائدة من مراجعة الوزير وأنه يحسن بها أن تطيع الأمر وتغادر مصر .. ولعلها تستطيع بعد بضعة شهور أن تحصل على اذن بالعودة الى مصر. الى آخره.. الى آخره.

هذا ما قصته عليّ وهي تبكي . قلت : وما العمل ؟

قالت : تكلم حسين سري .. هو الذي امضى الأمر وهو وحده

الذي يمكنه أن يلغيه .

قلت : ولكنني لا أعرفه !

وكان صاحب الدولة حسين سري باشا قد تولى منذ أسابيع قليلة رياسة الوزارة ووزارة الداخلية بعد وفاة المغفور له حسن صبري باشا . ولم اكن حقيقة قد تشرفت بعد بمعرفته . حتى أنني كتبت يومئذ مقالاً عنه عنوانه (بقلم من لا يعرفه) !

ولكن شقيقه الدكتور احمد سري صديق لي .

وقمت الى التليفون وكلمت الدكتور ..

وسألني : هل المسألة تهمك ؟ قلت : تهمني جداً .

قال : إذن سأذهب عقب الانتهاء من تناول الغداء مباشرة الى حسين باشا وأكلمه في الأمر .

وشكرته . ولقد وفى فعلاً بوعده . وتكلم مع دولة شقيقه في الموضوع .

وعدت الى التليفون وكلمت حمدي باشا محبوب وكان يومئذ وكيل وزارة الداخلية للامن العام ورويت له القصة ورجوته أن تعيد وزارة الداخلية النظر في أمر خروج اسمهان من مصر .

وقال حمدي باشا :

ـ ولكن المسألة خرجت من يدي . فلماذا لا تكلم أنت نفسك دولة الرئيس؟

قلت : ولكنني لا أعرفه ولا هو يعرفني .

وسكت حمدي باشا محبوب لحظة ثم سألني نفس السؤال :

ـ وهل المسألة تهمك جداً ؟ قلت : نعم تهمني جداً .

سألني : هل تأذن لي أن أقول هذا لدولة الباشا وان يكون كلامي معه باسمك أنت ؟ قلت : نعم .

والتفت أنا الى آمال أطيب خاطرها واهدىء من روعها واطلب منها أن ترجو خيراً !

ولم يكن في امكاني ساعتئذ أن أفعل لها اكثر مما فعلت .

وفي صباح اليوم التالي كلمني بالتليفون حمدي محبوب باشا يستدعيني لمقابلته في مكتبه .

وقال سعادته وهو يرد على تحيتي أنه استدعاني بناء على طلب دولة حسين سري باشا الذي يريد مقابلتي .

واستقبلني دولته بالتحية الجافة التي يتكلفها مع كل من يلقاه والابتسامة الساخرة التي يصطنعها يرحمه الله ويخفي وراءها نفساً طيبة .

ثم أشار بيده لوكيل وزارته ان ينصرف ويتركنا . وقال دولته :

– قرأت لك مقالاً بقلم (من لا يعرف حسين سري) ولهذا رأيت أن أقابلك اليوم لكي نعرف بعضنا !

وتبسط دولته معي في الحديث عن الحرب والسياسة الداخلية وورق الصحف الى آخره .. الى آخره ..

.. إلا اسمهان ! وإلا المسألة التي كنت وسطت فيها حمدي باشا محبوب !

وأخيراً مدّ دولته يده يصافحني ويقول بلهجته الصارمة المعروفة :

– أما حكاية اسمهان دي فليست من اختصاصك !.. ولهذا سوف اتكلم فيها مع صاحب الاختصاص وهو وكيل الوزارة . نهارك سعيد يا أخي !

* * *

وألغى دولته في نفس اليوم الأمر الذي سبق أن أصدره وأمضاه بخروج اسمهان من مصر في ظرف أسبوع !

وكتبت أنا يومها – الخميس ٢٦ ديسمبر في مفكرة الجيب :

« قابلت حمدي باشا محبوب ثم حسين سري باشا بناء على طلبه . اعتقد أن حكاية آمال سويت وان كنت أعتقد أن سفرها كان خيراً لها ولي .. سافرت آمال بعد الظهر الى المنصورة لتحيي حفلة هناك وكلمتني بالتليفون ٧ مساء ثم بعد انتهاء الحفلة كلمتني مرة ثانية الساعة الواحدة صباحاً . »

* * *

وقد يتساءل القارىء لماذا لجأت الي اسمهان ولم تلجأ الى بعض من كانت تعرف من الامراء والوزراء والكبراء ؟

لانها كانت لا تثق بصداقة أحد منهم . ولا تؤمن بأن احداً منهم يمنحها عطفه أو وده خالصاً ..

كانت تعتقد أن هؤلاء الكبراء والعظماء لا يعرفونها ولا يرحبون ويحتفون بها إلا لأنها جميلة حلوة المجلس والحديث ولانها فوق هذا تحسن الغناء .. وأنهم قد يعرضون عنها أو يتبرمون بها إذا هي لجأت اليهم في ساعة الشدة والحرج ... ثم كانت هناك كبرياؤها التي تأبى عليها أن تعرض نفسها لسماع كلمة « لا » .

ومن هنا لجأت الي لأنها – كما سبق أن قلت – كانت تثق في .

والثقة – كما اعتقد اليوم – كانت العاطفة أو الاحساس الصادق الوحيد الذي كانت يرحمها الله تكنه لي في صدرها من غير تحفظ ولا قيد .

• صورة زنكوغرافية للمقطع الاول من خطاب المرحومة اسمهان المشار اليه في صفحة ٩٩ .

القدس في ١٧ يونيو ١٩٤١

عزيزي محمد ...

وصلني خطابك المؤرخ في ١٥ الحالي وسرني ان اقرأ اخبارك .
انه لم يكن ليخطر لي في بالك ان تؤول عدم كتابتي لك على المحمل
الذي ارتأيته وكذلك عن افتكاري [illegible] [illegible] والابتعاد عنها تماما عن
الخاطر الأول فأنت تعلم قبل اي انسان آخر انني لم اتعود الكتابة
لاجل هذا عن حد ان كتابتي ردية وانشائي اردأ . وما عن
سفريتي فانا ابغاك تعلم بان ذلك لم يكن عن محض اختيار مني
ولا [illegible] كتابة . ولكن هل لك بالله عليك ان تقل لي ماذا
انتظر من وراء وجودي بمصر بعد الذي رأيته وما تحملته من
شقاء اثناء اقامتي فيها ؟
كتابك الأول لم يصلني مع انك كتبت لي ببيروت و [illegible] [illegible]

٦

زواجها وطلاقها من بدرخان

اسمهان المطربة وحبها للغناء

في تلك الفترة أي في شتاء ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ بدأ صيت المطربة اسمهان ينتشر . فكانت قد بدأت تذيع من محطة الاذاعة . ومن هنا بدأ الجمهور يعرفها ويعجب بصوتها الحنون الرقيق . وبدأ متعهدو الحفلات يقبلون عليها .. كما أن بعض أصحاب الأفراح بدأ يدعوها لإحياء حفلات الزفاف .

وكثرت تنقلاتها في تلك الفترة في عواصم ومدن الارياف . فيوماً بالمنصورة ويوماً بكفر الشيخ وآخر بالمحلة الكبرى .. وطنطا . وهلم

وكانت هذه الحفلات والرحلات ترهقها وتضنيها خصوصاً انها كانت في ذلك الوقت تقوم بدورها غناء وتمثيلاً في أول فيلم لها وهو (انتصار الشباب)

ولو أن الأمر كان بيدها وحدها لرفضت هذه الحفلات فقد كانت رحمها الله تضيق صبراً وصدراً بالغناء في الحفلات العامة .. بل عمرها ما غنت في حفلة عامة واحدة بنفس الحرارة التي كانت تغني بها في الحفلات

الخاصة أي الحفلات التي لا تشهدها سوى الاقلية المختارة من الصديقات والاصدقاء .

هنا كانت تغني اسمهان من قلبها بل وتذيب روحها في الغناء . وكان من أحب الأغاني الى قلبها اغنية حزينة دامعة . هي منظومة لشاعر ابناني فقد شقيقه الوحيد الصغير فرثاه وبكاه بألفاظ هي قطرات من ذوب قلبه !

وكان مطلع المنظومة « أنا والنار » .. وهذا هو كل ما اذكره اليوم من كلماتها .

ما غنتها آمال مرة الا بكت وأبكت السامعين .

كانت تبدأ الغناء وهي جالسة بيننا .. ولكنها لا تكاد تمشي في غناء هذه المرثية .. بين الآهات والأنين والزفرات المحرقة – حتى تتهاوى من مقعدها الى ارض الغرفة .. وتنهي غناءها في همس ممدود .. هو القبر .. وقد اخفت وجهها بيديها ودموعها تبلل السجاد !

* * *

دعتها مرة جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) للغناء في الحفلة التي أقامتها الجامعة في مساء الخميس ١٠ اكتوبر ١٩٤٠ تكريماً لمديرها وقتئذ المغفور له الدكتور علي باشا ابراهيم .

واحتشد لسماعها نحو خمسة آلاف من كبار المدعوين وطلبة الجامعة .

وغنت اسمهان قصيدة نظمها خصيصاً لهذه الحفلة – إذا صدقتني الذاكرة – الشاعر الاستاذ عبد الغني حسن ولحنها الاستاذ محمد القصبجي . واذيعت الحفلة من محطة الاذاعة . وسمعتها وأنا جالس في داري . وسمعت تصفيق الآلاف لاسمهان وهتاف حناجر الآلاف لاسمهان !

وأنهت اسمهان غناءها في أقل من ساعة وغادرت الحفلة .. بالرغم من الاحتجاج والتصفيق الشديد !

وبعد ذلك بيومين دعتني أن أصحبها الى محطة الاذاعة لكي أسمع معها الشريط الذي سجل لغنائها في الحفلة المذكورة .

واستقبلنا الاستاذ سعيد لطفي باشا مدير المحطة . وبعد أن سمعنا الشريط المسجل التفت سعادته الى آمال يعاتبها ويقول :

– لقد كان أمامك خمسة آلاف سامع .. يصفقون لك ويهتفون لك .. بعد أن سيطرت عليهم وسحرتهم بصوتك وكان في مقدورك ان تبقيهم هكذا فرحين مصفقين معجبين بك الى مطلع الفجر .. ولكنك مشيت عدواً في الغناء وأسرعت فغادرت الحفلة وهكذا ضيعت على نفسك فرصة لا تعوض !

وكان ردها رحمها الله :

– ولكنني أكره الغناء في الحفلات العامة .. اياً كانت !

* * *

ومع ذلك فقد كانت آمال تحب الغناء وتحبه لذاته .. ولا أذكر أنها رفضت مرة واحدة ان تجيب دعوة صديقة أو صديق لها للغناء في حفلة خاصة . وطبعاً بدون أجر .

وشأن كل فنانة أصيلة لم تكن رحمها الله تعرف الحسد ولا الغيرة الصغيرة . فكانت تعجب بالصوت الجميل اياً كان صاحب أو صاحبة الصوت الجميل .

وكم من مرة رأيتها جالسة تصغي الى اغنية كانت ظهرت وقتئذ لعبد الوهاب وهي (طول عمري عايش لوحدي ..) .

تسمعها وتبكي !

وأقمت مرة حفلة صغيرة دعوت اليها عدداً قليلاً من صديقاتها واصدقائها وغنى فيها المطرب الكبير الاستاذ صالح عبد الحي .

واستخف الطرب آمال .. فإذا بها تثب واقفة وترقص على النغم القديم ولعلها كانت المرة الاولى والاخيرة التي رقصت فيها أمامي .

زواجها من احمد بدر خان

وانتهى عام ١٩٤٠ وعلاقتي باسمهان كما وصفت . كانت تكلمني بالتليفون . وكنت اسأل عنها بالتليفون . وكانت تزورني أو تتناول عندي طعام الغداء من حين الى حين .

وكانت رحمها الله مشغولة في ذلك الوقت بالعمل هي وشقيقها الاستاذ فريد الاطرش في أول فيلم لهما وهو « انتصار الشباب » وكانت تعلق آمالاً كبيرة على نجاح الفيلم المذكور ..

ولم تكن هذه الآمال الكبيرة لنفسها هي .. فقد كانت تعتقد كما سبق أن قلت أن حياتها قصيرة وأجلها قريب .. وإنما كانت آمالها الكبيرة لشقيقها فريد . فقد كانت تحبه حقاً وتحترمه وتؤمن أنه فنان موهوب وأن الحظ لابد أن يواتيه يوم يعترف له الجمهور بأنه ملحن ومطرب من الدرجة الاولى .

وكان مخرج الفيلم المذكور هو الاستاذ احمد بدرخان . وكان طبيعياً أن يلتقي اسمهان في كل يوم وأن يتحدث اليها وأن تتحدث اليه .. وأن يتناول الاثنان معاً طعام الغداء أو طعام العشاء في الاستوديو — بحكم ظروف العمل — وأن ينصرفا معاً بعد انتهاء العمل .. أو يقضيا السهرة معاً في مراجعة عمل الغد .. الى آخر المائة رابطة ورابطة التي يخلقها العمل المشترك بين مخرج الفيلم وبطلة الفيلم .

وذات مساء — في اوائل شهر فبراير — وكنت واقفاً في شرفة مكتب آخر ساعة الذي يطل على ميدان الخديو اسماعيل .. وقفت سيارة أمام باب العمارة التي كان المكتب في احدى شقق دورها الأول . ونزلت من السيارة آمال .

وظننت أنها قادمة لزيارتي في المكتب كما كانت تفعل احياناً . ولكن الدقائق مرت حتى أصبحت ربع ساعة ولم تدخل آمال عليّ في مكتبي .

وأرسلت أحد سعاة المكتب يسأل بواب العمارة – وكان يعرفها – اين ذهبت السيدة ؟

وعاد الساعي يقول ان السيدة آمال صعدت في مصعد العمارة الى الطابق الذي يسكن في احدى شققه مسيو فلان المصور بستوديو شركة مصر للسينما .. وأن هذه ليست أول مرة تزوره فيها اسمهان .

ولم أرَ في الأمر ما يثير التساؤل فقد كان طبيعياً جداً أن تتردد بطلة الفيلم على المصور الذي يصور الفيلم لكي تبادله الرأي أو يستأنس هو برأيها في بعض المناظر التي التقطت أو التي على وشك التصوير .

هذا وان كنت لم أستطع إلا أن أعجب ولو قليلاً لماذا وكيف كانت تكثر من التردد على العمارة التي فيها مكتب آخر ساعة دون ان تمر بي مرة واحدة – صاعدة أو نازلة – ودون أن تذكر لي شيئاً ما عن هذه الزيارات وبالرغم من أنها كانت تحدثني بالتليفون في كل يوم تقريباً .

* * *

وغادرت المكتب وبينما كنت انزل درج السلم على قدمي – ومكتب آخر ساعة في الطابق الأول – رأيت الاستاذ احمد بدرخان يدخل المصعد الكهربائي . ولم يرني هو .

وسألت بواب العمارة عن « الافندي » الذي صعد بالمصعد الآن وهل هو ايضاً يتردد على مسيو فلان المصور ؟

قال : نعم ودائماً عندما تحضر لزيارته ست اسمهان .

وقلت لنفسي . أن الأمر طبيعي .. بطلة الفيلم تجتمع بمخرج الفيلم ومصور الفيلم !

ولكن شيئاً ما بقي في رأسي وتفكيري ..

.. لماذا لم تذكر لي ولا كلمة واحدة عن هذه الاجتماعات المتعددة

بينها وبين بدرخان ومصور الفيلم ؟ مع أنها كانت تروي لي كل تفصيل ثانوي عن عملها في فيلم انتصار الشباب ؟

وشاءت المصادفة أن تكلمني بالتليفون في نفس المساء وفي ساعة متأخرة .

وسألتها عن أحوالها وعن سير العمل في الفيلم فقالت ان كل شيء يسير على خير ما يرام .

واستدرجتها في الحديث . أو لعلني أردت أن اهيىء لها فرصة .

قلت : يظهر أن عملك كثير في الاستوديو هذه الأيام ؟

قالت : جداً .. عمل متواصل من الصبح الى الليل .

قلت : وهل أنت عائدة الآن فقط من الاستوديو ؟

قالت يرحمها الله :

ـ يا دوبك . . رجعت من عشر دقائق بس وغسلت وجهي وطلبتك بالتليفون .

وسكت . ولم اذكر لها شيئاً وكيف رأيتها وهي تدخل العمارة ولا عن ترددها هي وبدرخان على مصور الفيلم .

وادركت في تلك الليلة أنه لابد أن يكون هناك شيء ما بينها وبين المخرج احمد بدرخان .

شيء ما غير حديث الفن وحديث الاخراج وإلا لما كانت اخفته عني .

وسوف يعجب القارىء ـ كما عجبت أنا يومئذ ـ كيف لم يخطر لها يومئذ ما دامت مقابلاتها مع احمد بدرخان تتم في نفس العمارة التي بها مكتب آخر ساعة .. كيف لم يخطر لها أنني قد أراها مرة او أراهما معاً او .. أو .. الى آخره .

ولكن هذه هي آمال !

إذا أرادت أمراً مشت اليه دون أن تلقي بالاً أو تأبه لأحد !

* * *

ومضت أيام وأيام تقابلنا خلالها مرتين أو ثلاث مرات في دار صديقتها السيدة أمينة البارودي .. كما أنها كلمتني كما كلمتها مراراً بالتليفون دون أن تشير ولو من بعيد أو تذكر لي حرفاً واحداً عن الاستاذ احمد بدرخان .
واخيراً .. وفي مساء الاثنين ٣ مارس كلمتني بالتليفون وقالت:
– عندي خبر علشانك ؟
قلت : خيراً ..
قالت : اتفقت أنا وبدرخان على الزواج .
قلت : الف مبروك !
وأرادت هي الاستمرار في الكلام ولكني قلت أنه يحسن بها تأجيل بقية الحديث الى الغد لأننا الآن في منتصف الليل ..
وقد آلمني منها أنها أخفت عني طول هذه الأسابيع مشروع زواجها من بدرخان . لماذا .. لا أعرف !
ولما كلمتني في الصباح سألتها لماذا أخفت عني خبر مقابلاتها مع بدرخان و .. الى آخره .
قالت إنها كانت مترددة في الزواج منه .. كما أنها تعتقد أن الأمر لا يهمني في كثير أو في قليل ! ثم تابعت :
– وأنا لم اخبر احداً .. وأنت أول من يسمع بالخبر .. اللهم إلا أمينة فهي الوحيدة التي كانت عارفة بكل شيء .
سألتها : وأهلك هل قلت لهم ؟
قالت : كلا . وربنا يلطف يوم تعرف أمي ويسمع فؤاد بالخبر !
قلت لها : والذي قلته ساعتئذ كان حقيقة من قلبي – قلت لها أنني عرفت احمد بدرخان في باريس عام ١٩٣٤ أيام كان يدرس هناك فنون السينما وأنني أعجبت بأدبه وحيائه وأنه شاب على خلق كريم وأنه من بيت طيب كما أنه ورث عن أبيه مالاً يغنيه عن العمل لو يشاء .. ولكنه يحب عمله لأنه فنان ..

ومضيت أقول أن زواجها من بدرخان هو خير زواج كان يمكن للحظ الحسن أن يسوقه اليها ، لأن زوجها مخرج سينمائي ممتاز وهي مطربة تعمل الآن للسينما .. فكل منهما والحالة هذه يكمل صاحبه ..

ولكن .. وبينما كنت اتكلم في هذا المعنى أقفلت هي التليفون ويظهر أن كلامي لم يعجبها !

ماذا قالت اسمهان ؟
وماذا قال بدرخان ؟

ولكن كيف انتهى الاثنان الى الزواج ؟

حدثتني هي فيما بعد فقالت أن بدرخان كان دائماً رقيقاً لطيفاً معها اثناء العمل على عكس ما كانت تسمع عن المخرجين . وأنه كان يحدثها اثناء جلساتهما عن حياته المضطربة القلقة .. وكيف أنه لم يسعد لا في بيت الزوجية .. ولا في البيت الآخر وأنه يتمنى لو يوفقه الله الى الزوجة التي يسعدها وتسعده .. الى آخره .

.. وأن هذا الحديث – حديث حياته المضطربة – جرها هي ايضاً للحديث بدورها عما تلقاه في حياتها من عذاب وآلام .

قالت :

– وتعددت جلساتنا وأحاديثنا في هذا المعنى . ثم مقابلاتنا عند مصور الفيلم . واخيراً اتفقنا على الزواج لعل وعسى أن نوفق الى بناء حياتنا من جديد !

هذه رواية اسمهان .. ولعل القراء يذكرون ما سبق أن قلته وهو أن آمال كانت تريد أن تتزوج للأسباب التي ذكرتها في فصل سابق

أما الاستاذ احمد بدرخان فأنه يروي قصة اخرى تختلف تماماً عن قصة آمال.

وأحب أن أقول أنني لم أسمع منه نفسه هذه القصة بل سمعتها من صحفي زميل وهو يقول أنه سمعها من بدرخان .

ولهذا السبب لا أحب أن أتحمل مسئولية نشر رواية لم أسمعها بنفسي من صاحبها . وأكتفي بالخلاصة وهي أن بدرخان لم يسع الى آمال بل هي التي سعت اليه !.. وأنه لم يتقدم اليها بل هي التي تقدمت اليه تشكو حالها وما تلقاه من اسرتها !

هذه هي رواية بدرخان كما قصها علي زميلي المذكور .

وللقراء ان يحكموا بين الروايتين . أيهما أحرى بالتصديق والقبول ؟

* * *

هنأت اسمهان بخطبتها لبدرخان ، وكنت مخلصاً في هذه التهنئة فان بدرخان كما قلت رجل كريم النفس والخلق وفي مقدوره أن يكون زوجاً طيباً .

وقلت في نفسي آن للمسكينة آن تهدأ وتستقر وتستريح .

ولكنني شككت منذ اللحظة الأولى — كما شكت هي — في أن أهلها سيوافقون على هذا الزواج . ذلك لأنني كنت سمعت من صديق حميم للأسرة — وخصوصاً لفؤاد الاطرش — أنه لا السيدة أمها ولا شقيقها فؤاد يوافقان على زواجها من أي أحد .

وإذا كانت أمها سبق لها أن رفضت في عام ١٩٣٣ أن تزوجها من ابن عمها « الامير » حسن الاطرش لأن اسمهان — على حد قولها — كانت الدجاجة التي تبيض الذهب .. إذا كان هذا هو الحال يومئذ أي يوم لم تكن اسمهان بعد شيئاً مذكوراً في دنيا الغناء فاحرى بالسيدة الأم أن ترفض في عام ١٩٤١ الموافقة على الزواج بعد ان اشتهرت اسمهان وأقبل على بابها متعهدو الحفلات وبدأت تعمل للسينما وتوشك أن تصبح كوكباً لامعاً .. ودجاجة لا تبيض الذهب فحسب بل تبيض اللؤلؤ والماس !

وان هي إلا أيام حتى تحققت شكوكي . فقد زارتني آمال بعد ظهر يوم الجمعة ٧ مارس وقالت أن شقيقها فؤاد دخل عليها غرفتها في الصباح وهددها وأغلظ لها القول ونهاها عن التفكير في زواج بدرخان .

قالت : وليس أمامي إلا أن آخذ « هدومي » واترك لهم البيت .

وأعرتها حقيبتين كبيرتين حملهما خادمي الى دارها .. وذهب معها ثم عاد بالحقيبتين مملوءتين .

أما آمال فقد لجأت الى دار صديقتها أمينة البارودي . وكان ذلك اليوم – ٧ مارس ١٩٤١ – آخر عهدها بالحياة مع أسرتها لأنها لم تعد اليهم ولم يظللها واياهم سقف واحد بعد ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي كان عليها أن تغني في حفلة المهرجان اللبناني في فندق الكونتننتال ومن ثم حضرت الى مسكني واستبدلت ملابسها استعداداً للسهرة ثم ارسلت الحقيبتين بحوائجها الى دار صديقتها أمينة وأوصلتها بسيارتي الى فندق الكونتننتال .

* * *

وبعد يومين – الاثنين ١٠ مارس – تولى الاستاذ محمد القاضي المحامي الشرعي كتابة عقد الزواج العرفي بين اسمهان واحمد بدرخان .

وكان بعض صديقات اسمهان قد نصحن لها بالاكتفاء موقتاً بعقد زواج عرفي والسعي بعدها عند وزارتي الداخلية والعدل من أجل الحصول على إذن بزواجها من بدرخان لأنها رحمها الله كانت معدودة يومئذ أجنبية وكان هناك قانون صدر في اوائل الحرب كما سبق ان قلت يحرم على المأذونين الشرعيين كتابة عقد زواج بين مصري واجنبية إلا بعد موافقة وزارتي العدل والداخلية .

وكلمني يومئذ بالتليفون المرحوم سليم باشا زكي وقال أنه سمع أن آمال تزوجت ولكن زواجها عرفي ، وأبدى رحمه الله أسفه وقال إنها لو كانت استشارته في الأمر لكان نصحها بالانتظار الى ما بعد الحصول على موافقة الجهات المختصة ثم اتمام الزواج بعقد شرعي صحيح .

* * *

وفي نفس اليوم — يوم الزواج — أحس أهلها بأن هناك شيئاً ما خصوصاً أنها نامت الليلتين السابقتين في دار صديقتها السيدة امينة البارودي .

وأرادوا أن يتحققوا من الأمر فذهبوا الى غرفتها في المسكن ولكنهم وجدوها مغلقة ! ولم يجدوا المفتاح . لأنها كانت أخذته معها زيادة في الاحتياط .

وكسروا باب الغرفة ولما دخلوها وجدوا دواليب ملابسها خالية خاوية إذ كانت أخلتها كما سبق أن قلت وهربت حوائجها في الحقيبتين !

وأجد في مفكرة الجيب بتاريخ الخميس ١٣ مارس :

« كلمتني والدة آمال بالتليفون ودعتني لمقابلتها . وذهبت اليها ثم حضر فؤاد الاطرش وصديقه كامل . وكان الحديث كله عن زواج آمال . ويظهر أنهم كانوا يرجون أن انضم اليهم في احباط الزواج ولكني رفضت ودافعت عن آمال وعن زواجها ببدرخان . »

وبعد بضعة أيام بدأت آمال حياتها الزوجية مع بدرخان في شقة صغيرة كانت استأجرتها في عمارة ايموبيليا وجهزتها على عجل بالبسيط الضروري من الاثاث.

اسمهان تترك بدرخان

وبدأت السعي لدي وزارتي الداخلية والعدل للحصول على موافقتهما على عقد الزواج .

وقابلت مراراً لهذا الغرض وكيل وزارة الداخلية وقتئذ حمدي باشا محبوب ومدير إدارة الجنسية والجوازات زكي بك سعد . ولكني سرعان ما تبينت ان « المعارضة » أشد وأقوى مني بكثير وأن المساعي التي بذلتها هذه « المعارضة » قد قضت على كل أمل في موافقة الوزارة على هذا الزواج .

وأول المعارضين الساعين لاحباط الزواج كان أفراد اسرة اسمهان

نفسها . وأستثني منهم الاستاذ فريد الاطرش الذي كان يصرح دائماً بأن كل ما يهمه هو أن تكون شقيقته آمال سعيدة في حياتها وأنه يوافق على زواجها ببدرخان ما دامت هي التي اختارته زوجاً لها بحريتها وإرادتها .

ولكن المعارضة القوية ذات النفوذ جاءت من ناحية اسرة بدرخان . ثم أسرة السيدة زوجة بدرخان ..

وكان للاسرتين اصدقاء كثيرون ذوو نفوذ في دوائر وزارتي الداخلية والعدل .

* * *

وفي صباح الاربعاء ٣٠ ابريل فوجئت بزيارة آمال في الساعة التاسعة صباحاً .

وقالت وهي تعتذر عن قدومها في هذه الساعة المبكرة :

– خلاص ! طلقت بدرخان !

قلت : ماذا ؟

قالت : خلاص . طلقت بدرخان !

وبهت !.. ومضت هي تقول أن بدرخان لم يعد ليلة أمس إلا الساعة الثانية صباحاً وكان سكراناً ! .. وأنها آخذته على غيابه هذا ومن ثم قامت مشادة بينهما .

قالت : وأخيراً قمت الى الدولاب واخرجت منه عقد الزواج العرفي ومزقته وقلت له .. خلاص اتفضل بأه . وقد انصرف ولعله ذهب الى دار صديقته (...) فلانه .

قلت : أنت مجنونة . ولقد اسأت الى نفسك بهذا العمل الاخرق اكبر اساءة . فماذا يقول الناس الآن عنك وعن هذا الزواج الذي لم يعمر اكثر من بضعة أسابيع بل سوف يعرف الناس غداً أن زواجك من بدرخان كان بعقد عرفي ..

وهزت رحمها الله كتفيها وقالت : يقولوا اللي يقولوه !

* * *

والآن اتساءل هل كان سبب الفراق أو « الطلاق » هو حقيقة ما ذكرت ؟ أي لأن « زوجها » بدرخان لم يعد الى بيت « الزوجية » إلا في الساعة الثانية صباحاً .. أو بعبارة ادق هل كانت الغيرة هي السبب ؟

الذين يعرفون آمال رحمها الله لا يصدقون هذا السبب ! وأن الغيرة هي السبب بل يقولون ان هي إلا حجة !

ولكن من يدري . فقد كانت اسمهان مجموعة من المتناقضات .

أو ترى السبب هو أنها ادركت اخيراً أن وزارتي العدل والداخلية لن توافقا على زواجها من بدرخان ومن ثم رأت هي أن تضع حداً لهذا الزواج العرفي الذي لا يتفق مع كرامتها ؟

ربما كان للسببين نصيب في أمر انفصالها عن بدرخان .

ولكني أعرف على كل حال أنها اقتنعت برأيي ورأي صديقاتها وقبلت أن تتصالح مع بدرخان وأن تستأنف حياتها معه لعل وعسى أن يفلح المسعى ويوافق ولاة الأمور على عقد الزواج .

وفي المساء وبناء على اتفاق بالتليفون أقبل الاستاذ بدرخان على دار السيدة أمينة البارودي في الزمالك وكانت آمال موجودة هناك .

وفتحت أمينة حديث الصلح .. ولكن بدرخان قطع عليها الحديث وقال أنه لم يلب دعوتها ويحضر لكي يتكلم في الصلح وإنما جاء ليقول كلمة صريحة كانت تثقل على صدره وهو الآن يشكر هذه الفرصة التي هيأتها له آمال لكي يقول هذه الكلمة ويخفف عن صدره ما يعانيه !

أما هذه الكلمة فهي أنه ليس مغفلاً كما تعتقد آمال ! بل إنه كان يفهم كل شيء ويدرك سبب كل شيء ولكنه سكت على مضض لأنه أراد أن يكون (جنتلمان) معها الى النهاية ويقف الى جانبها الى ان توافق

الوزارة على الزواج ويصحح الوضع الحالي وتصبح آمال زوجته الشرعية وتكتسب الجنسية المصرية التي تسعى للحصول عليها .. ثم يطلقها في الحال ولكن أما وقد قطعت هي وبمحض اختيارها ما بينها وبينه فإنه يحمد الله ويقول « بركة يا جامع اللي جت منك ولا جتش مني » !

الى آخره .. الى آخره .

ونهض بدرخان على أثر القاء كلمته هذه وحيا السيدات الحاضرات وانصرف .

* * *

وهكذا ..

انتهى زواج اسمهان ببدرخان ولقد كنت شجعتها بل وألححت عليها بإتمام الزواج لأنني كنت أرجو كصديق يفهمها ويدرك آلامها النفسية وما تقاسيه ، أن تجد في حياة الزوجية عزاء عما تعانيه وأن يكون في زواجها من رجل مثقف طيب القلب كريم النفس ما يقطع دابر الاقاويل والاشاعات التي كانت تنغص عليها حياتها . وبعض هذه الاشاعات كان يجد في تصرفات اسمهان نفسها ما يبرره .

وقدرت كذلك أن في وجود زوج الى جانبها ما يقويها ويشد من ظهرها ويبعث الثقة في نفسها .

من أجل هذا نصحتها وألححت عليها بالزواج .

ولكن الزواج لم يدم كما رأينا سوى بضعة أسابيع ! وها هي ذي المسكينة توشك أن ترد الى حياتها الاولى . حياة الوحدة والابتسامة المصطنعة والدمع المحبوس !.. حياة الاشاعات والهمس المسموم والاقاويل !

حياة الريشة في مهب الرياح .

وقابلتها غداة يوم الطلاق فاذا بها مهمومة واجمة .

وقالت بابتسامتها التي أعرفها والتي تختلط فيها الكبرياء بالرثاء ، الرثاء لنفسها .. قالت :

ـ ما أقساكم معشر الرجال ! لقد حرص بدرخان اليوم على أن يمر أمامي بسيارته وقد جلست الى جانبه صديقته الممثلة فلانة .

قلت : ومن ذا الذي يلومه ! لقد جرحته أنت ساعة مزقت عقد زواجك وألقيت به في وجهه ثم أريته باب الخروج !. وكما جرحته يحاول أن يجرحك .

قالت : كلا ، ان كنت جرحته فقد كان ذلك بدافع الحرص عليه ولكنه جرحني لينتقم وشتان بين الحالين .

* * *

وفي اليوم التالي زارها شقيقها فؤاد والسيدة أمها ـ ومن بعدهما فريد ـ وصالحوها أو سووا ما بينهم وبينها واشترطت هي أن تبقى في مسكنها الجديد ـ في عمارة ايموبيليا ـ أي أن لا تعود الى حياتها الاولى معهم في عيشة واحدة وقبلوا منها هذا الشرط ، وربما قبلوه على مضض .

وكان خبر طلاقها قد ذاع وانتشر ورجتني هي أن أتوسط لدى الصحف الأسبوعية حتى لا تنشره وتكلمت فعلاً مع الزملاء وأجاب بعضهم الرجاء ، وأصر البعض على نشر كافة التفاصيل .

اسمهان المظلومة

وغلبها الحياء أو الكبرياء فلزمت مسكنها أياماً لا تغادره ولم يكن يزورها يومئذ سوى امينة البارودي وبعض الصديقات من كرائم العقيلات

ثم مرضت ولزمت الفراش وأرسلت خادمها « عوض » تدعوني لزيارتها . ولم يكن عندها تليفون في مسكنها الجديد .

ولكني رفضت أن أزورها في مسكنها .

والحقيقة ـ وقد يعجب منها قارىء أو قراء ولكنها الحقيقة الخالصة ـ

هي أنني تحرجت أن أزورها في دار كنت لا أزال أحس أنها دار الزوجية .. دار بدرخان ولهذا السبب وحده رفضت !

ولما كنت أعلم أنها كانت انفقت كل قرش في يدها على تأثيث « بيت الزوجية » فقد اشفقت أن تكون مريضة وفي حاجة .

وطويت خطاب اعتذار وتحية ودعاء بشفائها على مبلغ من المال وناولته لخادمها.

ولكنها أعادت الي خطابي كما هو - وبما فيه - وقد كتبت على ظهره (كنت أريد فقط أن أراك فلم تتنازل وأشكرك) .

* * *

وأقف هنا قليلاً لأذكر القراء بما سبق أن ذكرته في فصل سابق وهو أنها كانت في مرضها لا تجد ثمن الدواء ! وأن النور قطع عن مسكنها هذا لأنها لم تكن تملك ثمن النور ...

ومع ذلك فقد ردت اليّ خطابي بما فيه !

هذه هي آمال أو أسمهان التي قال عنها صحفي أو صحفيون بعد سفرها من مصر أنها كانت فتحت مسكنها في عمارة ايموبيليا للعب القمار وأنها كانت السبب في خراب وافلاس طبيب شاب ! وأن البوليس داهم مسكنها واستولى على ادوات اللعب و « الفيش » ... ثم اخرجها من البلاد.

سلسلة من الاكاذيب المختلقة عمداً بقصد التشهير ، كما سيعرف القراء فيما يلي .

ولكن العجب الحقيقي هو أن الصحفي أو الصحفيين المذكورين الذين تولوا حملة التشهير والاكاذيب ضد اسمهان في صيف ١٩٤١ هم أنفسهم الذين ذرفوا في شتاء ١٩٤٩ يوم نشرت قصة اسمهان .. ذرفوا دموع التماسيح على اسمهان وكتبوا في الاخلاق وأدب الكتابة وما يليق نشره وما لا يليق !!

* * *

وشفيت آمال من مرضها. وفي أول يوم خرجت فيه ذهبت الى دارها الاولى وتناولت طعام الغداء مع أفراد اسرتها ..

وفي طريق العودة زارتني واقترحت عليّ أن نمضي السهرة معاً في مكان ما .. في الكيت كات أو على سقف الكونتننتال « روف جاردن » .

وهنا كان لابد أن أقول لها ما ترددت في قوله ومصارحتها به منذ طلاقها من بدرخان .

قلت لها أنه كان يسرني دائماً — قبل زواجها — أن أخرج معها الى السينما أو المطاعم أو هنا وهناك ولكنني لا أستطيع الآن أن أظهر معها في أي مكان عام ! وإلا فماذا يقول الناس عنها وعني ! ولبعض الناس لسان قاس ، لسان طويل سيقولون أنها تزوجت وطلقت بعد بضعة اسابيع ! ثم خرجت تستند الى ذراعي كأن شيئاً لم يحدث أو كأن الزواج والطلاق في أسابيع معدودة أمر عادي مألوف ! بل وقد يظلمني لسان الاقاويل ويعدني مسئولاً عن طلاقها من بدرخان !

ثم قلت أنه يسرني دائماً أن أراها وألقاها ، ولكني لا أستطيع أن أغشى معها المحال العامة بعد اليوم .

ولم يعجبها كلامي لأنها هزت كتفيها وأولتني ظهرها وانصرفت .

وبعد ذلك بيومين اثنين — وكان الاحد ١٨ مايو ١٩٤١ — زارتني لتقول لي « كل سنة وانت طيب » فقد كان اليوم عيد ميلادي .

ثم قدمت لي رحمها الله هدية العيد وهي زراران من البلاتين المرصع لأكمام القميص .

وشكرتها على أنها لم تنس تاريخ مولدي ثم شكرتها على هديتها الثمينة . وأخيراً سألتها من أين جاءت بالمال الذي اشترت به هذه الهدية ؟

قالت ان أحد متعهدي الحفلات — احمد افندي الطيب — قد اتفق معها على حفلة غنائية سوف يقيمها في شهر يونيه القادم وانه أعطاها

اربعين جنيهاً بصفة عربون .

قلت : ومن قال لك أن تنفقي مالك في شراء الهدايا وأنت محتاجة الى كل قرش منه ؟

وعاتبتها على إسرافها هذا وقلت أنه كان يكفيني منها طاقة من الزهر .

ثم انصرفت على أن تتناول معي غداً طعام الغداء .

وجاء الغد وتأخرت هي قليلاً عن موعدها واخيراً اقبلت تعتذر وتقول أنها تأخرت لأنها كانت تبحث في محال الاثاث عن طقم صالون وأنها وفقت أخيراً للعثور على طقم جميل وثمنه مقبول وهو مكون من « كنبه » ومقعدين كبيرين .

وسألتها كم الثمن ؟

قالت — وقد وقعت في الشرك — انهم طلبوا أول الأمر ثمانين جنيهاً ولكنها ساومتهم حتى رضوا أن يبيعوها الطقم بخمسة وخمسين جنيهاً .

— ودفعت المبلغ ؟

قالت : طبعاً !

وهنا فقط أدركت رحمها الله أن ذكاءها أو ذاكرتها خانتها وأنها وقعت في الشرك ! فقد احمر وجهها وجالت عيناها في وجهي وكأنها تريد أن تقول . لا تظلمني ولا تتسرع في حكمك علي !

أما أنا فقد كنت نهضت من مقعدي أمام المائدة وخرجت وعدت وفي يدي هديتها التي كانت قدمتها لي أمس !

ورميت لها بالهدية وقلت — وأنا أحذف هنا كثيراً مما قلته ساعتئذ — :

— أنا أرفض قبول هدية لا أعرف مصدر المال الذي اشتريت به ! اللهم إلا أن تكون الاربعون جنيهاً التي دفعها لك متعهد الحفلة قد كفت لأن تشتري منها زراير بلاتين ثم تدفعي منها خمسة وخمسين جنيهاً !

وترددت هي قليلاً ثم قالت :

— أقول لك الحق ؟

وسألتها ساخراً : ومتى قلت الحق ؟

قالت : معلهش صدقني هذه المرة . لقد اقترضت مائة جنيه من صديقة لي .

قلت : كذابة .

وغادرت أنا الحجرة وتركتها جالسة وحدها أمام المائدة والدموع في عينيها ثم انصرفت هي بعد قليل !

ولقد عرفت فيما بعد أنني ظلمتها وأنها لم تكذب لأنها كانت اقترضت حقيقة مائة جنيه من سيدة اسمها رجاء !

وهنا قد يتساءل القارىء لماذا أطيل الوقوف عند هذه التفاصيل الصغيرة ؟ أو لماذا احرص على سرد حكاية « تافهة » مثل حكاية الهدية بمثل هذا التفصيل ؟

هل هي الأنانية أو الغرور ؟

لا هذه ولا ذاك .. وإنما احببت أن ألقي شيئاً من الضوء على هذه الشخصية المعقدة أو النفسية المعقدة .. أو على حالة اسمهان النفسية في تلك الأيام .

منذ أسبوع واحد كانت مريضة وكانت لا تجد ثمن الدواء .

ثم ها هي ذي تحصل على اربعين جنيهاً من متعهد حفلة وتقترض فوقها مائة جنيه لا لتنفق منها على ضرورات الحياة ولكن لتشتري منها هدية تقدمها وطقم صالون !

هذا أولاً .

وثانياً .. ها هي ذي تخرج من مسكني وفي صدرها ثورة المتهم المظلوم !

وكانت فهمت مني قبل ذلك – أو خيل لها – أنني أصبحت استحي من الخروج معها أمام الناس .

ومن قبل هذه وتلك خاب زواجها . وتحدثت بخيبتها المجلات وسخر منها من سخر وشمت فيها الشامتون !

كانت هذه حالتها النفسية يوم اتصل بها أحد رجال السفارة البريطانية

بالقاهرة .. ولكنني استبق الحوادث .

...

خرجت من داري كسيفة البال حزينة باكية ولكنها عادت وكلمتني في المساء بالتليفون وسمعت أنا موسيقى وجلبة فسألتها من أين تتكلم ؟

قالت : من حديقة سقف الكونتننتال .. وأنها تتناول العشاء مع « البرنس شوكت » وآخرين .

ولا أعرف من هو البرنس شوكت ولعله أحد امراء الأتراك اللاجئين الى مصر

ثم قالت .. هل أراك هذا المساء ؟

قلت : كلا ؟

قالت : أراك اذن غداً ؟

قلت : كلا . لا غداً ، ولا بعد غد ! ولا أريد أن أرى وجهك !

وصاحت هي بغضب .. في ستين داهية !

وكان ذلك في مساء الاثنين ١٩ مايو .

وفي صباح يوم الاربعاء زارني صديقي سليمان نجيب وقال أنه قابل آمال ظهر أمس في قاعة المائدة بفندق شبرد — وكانت تتناول الطعام مع السيدة ليلى فتحي — وأنها انتحت به جانباً وشكت له من سوء ظني ولكنها حريصة مع ذلك على صداقتي لانني طيب القلب وصديق مخلص ، الى آخره . وأنها سوف تزورني هذا المساء .. ورجت منه أن يبلغني مقدماً خبر هذه الزيارة حتى إذا كان لي إعتراض عليها عدلت عن الحضور .

وعاتبني الصديق القديم على ما أسماه « فظاظة خلقي » ونصح لي أن ابقي ظنوني وشكوكي ارجال السياسة .. وانصرف بعد ان أخذ مني وعداً بأن أحسن استقبال آمال ..

وانتظرتها في المساء ولكنها لم تحضر . بل ولم تتكلم بالتليفون .

ومرّ اليوم التالي – الخميس – ولم تحضر .. ولم تتكلم بالتليفون .. وكان أمراً عجيباً حقاً أن لا أسمع منها شيئاً ثلاثة أيام متوالية .. فما اذكر أن القطيعة طالت بينها وبيني في أية مرة اكثر من يوم واحد ..

ولكني سكت .

وبعد ظهر يوم الجمعة كلمتني بالتليفون – وكنت في مكتبي بآخر ساعة – وسألتني هل تستطيع أن تقابلني هذا المساء لأمر هام ؟

قلت : نعم .

واتفقنا على أن نلتقي في داري في الساعة الثامنة .



٧

آمال الأطرش أميرة جبل الدروز ؟!

الحكومة البريطانية تتصل باسمهان !

وحضرت في الموعد . وكما فعلت في مرة سابقة اتجهت الى غرفة المائدة وملأت لنفسها قدحاً من الويسكي ثم عادت وجلست أمامي .. وفتحت حقيبة يدها واخرجت منها المصحف الصغير الذي كانت تحمله معها دائماً ..

واسأل السادة رجال الدين المعذرة ولكنني أروي هنا الحقيقة . وبعد فهذه هي أسمهان المليئة بالمتناقضات ..

وأمسكت بيدها قدح الشراب .. وبيدها الاخرى مدت الى الكتاب الكريم وهي تقول :

– أقسم على القرآن الشريف أن لا تبوح لأحد بكلمة واحدة مما سأقصه عليك الآن إلى أن تنتهي مهمتي !

قلت وأنا ابتسم :

– هذه ميلو دراما ! .. ايه الحكاية ؟..

قالت : أقسم أولاً !

ولكني رفضت أن أحمل كلامها محمل الجد .

وعادت هي تلحّ على أن أقسم .

قلت : وإذا رفضت أن أقسم .

قالت : في هذه الحالة لن تعرف السبب في سفري !

قلت : سفرك فين ؟

قالت : الى الشام .

قلت : متى ؟

قالت : يوم الاثنين .

وكنا في مساء الجمعة ٢٣ مايو .

ورأيت في عينيها أن الأمر جد فتناولت من يدها المصحف الشريف واقسمت.

* * *

قالت — وأنا أنقل هنا لا عن مفكرة الجيب — فقد كانت الحكاية اكثر خطورة واكبر اهمية من أن يشار اليها بعبارة أو عبارتين مقتضبتين — وإنما أنقل عن مذكرات مطولة سجلت فيها بتاريخ مساء ٢٤ و٢٦ مايه ١٩٤١ كافة التفاصيل التي سمعتها من اسمهان . واقرأ اليوم في نهاية المذكرات التي دونتها هذه العبارة (أسجل هذه التفاصيل فمن يدري . ربما تمكنت من نشرها بعد الحرب خدمة لآمال وإنصافاً لها إن اسيء اليها أو اتهمها أحد) .

ولسوف يعجب القراء ويدهشون كما عجبت ودهشت في ذلك المساء ! كيف أن بريطانيا التي كانت تجتاز يومئذ أحلك فترة من فترات الحرب وتحارب وظهرها الى الجدار ، كيف لجأت الى المطربة اسمهان لتستعين بها على دخول سوريا ولبنان وطرد قوات حكومة فيشي التي كانت قد أسلمت زمامها للالمان ..

وكان الحلفاء قد نجحوا قبل ذلك بشهر واحد في القضاء على ثورة

رشيد عالي الكيلاني في العراق ونشطوا الى تثبيت أقدامهم في الشرق الاوسط والقضاء على كل نفوذ لالمانيا فيه .

قد يعجب القراء اليوم ولكن عجبي أنا في مساء ذلك اليوم من أيار مايو ١٩٤١ والحرب في أحلك أطوارها واشدها خطراً كان اعظم بكثير .

ولكن بريطانيا لم تلجأ ولم تستعين بالمطربة اسمهان ! وإنما لجأت أو استعانت بالاميرة الدرزية مطلقة امير جبل الدروز !

وبدأت آمال الاطرش تروي القصة وأنا في شبه حلم !

هأنذا على الرغم مني – قد اتصلت بسر خطير من أسرار الحرب !

سر يوشك أن يغير الاوضاع الحربية في الشرق الاوسط ويبدل الموقف في الركن الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط

قالت : تذكر مساء الاثنين الماضي عندما كلمتك بالتليفون من حديقة سقف الكونتننتال وقلت لك أنني أتناول العشاء مع بعض الاصدقاء . لقد كان يجلس الى مائدة قريبة منا مستر نابيير .. هل تعرفه ؟

قلت : نعم .

(وكان مستر نابيير يومئذ يشغل منصب نائب مدير قسم الدعاية والنشر في السفارة البريطانية وقد نقل في ديسمبر ١٩٤٢ من القاهرة الى منصب قنصل في مدينة « كازابلانكا » أو الدار البيضاء في المغرب) .

ومضت في قصتها فقالت :

– ونهض مستر نابيير من مقعده وتقدم نحوي وحياني وقال أنه يعرفني جيداً وان كنت أنا لا أذكره ، لأنه شغل منصب قنصل لدولته في دمشق سنوات عديدة وعرف هناك أسرة الطرشان الى آخره ، ثم قال أن المصادفة الطيبة هي التي ساقته ذلك المساء لأنه كان يود مقابلتي منذ يومين ليحدثني في أمر هام فيه نفع لي ولبلادي . وسألني هل هناك مانع من ان يلقاني على انفراد ؟ ولما قلت كلا ناولني بطاقته وطلب مني أن أحدثه غداً – أي الثلاثاء – بالتليفون لنتفق على موعد المقابلة ومكانها . ولم أتردد في الموافقة .

فقد كنت في ذلك المساء بعد حديثي معك بالتليفون في حالة نفسية سيئة ، وطبعاً لم يطف بخيالي اي شيء من العمل الذي عرضه عليّ الانجليز . كل ما هنالك انني أحسست ان الرجل مستر نابيير يود ان يعرض عليّ أمراً ما . ما هو ؟ لا أعرف . ولكنه على كل حال تغيير ما يوشك ان يدخل حياتي . وقد كنت مستعدة في ذلك المساء لقبول أية مجازفة ما دام فيها شيء من التغيير !

اسمهان تتناول الشاي مع مستر سمارت ...
اربعون الف جنيه تحت تصرفها ...

وكلمته بالتليفون في الصباح ولكني لم أجده في مكتبه . ولم أهتم بعدئذ بالسؤال عنه طول اليوم . ولكني عدت وتذكرت أمره في صباح الاربعاء . وفي هذه المرة وجدته في مكتبه واقترح هو أن يزورني في المساء في مسكني بعمارة ايموبيليا ووافقت . وهذا هو السبب في أنني لم أزرك يومئذ كما كنت اتفقت مع سليمان نجيب . ولقد كان حديث نابيير معي ذلك المساء حديثاً (على العايم) لم يفصح فيه تماماً عما يريد واكتفى بسؤالي عن بعض أفراد الاسرة وعما إذا كنت لا أزال على صلة ما بزوجي السابق حسن الاطرش .. وما إذا كنت أود العودة الى جبل الدروز ولو في زيارة قصيرة .. الى آخره .

وانصرف على ان يتصل بي مرة اخرى . وفي مساء امس الخميس زارني ودعاني لمقابلة « مستر » سمارت (سير والتر سمارت) في داره بالزمالك يوم الجمعة . ولقد تناولت اليوم الشاي مع مستر سمارت في داره وكان موجوداً معنا قائد انجليزي أسمه روبرت بلوم(١) .واتفق

---

(١) تفضل زميل صحفي من المشتغلين بالمسألة العربية - وخصوصاً في سنوات الحرب الماضية - وابلغني ان القائد الانجليزي الذي قابلته اسمهان في دار سير والتر سمارت ثم زارته في مسكنه رقم (٨) شارع قصر النيل الشقة (٥٤) هو الجنرال كلايتون نفسه رئيس

الاثنان معي على أن أسافر بالطائرة الى القدس يوم الاثنين القادم . وسوف أقيم ثلاثة أيام في القدس في فندق الملك داود . وهناك سوف يقابلني رجل انجليزي لم يذكرا لي اسمه ولكنه سوف يعطيني التعليمات . وبعد ذلك سأذهب الى عمان . ومن حدود شرق الاردن ادخل سوريا .

وسكتت آمال قليلاً ربما لترى تأثير قصتها الغريبة فيّ ! أو ربما لكي تمهد للمفاجأة الثانية ..

ثم قالت : وسوف يدفعون لي جميع نفقاتي كما أنهم سوف يضعون تحت تصرفي في فلسطين وعمان أربعين الف جنيه لأوزعها على رؤساء قبائل البادية !! وأنا على موعد غداً الساعة الثانية مع الجنرال روبرت بلوم في مسكنه شقة رقم ٥٤ بشارع قصر النيل رقم ٨ .

* * *

وأخيراً قلت ساخراً : يعني عايزة تعملي ماتاهاري بتاعت الحرب دي ؟

قالت : لا . ماتاهاري كانت جاسوسة تعمل للمال حتى ولو تخون بلادها من أجله أما أنا فأريد أن أخدم بلدي ..

ثم هزت كتفيها بضجر وهي تقول :

– وبس قل لي أقعد في مصر أعمل ايه ! وأعيش منين ! ولقد سمعت أنت نفسك كلام الناس عني بالحق وبالباطل . والحبة عملوها قبة ! وأجري من محطة الاذاعة لا يكفيني وأنا أمقت الغناء في الافراح والحفلات العامة

= المخابرات السرية البريطانية في الشرق الأوسط لأنه هو الذي كان يسكن في الشقة المذكورة في العنوان المذكور. وان الجنرال كان قد استأجر الشقة مفروشة من ساكنها الأصلي وهو صحفي اسمه روبرت بلوم . ومن هنا التبس على اسمهان ، ويظهر ان مستر سمارت لم يذكر لها اسم الجنرال كلايتون اثناء المقابلة ولكنه طلب منها ان تمر على شارع قصر النيل رقم (٨) وتسأل عن شقة روبرت بلوم حرصاً على اخفاء اسم الجنرال كلايتون . ومن هنا وقعت اسمهان في هذا الخطأ وانا كما قلت انقل عن مذكراتي التي دونتها بحديثها في هذا الموضوع .

ولقد كنت أرجو بعد نجاح فيلم انتصار الشباب أن يقتصر عملي على السينما وحدها ولكن ظهر أخيراً أن العقد المبرم بيني وبين الدكتور بيضا يمنعني من العمل في أي فيلم آخر لمدة عامين . وقد مضى منهما عام واحد . يعني عليّ أن ادبر عيشي لمدة عام عن غير طريق السينما فماذا أعمل؟

وسكت أنا . ماذا أقول ؟

وعادت هي تسألني :

– قل لي ! هل تريد أن ابقى في مصر ؟ وأن ارفض عرض الانجليز ؟

وكان السؤال محرجاً لي وشائكاً معاً !

وأخيراً قلت : سافري إذن .. ولكن ..

ولكنها قاطعتني قائلة :

– هلا تزال تنصحني بالعودة الى زوجي الامير حسن ؟

قلت : نعم . وهذا رأيي من قديم . فأنت لم تخلقي لاحتّراف الغناء .

وابتسمت بدلال رحمها الله وقالت :

– لماذا ؟ هل صوتي قبيح الى هذه الدرجة ؟

قلت : بالعكس . صوتك جميل جداً وأنت تعرفين ذلك . ولكن الغناء شيء واحتّراف الغناء شيء آخر ! وأنت تكرهين الاحتّراف .

قالت : صحيح ..

وبعد لحظة قالت :

– طبعاً حزرت المهمة التي عهد اليّ بها الانجليز ؟

قلت : تقريباً ولكنني لم أفهم كل شيء ..

الانجليز يستعينون باسمهان على دخول سوريا ولبنان ...

قالت : ان الحلفاء على وشك الزحف على سوريا ولبنان ويهمهم بطبيعة الحال أن يطمئنوا الى الموقف الذي سيقفه منهم جبل الدروز .

سألتها : لماذا ؟

قالت : لا تنس المثل المعروف (ان في السويداء رجالاً) والسويداء هي السويدا ـ كما ننطقها نحن ـ عاصمة جبل الدروز . ونحن الدروز نستطيع دائماً أن نبعث الى ميدان القتال بثلاثين ألف فارس . وكم من مرة في عهد حكم الاتراك أغار الدروز على دمشق وتمكنوا من احتلالها في ساعتين اثنتين . فالدروز هم اذن القوة الوحيدة التي ترجح كفة الميزان .. إذا انضموا الى فيشي أو انضموا الى الحلفاء !

قلت : وما شأنك أنت بهذا كله ؟

قالت وهي تبتسم :

ـ آدي عيبك ! عمرك ما اعتقدت أنني أصلح لشيء ! ولكنني واثقة من أنني سأنجح ..

إن الانجليز يعرفون من تقارير قلم مخابراتهم السرية ان حسن الاطرش حاكم جبل الدروز لا يزال يحبني . وعمي سلطان باشا الاطرش وعبد الغفار باشا الاطرش يحترمان رأيي . ولقد سبق لهما أن جرباني وخبرا حسن رأيي في ظروف عديدة أيام كنت زوجة لحسن . فهؤلاء الثلاثة سوف لا أجد صعوبة ما في اقناعهم بصواب الانضمام للحلفاء ..

وهنا أخذت أبين لها خطورة أو خطر المهمة المعروضة عليها وأن الأمر ليس مغامرة سينمائية بل هو خطر شديد اكيد في كل خطوة تخطوها . وقلت لها كذلك بصراحة أنني لا أثق كثيراً ولا قليلاً في حسن رأيها . وأنني أعرف أن (لسانها سايب) وأنها تحب الشراب والشراب يطلق اللسان ويفضح الأسرار .. الى آخره .

ثم سألتها هل هي باحت بهذا السر لأحد سواي ؟

قالت : كلا .. فأنت وحدك الذي تعرفه . ولقد حذرني مستر سمارت من أن أبوح بشيء لأحد ما .. وذكر اسمك أنت بالذات لأنه يعرف

كل شيء عن علاقتنا ولكنني لم استطع أن أخفي سري عنك . ولأنني أعتمد على رأيك !

قلت : يبدو لي أنك لم تحضري لتأخذي رأيي وإنما لتبلغيني قراراً انتهيت اليه؟

قالت : صحيح .

قلت : اذن لا فائدة من المناقشة مادمت مصممة على السفر والقيام بهذه المهمة !

قالت : ألم تنصح لي وتلح عليّ بالعودة الى زوجي وجبل الدروز ؟

قلت : نعم .. ولكن فرق بين هذا وبين أن تعودي لتقومي بدور ماتاهاري !

* * *

وتناولت آمال طعام الغداء معي في اليوم التالي — السبت ٢٤ مايو — وعرفت منها أنها بكرت بالخروج من مسكنها في الصباح وذهبت الى دار المرحوم سليم زكي باشا وسحبت جواز سفرها وكان مودعاً عنده ثم ذهبت بالجواز الى مستر سمارت وتركته عنده لكي يجري اللازم في شأنه ..

وتركتني بعد تناول الغداء وذهبت الى موعدها مع الجنرال كلايتون وعادت في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وقالت وهي ترمي بقبعتها الى مقعد ..

— أمسك ورقة وقلم ..

قلت : ليه ؟

قالت : علشان أحسب ديوني وأشوف المبلغ ده يكفي والا لأ !

وأخرجت من حقيبة يدها رزمة من أوراق البنكنوت من فئة خمسة الجنيهات . وقالت :

— أعطاني الجنرال ثلثمائة جنيه الآن لكي أسدد منها ديوني في مصر . وأظن أنها لا تكفي .. ولكنهم سيدفعون لي ساعة أصل القدس مبلغ الف جنيه على الحساب !

* * *

وضعنا أمامنا الثلثمائة جنيه – وكانت كما قلت في ستين ورقة من فئة الخمسة جنيهات – وأخذنا نحسب ديونها واسماء الدائنين والمبلغ المستحق لكل منهم . وهل يجب سداده في الحال او سداد جزء منه وإرجاء سداد الباقي الى ما بعد ؟ أي الى ما بعد أن تصل الى القدس وتقبض الالف جنيه التي وعدها الانجليز بها كدفعة اولى على الحساب .. حساب أجرها على المهمة الخطيرة التي عهدوا بها اليها !

واذكر بين اسماء الدائنين محال سوستوفاريس للفراء وخورشيد المصوراتي واحمد افندي الطيب الذي كان قد دفع لها اربعين جنيهاً عربوناً من أجل غنائها في حفلة سيقيمها في شهر يونيه – والسيدة رجاء التي كانت أقرضتها مائة جنيه .. ومحلاً لبيع الزهور وكانت مدينة له بأكثر من عشرة جنيهات ثمن زهور .. الى آخره .

وبلغت جملة الديون التي يحسن بها أن تسددها فوراً وقبل سفرها واقساط الديون الاخرى بلغت جملة هذه وتلك مائتين وخمسين جنيهاً .

وهكذا لم يبق بين يديها من الثلثمائة جنيه سوى خمسين جنيهاً . ونصحتها بالاحتفاظ بها فمن يدري قد تصل الى القدس ولا يتصل بها الانجليزي – رجل المخابرات السرية – ومن ثم لا تجد الف جنيه ولا الف قرش في انتظارها ! وفي هذه الحالة تستطيع أن تنفق من هذه الخمسين جنيهاً ريثما تدبر امرها !

أراد ان يمكر بها فمكرت به ؟

وانتهينا من هذا . وانصرفت آمال لأنها كانت على موعد آخر مع مستر نابيير نائب مدير قسم الدعاية والنشر بالسفارة البريطانية .

وهنا أنقل عن المذكرات المطولة التي دونتها بتاريخ مساء الاثنين ٢٦ مايو – أي بعد سفر آمال بيوم واحد ..

« قابلتْ آمال مستر نابيير بعد ظهر أول أمس . وقد

سألها عن نتيجة مقابلتها مع الجنرال كلايتون ثم قال لها أن كلايتون المذكور غبي ومغفل وأنه سيفشل ويكون السبب في فشلها هي أيضاً . وأن الذين سيعملون معها في القدس وعمان أغبياء مغفلون هم أيضاً .

وأخيراً كشف لها عن غرضه وهو أن تكتب من القدس الى مستر سمارت (سير والتر سمارت فيما بعد) في القاهرة وتقول في خطابها أنها محتاجة لخدمات مستر نابيير ليكون الى جانبها بصفة مستشار لها .

وقالت آمال أنها فهمت « اللعبة » ! فاقترحت عليه بدورها أن يكتب هو لها الآن صورة الخطاب الذي يقترح عليها إرساله الى مستر سمارت لكي ترسله الآن من القاهرة قبل سفرها . ووقع نابيير في الفخ – كما تقول – وكتب لها صورة الخطاب المذكور بالقلم الرصاص وقد أطلعتني عليه . واشرت أنا عليها أن تمزقه لأن وجوده معها قد يكون خطراً عليها في حالة ما اذا وقعت في أيدي الفرنسيين أنصار حكومة فيشي .

أما « اللعبة » التي فهمتها آمال فهي أن نابيير كان يقصد من استكتابها هذا الخطاب أن يحصل للسلطات الانجليزية المحلية على دليل بخط آمال يثبت عليها تعاونها معهم لكي يستعملوا هذا الدليل ضدها إذا هي خانتهم في يوم ما ! ولكنها بدلاً من أن تكتب .. جعلته هو الذي يكتب ! »

* * *

ولكني لا أوافق على هذا التفسير ولا على أن غرض مستر نابيير كان الحصول على دليل مادي يمكن استعماله ضد آمال .

وذكاؤها يرحمها الله كان في بعض الاحيان ذكاء ساذجاً ! ولو كان هذا هو قصد نابيير لكان طلب منها أن تكتب الخطاب الآن – وهي في القاهرة – بدلاً من كتابته وارساله من القدس !. وإلا من أين كان مستر نابيير يضمن أنها سوف تكتب من القدس الى مستر سمارت ؟

كلا . لم تكن هناك « لعبة » الغرض منها ايقاعها .. والسبب الحقيقي لاقتراح مستر نابيير كما اعتقد هو أنه كان يعرف خيراً من أي انسان خطورة المهمة وجسامة الخدمات التي يمكن أن تؤديها آمال لقضية الحلفاء في الشرق الأوسط وأن كل من يساهم في اداء هذه المهمة وتحقيق هذه الخدمات الكبيرة سوف يمكنه أن يحصل لنفسه على الجزاء الحسن .. ومن هنا أراد الرجل أن يكون له نصيب من هذا الجزاء وهو بعد موظف في خدمة الحكومة البريطانية ! أي أنه أراد أن يعمل لحساب نفسه لا ليمكر بآمال الاطرش ويحصل منها على دليل يمكن استعماله ضدها عند اللزوم .

تستعد سراً للسفر

وأعود الآن الى سياق الحديث .

بدأت آمال تستعد للسفر . وكانت في نفس الوقت حريصة كل الحرص على ان لا يعرف أحد – وخصوصاً أفراد أسرتها – أو يشعر أحد بعزمها على السفر

وكان أول ما فكرت فيه هو مسكنها بعمارة ايموبيليا وما فيه من أثاث . وكذلك ثيابها وحوائجها التي لم تكن في حاجة عاجلة اليها اذ لم يكن ميسوراً لها – وهي تسافر كما قيل لها بالطائرة – أن تحمل معها كل شيء .

ورأت هي أن تترك مسكنها وما فيه في عهدتي . ومن ثم كتبت التوكيل الآتي . وأرسلت صورة منه مع خطاب منها الى السيد عزيز صدقي نجل المرحوم اسماعيل صدقي باشا الذي كان يشرف يومئذ بالنيابة عن الشركة على عمارة ايموبيليا .

وهذا هو نص التوكيل .. وكذلك صورة له بالزنكوغراف :

قد وكلت أنا آمال الاطرش حضرة الاستاذ محمد التابعي في التصرف المطلق بكل ما يتعلق بالشقة نمرة ٨٧٠ التي استأجرها بعمارة الايموبيليا وكذلك كل محتوياتها من اثاث ومنقولات وخلافه . ولحضرته أن يتصرف بكل ما في الشقة من ايجار أو اخلاء حسب ما يتراءى لحضرته وليس لغيره أياً كان أن يعارضه في أي تصرف يراه .

وهذا توكيل مني لحضرته بذلك .

٢٥ مايو سنة ١٩٤١

آمال الاطرش

شاهد	شاهد
أمينة البارودي	جمال الدين جبر

توكيل

قد وكلت انا امال الاطرش حضرة الاستاذ محمد التابعي
في التصرف المطلق بكل ما يتعلق بالشقة نمرة ٨٧٠ التي استأجرتها
بعمارة الايموبيليا وكذلك كل محتوياتها من اثاث ومنقولات
وخلافه ولحضرته ان يتصرف بكل ما في الشقة من
ايجار او اخلاء حسب ما يتراءى لحضرته وليس لغيره أياً كان أن يعارضه
في أي تصرف يراه
وهذا توكيل مني لحضرته بذلك

امال الاطرش

٢٥ مايو ١٩٤١

شاهد	شاهد
امينة البارودي	جمال الدين جبر

وهذا التوكيل مكتوب كما اذكر بخط الاستاذ جمال جبر . ولقد اكتفت رحمها الله بهذا التوكيل العرفي لأنه لم يكن هناك وقت لعمل توكيل رسمي . والتوكيل كما يرى القارىء مكتوب في يوم سفرها بالذات .

والآن .. لماذا لم تترك آمال الاطرش أو لم تعهد بمسكنها وما فيه الى أحد أفراد اسرتها ؟

هل السبب هو فقط حرصها على أن تخفي عنهم عزمها على السفر ؟

كلا . فقد كان في امكانها ان تكلف خادمها مثلاً بأن يحمل مفتاح الشقة — بعد سفرها — الى أحد أفراد أسرتها !

وكان في امكانها كذلك أن تكتب هذا التوكيل باسم أحدهم وتضعه قبل سفرها في صندوق البريد .

ولكنها لم تفعل .. لماذا ؟

الجواب حاضر موجود بين ثنايا السطور !

سطور ما سبق من الحديث .. وهو عدم الثقة !!

أول مقابلة بينها وبين زميلتها في الموت !

وقضت آمال يوم السبت ٢٤ مايو في مقابلة سير والتر سمارت ليعد لها جواز سفرها ثم مستر نابيير كما سبق أن ذكرت وفي تسوية شؤونها .

وفي المساء دعوت بعض أعز صديقاتها اليها للاجتماع بها في حفلة صغيرة أقمتها لها في داري .

ودعوت من الرجال الاستاذ محمد عبد الوهاب والاستاذين عباس حسين رئيس قلم المستخدمين يومئذ بوزارة العدل وجمال جبر .

وفي هذه السهرة خط القدر سطراً آخر في لوحه المحفوظ وقضائه المحتوم .

في هذه السهرة التقت آمال الاطرش لأول مرة بالآنسة ماري قلادة — يرحمها الله — التي حضرت مع احدى السيدات المدعوات وقامت — منذ تلك

الليلة — بينها وبين آمال الاطرش صداقة دامت حتى الموت !

لقد كانت الآنسة ماري تود من زمن أن ترى « اسمهان » وتسمع « اسمهان » عن قرب ! فلما عرفت من السيدة صديقتها أنها مدعوة لقضاء السهرة مع آمال طلبت منها أن تصحبها معها وأجابتها الصديقة الى ما طلبت .

ما أعجب أحكام القدر !

لولا تلك السهرة أو الحفلة ولولا حضور ماري ذلك المساء لما نشأت بينها وبين آمال الاطرش تلك الصداقة التي حملت ماري على أن تبقى دائماً بجانب صديقتها آمال سواء في بيروت أو في مصر .

.. ولما سافرت معها بالسيارة الى رأس البر .. يوم لقيت الصديقتان منيتهما معاً في الطريق .

* * *

وأثناء السهرة أعلنت آمال عزمها على السفر بعد غدٍ — الاثنين — ولكنها لم تذكر السبب .

واستحلفت الحاضرين على كتمان هذا الخبر ! يرحمها الله ، فما كان في مقدورها أن تكتم طويلاً أي سر مهما كان خطيراً !

وكانت دهشة . وظنت السيدات أن آمال تسافر لأن المدة المرخص لها باقامتها في مصر قد انتهت .

وتركتهن هي على هذا الاعتقاد .

واقبلت السيدات صديقاتها يسألنني كيف لا أساعدها كما ساعدتها من قبل وأسعى عند ولاة الأمور بوزارة الداخلية ليمدوا لها مدة اقامتها في مصر؟

هذا وأنا ساكت ؟. ماذا أقول ؟

وخرجت السيدات من السؤال الى العتاب والتوبيخ ، وبدأت اسمع : « اخصيه على كده! يا ندامة اصدقاء ايه دول! ورجاله ايه دول » .. الى آخره.

ورأى صديقنا الخبيث عبد الوهاب أن يستغل الموقف ضدي فتناول عوده وراح يغني الموال المشهور : « زعق الوابور ع السفر عيطت رايحين فين .. رايحين تغيبوا سنة والا تغيبوا اتنين ! »

وأخرجت كل سيدة منديلها الصغير المزركش من حقيبة يدها تمسح دموعها!

وانهالت الشتائم على رأسي من جديد !

حتى الاصدقاء الرجال الثلاثة بدأوا هم ايضاً – كما بدا لي من نظراتهم – بدأوا يراجعون انفسهم في حسن ظنهم بي ! ولماذا لا أعمل شيئاً لهذه المسكينة آمال

ولكنني سكت وسيجارتي لا تفارق فمي الى أن انتهت السهرة وانصرفت آمال مع صديقاتها . وانصرف الجميع .

* * *

وأوصلت السيدات آمال الى باب عمارة ايموبيليا ، وهنا رأت الآنسة ماري قلادة علامات التعب على وجه آمال – ولا عجب بعد يوم مشحون بالانفعالات والحركة والتنقل هنا وهنالك – فتطوعت ان تقضي الليلة معها لتؤنسها في وحدتها ولتساعدها في الصباح على اعداد حقائبها .

وقالت لي ماري فيما بعد – يرحمها الله – أنها قضت ليلتها قائمة ساهرة بجانب آمال .. لا يغمض لها طرف ! وكلما تطلعت الى آمال النائمة والى وجهها الرقيق النحيل الحزين ، وكيف أن هذه الفتاة الضعيفة تسافر وتخرج من مصر – مضطرة مرغمة – الى حيث لا تعرف ولا تأمن ، غلبها الدمع وبكت .

تسافر لتمهد لغزو سوريا ولبنان !

وأصبحنا يوم الأحد ٢٥ مايو .

وكانت آمال على موعد مع السيدة أمينة البارودي والسيدة المحترمة

والدتها لكي تتناولا معها ومعي طعام الغداء .

وبعد تناول الغداء صحبناها الى مسكنها . وكانت هذه أول مرة ادخل فيها شقتها في عمارة ايموبيليا وأقمنا معها ألى ان يحين موعد القطار .

واثناء انتظارنا هذا حضر ضابط انجليزي برتبة ملازم أول وطلبت مني أن أخرج معها لاستقباله لأنها لا تفهم الانجليزية جيداً وكان الضابط يحمل لها من قبل المخابرات السرية تذكرة النوم في القطار .

وسألت السيدة امينة البارودي — كما تساءل صديقنا جمال جبر وكان قد حضر — من هذا الضابط وما شأنه ؟

وانقذت الموقف وقلت أنه كان يريد استئجار الشقة مفروشة ولكن آمال رفضت .

وصحبناها الى المحطة .. وسافرت بقطار فلسطين في تمام الساعة السادسة .

وكانت آمال — رحمها الله — على موعد مع شقيقها فؤاد وكان الموعد الساعة السادسة في مسكنها بعمارة ايموبيليا .

وحضر شقيقها في الموعد أي ساعة قيام قطار فلسطين !

وهنا فقط عرف السيد فؤاد أن شقيقته سافرت ! وعرف من خادمها ومن بواب العمارة أنها عهدت الي بمسكنها وما فيه !.. وارتمى فؤاد على افريز باب العمارة يلطم وجهه ويشد شعره ويبكي !

• • •

وعدت من المحطة مباشرة الى داري ومعي الصديق جمال جبر وبينما نحن في الطريق — وفي شارع قصر النيل — رأيت احمد افندي الطيب فناديته وبلغته خبر سفر اسمهان وناولته الاربعين جنيهاً التي كان دفعها لها بصفة عربون .

ودهش الرجل مرتين .

دهش لسفرها المفاجيء ..

ودهش لأنها تعيد اليه مبلغ العربون وقال وهو يشكرني ويدعو لها بالسلامة :
– والله يا أستاذ لو كانت مطربة ثانية غيرها لكانت لطشت المبلغ وسافرت !

* * *

وجلسنا – جمال وأنا – في مسكني واجمين بل حزينين .
لقد ودعنا صديقة عزيزة علينا . هل سنلقاها مرة اخرى ؟ لا ندري ،
هل ستعود الى مصر ؟ لا ندري ..
وأحسست أنا بوجه خاص – وبعد أن سافرت – أن صداقتها كانت تشغل مكاناً كبيراً في حياتي .
وأنّ غداً فراغ في فراغ ..

* * *

حملة التشهير والاكاذيب

وإن هو إلا يوم أو يومان حتى ذاع خبر سفر آمال الاطرش أو اسمهان .
وانطلقت الإشاعات وكلها كاذبة ظالمة ومنها أن اسمهان لم تخرج ..
وإنما أخرجت من مصر وأن الذي أخرجها هو البوليس .
وتبارى صحفي أو صحفيان في تجريح سمعة اسمهان واختلاق الاكاذيب ونشرها في مجلة أو مجلتين ومنها :
اسمهان كانت جعلت من مسكنها في عمارة ايموبيليا نادياً للعب القمار الى أن داهمه وداهمها البوليس !
اسمهان كانت السبب في خراب بيت وافلاس شاب طبيب .
ادارة الامن العام هي التي أمرت باخراج اسمهان من مصر... الى آخره.. الى آخره .
وسكت أهلها .. ولم يجد أحدهم في هذا الذي ينشر عن ابنة الأسرة

ما يجرح كرامتها وكرامتهم ، ولا ما يخدش سمعتها وسمعتهم !

سكتوا فلم يحتج أحدهم ، أو يعترض ، أو يرفع الأمر الى القضاء !

سكتوا وكأن الأمر لا يعنيهم ما دامت حملة الأكاذيب والتشهير قد تركزت في اسمهان وحدها ووقفت عند اسمهان وحدها ولم تمتد وتتناول أحدهم بالذات !

وما دامت حملة التشهير والاكاذيب قد خلت من اسمائهم .. فلا بأس وهم اذن بخير .. ولتنل الاقلام المسمومة من اسمهان وسمعة اسمهان ما تريد وما تشاء !

ها هي ذي فتاة عرفت مع الزمن كيف تجعلني أقدرها وأحبها لأنفتها وعزة نفسها وطيبة قلبها .. ها هي ذي يقال فيها كذا وكيت وأنا لا أستطيع أن انصفها وأدفع عنها هذا الاتهام اللهم إلا إذا بحت بالسر وأعلنت الحقيقة .

ولو كنت بحت يومئذ بالسر وأعلنت أن آمال الاطرش لم ترغم على الخروج من مصر بقرار من ادارة الأمن العام للتهم التي اذاعها ونشرها المرجفون ، بل سافرت بارادتها وبالاتفاق مع السلطات الانجليزية .. لو كنت فعلت هذا لكنت عرضت آمال نفسها للخطر – خطر الوقوع في قبضة موظفي حكومة فيشي – وقضيت على كل أمل لها في نجاح مهمتها الخطيرة .

ولهذا أمسكت يومئذ عن الدفاع القوي الصريح واكتفيت بتكذيب الاقاويل والاشاعات .

فكتبت في آخر ساعة بتاريخ أول يونيه مقالاً عنوانه « اسمهان ، ولماذا سافرت الى جبل الدروز » كذبت فيه كل ما قيل عن إخراجها من مصر وقلت أنها سافرت بملء إرادتها لأنها (لم تكن مرتاحة في حياتها العائلية ولأنها كانت شديدة النفور من الغناء في الحفلات العامة .. الى آخره ..)

وبعد .. ألا ما أكثر الذين نهضوا بعد ذلك يوم نشرت هذه القصة يتحدثون عن حرمة اسمهان وكرامة اسمهان وما يجوز نشره ومالا يجوز !..

ثم ما كان اكثر الذين خرسوا – في صيف ١٩٤١ – فلم يفتحوا فمهم بكلمة واحدة في الدفاع عن حرمة اسمهان وكرامة اسمهان وما يجوز نشره وما لا يجوز .

نشر الاكاذيب بالامس .. أمر يجوز !

ونشر الحقائق اليوم .. أمر لا يجوز !

الامير يعرض عليها الزواج

سافرت آمال في مساء الاحد ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ .

وفي يوم الاثنين ٢٦ مايو وصلت اليّ أول برقية منها ونصها :

« وصلت القدس اليوم . وكل شيء عال ولن أنساك أبداً .

آمال الاطرش »

وهنا اطمأننت وفهمت أن رجل المخابرات السرية الانجليزية قد قابلها وأنها بدأت العمل أو بدأت مغامرتها الكبرى ومهمتها الخطيرة وهي اقناع زعماء قبائل الدروز – وهي القوة الحربية التي كان لها حساب كبير يومئذ في سوريا بالانضمام الى جيش الحلفاء عندما يزحف على سوريا ولبنان .

ثم انقطعت أخبارها نحو اسبوعين فأدركت أنها تركت القدس وسافرت الى عمان ثم سوريا ..

وقد قصت عليّ رحمها الله فيما بعد تفاصيل مغامرتها السياسية هذه ، وهو ما سأعرض له في فصل قادم .

واخيراً جاءتني منها برقية تاريخها ٩ يونيه وهي مرسلة من القدس .. وفيها تقول

« وصلت القدس منذ يومين وسأبقى فيها بضعة أيام ثم أسافر ثانية الى الجبل (تقصد جبل الدروز) وكانت سفرتي الى سوريا موفقة جداً والامير مصمم ان يرجع لي .

لم أقبل . وأظن أني سأعود الى مصر قريباً منتظرة منك
تلغراف مطول .. الى آخره .

آمال الاطرش »

وفهمت من هذه البرقية أنها وفقت الى اقناع عشائر الدروز في سوريا بالتخلي عن حكومة فيشي والانضمام الى الحلفاء .

هذا أولاً .

وثانياً أن زوجها السابق الامير حسن الاطرش عرض عليها أن تعود زوجة له ولكنها رفضت ..

وثالثاً أنها تريد العودة الى مصر !

ولكنها كانت ارسلت في الوقت نفسه برقية الى احد أفراد أسرتها ، والبرقية تختلف عن البرقية التي أرسلتها الي إذ تقول فيها :

« استقبلتني العائلة استقبالاً طيباً والامير حسن يصر
على عودتي له وقد وعدته بالتفكير في الأمر »

تناقض بين البرقيتين !

تقول لي في برقيتها أنها لم تقبل العودة لزوجها الامير .

وتقول لأسرتها في برقيتها الاخرى أنها وعدت الامير بالتفكير في الأمر !.. ولم تكن رحمها الله تقدر أنني سأحاط علماً بهذه البرقية .

لماذا قالت لي في برقيتها أنها لم تقبل العودة الى زوجها وأنها ستعود قريباً الى مصر ؟

أدركت مرادها ! وأعترف أنني أطلت التفكير . ولكن عاطفة الحنو أو الحنان عليها كانت تغلب دائماً في صدري كل عاطفة سواها .

كنت أريد لها أن تستقر وتهدأ وتستريح .

واستغرق تفكيري أو ترددي يومين . ثم أرسلت اليها برقية في أكثر من مائة كلمة نصحتها فيها بل وألححت عليها بقبول الزواج ، وختمت برقيتي بكلمة مبروك !

ولكن ــ وقبل أن تصل اليها برقيتي هذه ــ ابرقت اليّ من القدس تقول :

« لم يصلني حتى الساعة رد تلغرافي . مشغولة جداً . هل قرأت اللطائف والبورص ؟ كيف تكون أنت موجود وتغفل تكذيب كل هذه الاشاعات الشنيعة؟ فأرجوك أن ترفع قضية في الحال وإني مستعدة لأي تكاليف . ليس لي في العالم سواك لا تخيب ظني .

المخلصة آمال الاطرش »

ورددت عليها ببرقية قلت فيها أن الاقربين اليها من أفراد اسرتها هم وحدهم الذين يمكنهم رفع الأمر الى القضاء . أما أنا فلا صفة لي . وإذا شاءت فلترسل توكيلاً رسمياً باسم احد المحامين وهو يتولى رفع القضية .

وبعد أيام أرسلت اليّ توكيلاً رسمياً باسم الاستاذ احمد رشدي المحامي . وحملته اليه . وأعد حضرته فعلاً صيغة الدعوى التي سيرفعها باسم الاميرة آمال الاطرش .

وكانت هذه الاجراءات قد استغرقت أسبوعين . وكانت آمال قد تزوجت في ٣ يوليه الأمير حسن وأصبح لقبها الرسمي الاميرة آمال الاطرش !

ولكن صديقاً لأسرة الطرشان عرف بأمر هذه الدعوى فزارني في مكتبي ونصح لي بعدم المضي فيها لأن مثل هذه القضية قد تثير لغطاً وهو أمر غير مستحب ولا مرغوب فيه الآن بعد زواجها .

واقتنعت برأيه .

وفي الوقت نفسه قابلني بعض الصحفيين الذين كانت الدعوى سترفع ضدهم وأبدوا أسفهم واستعدادهم للاعتذار وقالوا إنهم نشروا ما نشروه (بحسن نية !) لأنهم نقلوه عن مجلة اللطائف المصورة !

وأبرقت الى آمال بكل هذا فوافقت على عدم رفع الدعوى .

ثم انقطعت أخبارها عني مرة أخرى .

وكان الحلفاء قد زحفوا من فلسطين على لبنان وسوريا بجيش مكوّن من الاستراليين والهنود وقوات فرنسا الحرة وهي قوات الجنرال ديجول .

وتمكن الحلفاء من دخول سوريا ولبنان وقضوا فيهما على كل أثر لنفوذ المحور كما طردوا منهما قوات حكومة فيشي .

ومضينا في شهر يوليه .

ونشرت جريدة المقطم في عدد الخميس ١٠ يوليه ١٩٤١ هذه البرقية تحت عنوان (بين الحلفاء والدروز) :

دمشق في ٩ — تبودلت محادثات ودية بين كبار الفرنسيين والبريطانيين والدروز في اثناء مأدبة أدبت في دمشق لمناسبة زواج الامير حسن الاطرش محافظ جبل الدروز وبحضور الجنرال كاترو والجنرال اليفانس وغيرهما من عظماء البريطانيين والفرنسيين .

الأميرة آمال الاطرش

وقد اغفلت البرقية اسم تلك التي اتخذها الامير زوجة له !

من تكون ! هل هي آمال ؟

ثم ذاع الخبر في مصر — وعمت معه الدهشة والعجب معاً — يوم نشرت جريدة المصري في عدد الاربعاء ١٦ يوليه ١٩٤١ هذه البرقية مصدرها لندن : لندن في ١٥ — و.ف. — كتب المراسل الحربي للوكالة الفرنسية المرافق للقوات الفرنسية الحرة في سوريا يقول .. (احتفل في يوم ٣ يوليه في دمشق بزواج الاميرة آمال الاطرش المعروفة في عالم السينما المصرية باسم اسمهان بابن عمها الامير حسن الاطرش من رؤساء القبائل في جبل الدروز . ومما يذكر عنها أن سلطات فيشي وأعوان المانيا كانوا قد طلبوا منها قبل بدء العمليات الحربية في سوريا مغادرة البلاد فاضطرت

لى الهرب على ظهر جواد حتى بلغت فلسطين . ولما دخلت قوات الحلفاء اسوريا عادت الى دمشق حيث تزوجت بابن عمها الذي كانت طلقت منه عام ١٩٣٩ .

وقد ادلت بتصريح قالت فيه : (لقد ودعت الحياة الفنية وداعاً اخيراً لأنصرف الى الحياة الزوجية فأجعلها سعيدة هانئة والى خدمة بلادي وعشيرتي بالاشتراك مع زوجي . هذه أمنية عزيزة علي محببة الى نفسي) .

وهكذا عرف الناس في مصر أن الفتاة الرقيقة الحزينة الصوت التي عرفوها باسم اسمهان والتي طالما نهشتها الألسنة والاقلام المسمومة قد أصبحت اميرة !.. تدلي بتصريحات لوكالات الانباء والمراسلين الحربيين ويطيّر البرق أخبارها !

ولما أقبل المساء – مساء ١٦ يوليه – وكنت في رأس البر – عدت الى عشتي على شاطيء البحر وجلست على الشرفة .. ونظرت الى مقعدها الخالي ! المقعد الكبير الذي كانت تجلس فيه عادة .. كلما زارتني ..

وأطرقت برأسي اصغي بأذن الخيال وكأنها لا تزال أمامي هنا في مقعدها تتحدث .. كما كانت تجلس وتتحدث اليّ في مثل هذه الأيام – وربما في مثل هذه الليلة – منذ عام واحد !.. أو كما كانت تغني بصوتها الحزين أغنية من أغاني الريف أو من أغاني الجبل !

وكان هذا منذ عام !..

٨

حياتها المحمومة ...

تريد العودة الى مصر ؟!

ومضت الأيام . وبدأت صحافة مصر اليومية والأسبوعية تنقل لقرائها أخبار اسمهان سابقاً والاميرة آمال، الاطرش الآن وكيف أن المندوب السامي الفرنسي الجنرال كاترو أقام مأدبة في دمشق أو في بيروت ، وكانت تجلس الى يمينه الاميرة آمال الاطرش بوصفها السيدة الاولى في البلاد !

.. وأخبار حياة البذخ والاسراف التي تحياها ..

الى آخره .. الى آخره .

الى أن تلقيت منها أول برقية أرسلتها اليّ بعد زواجها . وقد ارسلتها من القدس والبرقية مكتوبة باللغة الفرنسية وتاريخها ٢٩ يوليه وترجمتها :

« وصلت أمس القدس وسأبقى فيها الى يوم الخميس
أنتظر أخبارك بفارغ الصبر سأرسل لك غداً خطاباً »

ورددت عليها ببرقية كررت فيها تهانئي بزواجها وأشرت عرضاً الى

أنه يحسن بها بعد زواجها أن تكف عن مراسلتي حتى لا يساء فهم ما بيننا .

ولقد كنت مخلصاً في هذه النصيحة . وذلك أنه كانت هناك بحكم ظروف الحرب رقابة على البريد والبرقيات في فلسطين كما في سوريا ولبنان . وكل برقية كانت ترسلها اليّ كانت تمر بالرقيب . ومع ذلك فقد كانت ترسل برقياتها باسمها الصريح (آمال الاطرش) وتذكر في برقياتها ما لا يجب أن يذكر . وقد يصل خبر هذه البرقيات وقد بلغ عددها عشرات .. الى زوجها .

بل ان كثرة هذه البرقيات وما فيها لفتت فعلاً نظر الرقيب العام في فلسطين يومئذ واسمه الماجور تويدي فكتب الى القاهرة يسأل عمن يكون محمد التابعي هذا

ومن أجل هذا وحرصاً مني على حياتها الزوجية نصحت لها في برقيتي أن تكف عن مراسلتي ولكنها – يرحمها الله – فهمت ما لم أرده .

فهمت انني غاضب !

ومن هنا كان لبرقيتي عكس الاثر الذي كنت أرجوه !.. العكس والنقيض تماماً . فقد جاءتني منها على الفور برقية اخرى .. وكل ما فيها « على المكشوف » وأنا أترجم هنا صدر البرقية وأغفل نشر ختامها ..

« برقيتك سببت لي حزناً كبيراً . ان زواجي تم بالرغم مني . لقد حضرت القدس خصيصاً لإعداد جواز السفر والذهاب متنكرة INCOGNITO الى القاهرة لرؤيتك لمدة اسبوع . يجب أن لا يعرف أحد . أم تفضل أنت الحضور هنا ؟ إذا كنت أنا التي سأذهب الى القاهرة فلن يكون ذلك قبل خمسة عشر يوماً . ولكن هذه مدة طويلة .. »

الى آخره .

والامضاء .. آمال الاطرش ! »

وكان ردي جافاً وهو : (لا تحضري ولا أستطيع أنا السفر) .

والله وحده يعلم ! ولكنه كان الواجب فقد كنت أريد حقيقة لهذه

النفس القلقة أن تستقر وتهدأ وتستريح .

* * *

نعم . كان ردي جافاً . ولكني كنت أود لهذه الروح الحائرة ، لهذه النفس القلقة المعذبة ، وقد شاء الله لها أن ترد الى ابن عمها وزوجها الأول .. كنت أريد لها أن تستكن وتهدأ لعلها تستريح .

ولكن ها هي ذي وقد عاودتها الحمى ! حمى الحيرة والقلق .. ها هي ذي تريد العودة الى مصر ..

ومن ذا الذي يضمن — إذا هي عادت الى مصر — انها سوف تغادرها وتعود الى زوجها وجبل الدروز ؟

من أجل هذا قلت لها في برقيتي : « لا تحضري ..! »

لانني كنت أعرف عن حيرة نفسها مالا تعرف ! اذا أقامت في مصر شقيت بعيشها في مصر ، وشكت مما تلقاه وبكت وندمت وتمنت لو عادت الى زوجها وجبل الدروز !.. حتى إذا حققت لها الاقدار أو الظروف امنيتها وعادت الى زوجها .. عاودتها الحيرة والقلق وعدم الاستقرار وراحت تسعى وتلتمس اسباب التغيير والتبديل ! ذلك أنه ما استبدت علة أو مرض باسمهان كما استبد بها هذا المرض النفساني ، مرض الحيرة والقلق ، كأنما كتب عليها أبداً أن لا تستكن ولا تهدأ ولا تستريح !

ماذا تريد ؟ ماذا تبغي من حياتها وماذا تشتهي ؟ لا أدري ولا هي نفسها كانت تدري !

حيرة وقلق . وريح بعد ريح تدفعها هنا وتدفعها هناك . وتجذبها هنا وتجذبها هناك . وهي نفسها حيرى لا تعرف أين المستقر واين المصير ؟

* * *

أرسلت برقيتي . ومرت أيام ولم يصل إليّ منها خبر آخر . وحمدت

الله على أنها عملت بنصيحتي .

ولكن كم كانت دهشتي ، بل وفزعي ، حين تلقيت يوم ١١ أغسطس في رأس البر برقية من القاهرة من سيدة اشتغلت في يوم ما بالصحافة وكان لها مكتب للانباء والاستعلامات ..

ونص البرقية : (إحضر اسمهان هنا) !!

وأرسلت على الفور برقية الي الاستاذ جمال جبر في القاهرة اسأله عن صحة الخبر .

ولكن ظهر أن الخبر غير صحيح فقد أبرق اليّ الصديق (لا صحة للخبر حتى الآن) .

وحمدت الله .

ولكن من أين خرجت هذه الاشاعة ، اشاعة وجودها في القاهرة ؟

لابد أنها كانت كتبت – في نفس الوقت الذي ارسلت اليّ فيه برقياتها – الى بعض أفراد أسرتها أو بعض صديقاتها عن قرب عودتها وزيارتها لمصر .. ومن هنا خرجت اشاعة وجودها في القاهرة .

هذا هو التفسير الوحيد .

إسراف اسمهان في صحتها وفي مالها

وبعد ذلك بيومين اثنين ذهبت لتناول الشاي في عشة السيدة الجليلة حرم المرحوم عمر سلطان باشا .

ودهشت إذ وجدت بين المدعوين المرحوم جبرائيل تقلا باشا صاحب « الاهرام » لأنني كنت سمعت أنه في لبنان .. بينما كانت أسرته الكريمة تمضي الصيف في رأس البر .

وقال رحمه الله أنه عاد اليوم فقط من لبنان .. ثم انتحى بي جانباً وهو يقول : (رب صدفة خير من الف ميعاد !) لأنه كان يريد أن يبلغني رسالة

ولم يكن يعرف انني في رأس البر .

وقال رحمه الله أنه رأى آمال الاطرش في صوفر .. ومضى يحدثني عن حياة البذخ التي تحياها في فندق صوفر الكبير « جراند أوتيل » وعن رؤساء الدروز وزعماء القبائل والعشائر ذوي الشوارب المفتولة والممنطقين بخناجر الذهب والفضة الذين يقفون لها احتراماً إذا أقبلت .. ويمشون وراءها إذا قامت ، ويقدمون لها عقود الزهر كل صباح وكل مساء ..

ثم قال رحمه الله بابتسامته الساخرة أنه لم يجرؤ على اختراق صفوف هذا (الحرس المسلح) لكي يحييها ولكنها هي لمحته ذات مرة في قاعة الفندق فأقبلت نحوه تحييه وتسأله عن مصر وأخبار مصر .. الى آخره .

الى أن قال وقد ترك لهجته الساخرة :

– إذا كنت حقيقة صديقاً لها مشفقاً عليها فاذهب اليها وانصحها ..

وبدا عليّ أنني لم أفهم فقال رحمه الله :

– لقد قالت لي أنها دعتك لمقابلتها وأنك رفضت .. وقد رجتني كثيراً أن أحمل اليك نفس الرسالة واستحلفتني أن ألح عليك في تلبية دعوتها . ولكن صدقني أنني كنت سأقترح عليك السفر اليها حتى ولو لم تطلب مني هي ذلك

قلت : لماذا ؟

قال : لأنها تنتحر !.. ولأنها سائرة بخطوات سريعة في طريق الخراب . وحرام أن تقضي هذه الفتاة على نفسها بيدها وأنت كما أعرف صديق لها وهي تثق فيك كثيراً فمن واجبك إذن أن تذهب اليها لكي تنصحها وتؤثر فيها وتهديها سواء السبيل ..

ووصف لي رحمه الله حياتها المحمومة ، حياة السهرات والحفلات والاسراف في الشراب .. وكيف أن وجهها قد شحب ونحل كثيراً عن ذي قبل بينما اتسعت عيناها وازداد بريقهما ولكنه أشبه ببريق الحمى .. الى آخره .. وكيف أن لا حديث هناك في مصايف الجبل الا عن إسراف الاميرة آمال الاطرش ، وكثرة ما تنفقه على الولائم والحفلات ومن ذلك أنها

اقامت مرة في « عاليه » حفلة ساهرة تكريماً لبعض كبار المصيفين المصريين وبلغت نفقات هذه الحفلة الواحدة ألف جنيه !

ثم قال رحمه الله ما خلاصته ومعناه :

– فهل فكرت هذه المجنونة في مستقبلها ؟ وهل هي تعتقد أن هذه الحرب ستدوم الى الأبد وأن الانجليز سوف يظلون يدفعون لها هذه الأموال الطائلة ؟ سوف يجيء يوم ولا شك تنتهي فيه هذه الحرب ويستغني فيه الانجليز عن خدمات آمال الاطرش ويكفون عن دفع هذه الأموال التي يغدقونها عليها الآن فماذا تفعل يومئذ ؟.. اسمع كلامي وسافر وقابلها وانصحها . وأنا أعتقد أن ليس هناك من يستطيع أن يؤثر فيها سواك . وهي نفسها تقول ذلك .

قلت : ربما كان صحيحاً أنها تصغي لكلامي .. وانني استطيع أن أوثر فيها ولكن هذا صحيح عندما كانت تعيش في مصر أي تعيش معي في بلد واحد وكان يمكنني أن ألقاها أو أتصل بها في كل يوم . ولكن كيف أستطيع أن أوثر فيها وهي في بلد وأنا في بلد ؟.. هي في لبنان وأنا في مصر ؟ وافرض يا باشا أنني سافرت فلن يمكنني أن أبقى في لبنان اكثر من أسبوع أو أسبوعين . وسوف تعمل هي بنصيحتي ما دمت موجوداً بجانبها وسوف تعدل من نظام حياتها وتكف عن السهرات والحفلات ثم ماذا ؟.. بعد أن أتركها وأعود الى مصر سوف تعود الى سيرتها الاولى! وأنا أعرف آمال جيداً .. ثم لا تنس يا باشا أنها الآن زوجة أمير جبل الدروز . وأنت نفسك قلت أن زعماء الدروز يحيطون بها دائماً . فماذا يقول هؤلاء إذا رأوا مصرياً مع زوجة أميرهم طول الوقت ؟ وماذا يفعل زوجها إذا اتصل به الخبر ؟

وضحك رحمه الله وقال :

– أخائف أنت ؟

ضحكت أنا ايضاً وقلت :

– ولم لا أخاف ؟!

ثم قلت أن لا فائدة حقيقية يمكن أن ترجى من سفري ، وأنني سأكتب اليها خطاباً مطولاً ..

وقال تقلا باشا :

– إذن لا تنس أن تذكر لها في خطابك أنني أبلغتك رسالتها وأنني حنيقة مشفق عليها ..

قلت : سأفعل .

وكتبت اليها فعلاً خطاباً طويلاً .. ولكنني كنت اكتب وأنصح واذكرها بالماضي واحدثها عن صحتها و.. و.. الى آخره وأنا أعلم أنها سوف تقرأ خطاني وتتأثر اثناء قراءته ثم لا تلبث ان تنساه .. وتواصل حياتها المحمومة . حياة السهر والشراب والحفلات .

تريد العودة الى مصر

وفي يوم ٣ أغسطس أرسلتْ اليّ من صوفر البرقية الآتية : – ولكن البرقية لم تصل اليّ الاّ يوم ٢٥ وربما بسبب الرقابة العسكرية :

وهذا هو نص البرقية ..

« غير ممكن ذهابي الآن لمصر . احضر أنت ، انتظرك .
عرفني ميعاد حضورك . عنواني أوتيل صوفر الكبير .
آمال الاطرش »

وابرقت اليها بنفس ردي الاول اي أنه لا يمكنني السفر !

وفي يوم ٢٨ أغسطس تلقيت هذه البرقية – وقد أرسلتها من بيروت :

« طلبت التأشير على جواز سفري الفرنسي الديبلوماسي . أرسل الطلب برقياً لمصر . لاحقوه

آمال الاطرش »

أي أنها طلبت من قنصلية مصر « فيزا » على جواز سفرها الدبلوماسي (بصفتها زوجة أمير جبل الدروز) وأن القنصلية أرسلت طلبها المذكور بالتلغراف الى مصر .

و « لاحقوه » معناها أن أسعى في وزارة الداخلية للموافقة على الاذن لآمال الاطرش بزيارة مصر !

ومرة اخرى أبرقت اليها بنفس الرد : .. « كلا » .

وهكذا ! منذ ثلاثة أيام كانت تقول أنه (لا يمكنها الحضور الى مصر !) وها هي ذي (يمكنها الحضور الى مصر) وتطلب فيزا لدخول مصر ؟

نفس الحيرة والقلق وعدم الاستقرار !

الفتاة التي ماتت ضحية حبها لاسمهان !

ولابد أنها كانت غادرت صوفر الى دمشق لأنني تلقيت بعد أيام قليلة خطاباً من الصحفي الاستاذ عباس الحامض المحرر يومئذ بجريدة « القبس » الدمشقية .

والخطاب طويل . وكل ما فيه عن اسمهان . وقد بدأه الزميل الفاضل بقوله أنه زار هو ونفر من أصحابه ذات يوم بعد الظهر فندق سراي الشرق « أوريان بلاس » .. الى أن قال :

« .. وكان الهواء المعطر يحمل الينا من حدائق الفندق
صدى أغنية اسمهان « اسقنيها بأبي أنت وأمي » ..
وفجأة .. تخطت باب الفندق سيدة في هيكلها الخارجي
وقار . وفي مشيتها دلال ، وعلى وجهها ابتسامة متكلفة ،
وهتفنا معاً .. اسمهان !
كانت هي كما عرفناها قبل سنوات في مصيف بلودان
وأمام بحيرة فندقها الكبير ..
وصعدت اسمهان ومرافقوها الى الطابق الأعلى .

ودخلت الفندق في هذه الاثناء فتاة في باكورة العمر عرفناها قبل سنة واحدة في قرية صيدنايا القريبة من دمشق . وكانت إذ ذاك تداعب رأسها وهي تغني في شبه شرود بصوت جميل ينقصه الصقل والتهذيب والمران . وكانت الاماني العذاب تملأ صدرها حناناً الى اليوم الذي تتعرف فيه بالمطربة المدهشة كما كانت تسمي اسمهان .

وقد استغربنا أن تدخل هذه الفتاة القروية الساذجة الفندق الكبير وحدها وهي ترتدي أغلى ما عندها أو لعلها اشترت الفستان الذي كانت ترتديه خصيصاً لهذه الزيارة .

وأخذت المسكينة تتعثر في مشيتها وكادت تصطدم مراراً بالمقاعد المبعثرة هنا وهناك .. أو باطراف السجاد المفروشة به القاعة الكبرى .

وأخيراً تقدمت منا وحيتنا وسألتنا عن اسمهان — ولا ندري كيف عرفت وصولها بهذه السرعة — وفهمت منها أنها ستقابلها لكي ترجوها أن تسمح لها بالعمل عندها ولو بصفة خادمة لأنها تحبها وتريد ان تقتبس منها .

وناديناا أحد خدم الفندق وطلبنا منه أن يذهب بالآنسة الى الأميرة آمال الاطرش ..

ولكن اسمهان كانت مشغولة ساعتئذ بترتيب غرفتها ولهذا طلبت من الخادم أن يمهل الفتاة — واسمها ماري — وأن يسألها أن تنتظر !

وجلست الفتاة تنتظر . وقد أخذت بفخامة الفندق والاثاث . أو لعلها أخذت تعد في رأسها الكلام الذي ستقوله لمعبودتها أسمهان .

وقبل الغروب بقليل هبط مصعد الفندق من الطابق

الأعلى ووقف عند الطابق الثاني على مقربة من الردهة التي كانت الفتاة جالسة فيها تنتظر !

وفتح باب المصعد الكهربائي وخرج منه رجل وسيدة من نزلاء الفندق كانا يتنزهان على سطحه .

وكانت هذه أول مرة ترى فيها الفتاة المسكينة مصعداً كهربائياً !.. وفغرت فاها دهشة ولعلها ظنت أن السماء انشقت أو أن هذا المصعد يوصل بين الارض والسماء !

وكان ممر الطابق الثاني خالياً وجمعت الفتاة ماري أطراف شجاعتها وتقدمت على مهل من المصعد لتتفرج عليه .

وكانت فيه فجوة . ثم تشجعت ومدت يدها من الفجوة فوجدت مفتاح النور وأدارته فأضاء وازداد فضولها .

ومدت رأسها من فجوة المصعد الى الداخل ..

ثم أدخلت رأسها ويدها معاً وضغطت على أحد الأزرار !

وكنا نحن في الطابق الارضي نتحدث عن هذه الفتاة ماري ونرجو أن تتحقق آمانيها . فهي الى جانب جمالها مهذبة خجولة ولها صوت جميل لو أعتني به لحقق لها الشهرة والثراء .

وبينما نحن في الحديث سمعنا شهقة وتكسراً .. ثم جلبة وضوضاء !

وبالقرب من مستقر المصعد في الطابق الارضي كانت تتساقط قطرات من الدم !

واسرعنا الى الطابق الثاني ..

ان المسكينة ماري عندما ادخلت رأسها ويدها وضغطت على أحد الأزرار .. كان هذا الزر هو زر الهبوط ! ولقد هبط المصعد وأخذ معه رأس الفتاة !

وماتت المسكينة في الثوب الأنيق الوحيد الذي اشترته لتقابل به اسمهان !

أما اسمهان فقد أسرعت الى مكان الحادث .. وفوق جثة الفتاة ذرفت دمعاً كثيراً ! »

* * *

وهكذا ماتت ماري ضحية اعجابها وحبها لاسمهان ..

كما ماتت بعد ثلاث سنوات ماري اخرى – ماري قلاده – ضحية صداقتها وحبها لاسمهان .

وفي يوم ٩ سبتمبر تلقيت من اسمهان هذه البرقية ... ومصدرها بيروت :

« سافرت الى تركيا اتصلوا بي تلغرافياً أوتيل انقره بالاس .

آمال الاطرش »

ودهشت طبعاً . وعجبت لماذا تسافر الى تركيا ؟ ولكنني ظننت أن السلطات البريطانية هي التي أوفدتها الى تركيا في مهمة سرية أي من أجل عمل من أعمال قلم المخابرات السرية !

ولكن الأمر كان على النقيض تماماً كما عرفت منها هي نفسها فيما بعد أثناء أحاديثنا الطويلة في فندق الملك داود بالقدس . وسأعرض لهذا كله فيما يلي من الفصول .. ولماذا أرادت رحمها الله أن تسافر الى أنقره .

« اتصلوا بي تلغرافياً ... »

أتصل بها !.. لماذا !؟ وماذا أقول لها « تلغرافياً » ؟

ومع ذلك فقد أرسلت برقية باسم « الاميرة آمال الاطرش » على العنوان الذي ذكرته في أنقره .

وبعد بضعة أيام أعادت الي شركة ماركوني برقيتي لان الشخص المرسلة اليه البرقية غير موجود !!

الجناح الملكي في فندق الملك داود

وانقطعت عني رسائلها وبرقياتها . أما أخبارها فكانت تصل اليّ من أفواه الاصدقاء العائدين من مصايف سوريا ولبنان . وكذلك مما كانت تنشره صحف القطرين الشقيقين .

وكان محام مصري كبير زار لبنان وفلسطين وأمضى فيهما فصل الصيف ثم عاد الى مصر في أوائل اكتوبر وكتب اليّ خطاباً طويلاً جاء فيه :

« عندما غادرت اسمهان مصر ذهبت مباشرة الى القدس ونزلت في فندق الملك داود وهو أفخم فنادق العالم . ولكنها لم تنزل فيه مثل مسافرة عادية بل طلبت عند وصولها الجناح الملكي الذي ينزل فيه عادة الملوك والامراء من زائري القدس وكان آخر من نزل فيه منذ شهرين أو أقل صاحب السمو الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق .

ولقد دهشت ادارة الفندق في أول الأمر وتلكأت في إجابة الطلب ولكن بعضهم — من ذوي السلطة — تدخل في الأمر وهكذا نزلت ادارة الفندق على ارادة المطربة الاميرة الحسناء !

ولم يمض أسبوع حتى أصبحت « الاميرة » — كما يسمونها — حديث المجالس في القدس بسبب إسرافها وبذخها . ومن ذلك أنها كانت تقيم من وقت لآخر مأدبة تدعو اليها بين العشرين والثلاثين من القواد العسكريين وكبار الضباط ورجال الادارة . وكان قوام المآدب المذكورة الشمبانيا والكافيار ولعلكم تعرفون كم تكلف الآن الشمبانيا والكافيا ر وخصوصاً في فندق الملك داود !

ونزلت الاميرة مرة وابتاعت ٢٠ زوجاً من الاحذية

و ٢٠ فستاناً وعدة معاطف . وأما أحذيتها وفساتينها التي كانت احضرتها معها من مصر فقد وزعتها على خادمات الفندق

ولقد اشترت اخيراً سيارة رولزرويس من الثري المعروف هنري فرعون صاحب جياد السباق التي تجري باسمه في مصر ودفعت ثمناً للسيارة ألفين وخمسمائة جنيه .

وذهبت مرة الى فندق سان جورج في بيروت حيث اعتادت أن تنزل فيه اثناء اقامتها في بيروت ولكنها وجدت الجناح الملكي مشغولاً وبالرغم من أن إدارة الفندق وضعت تحت تصرفها جناحاً فخماً آخر إلا أن الاميرة غضبت وذهبت الى فندق النورماندي .

الى آخره .. الى آخره !

توزيع الدقيق مجاناً على فقراء بيروت

ولكن الى جانب هذا الاسراف في ولائم ومآدب الشمبانيا والكافيار يجب أن يرصد لها في حسابها هذا الجانب الانساني في عمل الخير .

لقد عرف فقراء بيروت في عام ١٩٤١ مرارة الجوع بعد ان ارتفعت أسعار القمح والدقيق - أو الطحين - كما يسمونه في لبنان ، حتى عز الحصول عليه إلا بسعر السوق السوداء .

وهنا انقل عن جريدة الحديث البيروتية الصادرة بتاريخ الاثنين ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ .. والمقال بامضاء س. معلوف .

« استعانت الاميرة آمال الاطرش بالله على تخصيص يوم الاثنين من كل أسبوع لتوزيع الطحين مجاناً على الناس .

هذا ما قرأته في الصحف فدهشت وأستغربت لا لأن الاميرة آمال الاطرش قررت عمل شيء انساني يرضي الله

ويرضي ضميرها بل أن دهشتي واستغرابي ناتجان من اختيارها (توزيع الطحين) وسيلة لإرضاء الباري والضمير .

فلو قيل لي مثلاً أن الاميرة آمال الاطرش قررت توزيع أي شيء غير الطحين لقلت : لا بأس فالاميرة اعتادت أن تكون سخية جوادة الى حد كبير كما يقولون ، ولكن أن تقوم على توزيع الطحين مجاناً في وقت يصعب فيه الحصول على هذه المادة بالفلوس .. ان هذا يعتبر من المغامرات الجريئة في الوقت الحاضر .

والاغرب أنها لم تشأ أن تقوم بهذه (المغامرة الانسانية) ضمن دائرة ضيقة بل رأيناها تعلن في الصحف عن عزمها على توزيع الدقيق مجاناً ومعنى هذا أنها تعلن للفقراء والمعوزين في جميع انحاء البلاد بما عزمت عليه ، ومعناه ايضاً أن الحي السرسقي — حيث تسكن الآن الاميرة — سوف يستقبل في كل يوم اثنين جماهير الفقراء والمعوزين وطلاب الطحين . » الى آخره .. والمقال طويل ..

عادت تدعوني لمقابلتها

واخيراً جاءتني منها أول برقية بعد سكوت نحو اربعين يوماً. وتاريخ البرقية ١٥ اكتوبر — وصلت اليّ يوم ١٨ — وهي مرسلة من القدس، وهذا نصها :

« أنا في القدس من خمسة أيام أخبرني هل ممكن أن تحضر الى القدس يجب أن أراك . منتظرة ردك حالاً .

آمال الاطرش »

وقبل أن أرسل ردي على هذه البرقية — وهو بالاعتذار والرفض —

كلمتي بالتليفون السيدة أمينة البارودي وقالت أن آمال أرسلت اليها تدعوها لزيارتها في القدس وتبدي رغبتها في شراء سيارة زوجها (وقتئذ) الاستاذ احمد سالم — وهي ماركة كوردا — وتعرض ثمناً لها مبلغ الف جنيه .

وكان مبلغ الف جنيه يعتبر في عام ١٩٤١ ثمناً طيباً جداً لاية سيارة خصوصاً إذا كانت مستعملة منذ أربع سنوات .

ثم قالت السيدة امينة أنها تسافر بالسيارة غداً الى القدس .

وطلبت منها أن تبلغ آمال تحياتي واعتذاري من عدم السفر الى القدس .

* * *

واقطع هنا الحديث لأقف قليلاً واروي كيف تلقت السيدة امينة البارودي دعوة صديقتها آمال الاطرش لزيارتها في القدس .

كانت أمينة جالسة في دارها بالزمالك حين دخل الخادم يقول أن هناك ضابطاً انجليزياً يطلب مقابلتها .

واستقبلت امينة الضابط المذكور الذي قدم نفسه باسم كابتن هاورلد موريسون وقال الكابتن موريسون أنه قادم من القدس ومعه رسالة لها من «البرنسس» اطرش !

وناولها خطاباً من آمال .

ثم أخرج من جيبه رزمة ضخمة من أوراق « البنكنوت » ووضعها أمام امينة وهو يقول :

— وهذه هي الالف جنيه !.. ولكن أرجوك أن تقرئي الخطاب أولاً .

وقرأت امينة خطاب صديقتها . وفيه أنها تدعوها لزيارتها في القدس وتبدي رغبتها في شراء سيارة احمد سالم الى آخر ما سبق ذكره .

ثم تطلب من صديقتها امينة أن تشتري لها كذا وكذا من المحل الفلاني وتشتري لها كيت وكيت من المحل الفلاني .. إلى آخر قائمة طويلة بأصناف ثياب وحاجات نسائية وأدوات زينة .. الى آخره .

وأنها ترسل مع صديقها الكابتن هارولد موريسون مبلغ الف جنيه لشراء الاشياء المطلوبة .

وأمضت امينة يومين كاملين تطوف فيهما بالمحال التجارية واشترت لصديقتها ما طلبت .

ثم كلمتني بالتليفون لتقول أنها تسافر غداً الى القدس .

* * *

وبعد يومين اثنين من سفرها جاءتني برقية باللغة الفرنسية ممضاة (امينة البارودي) وترجمتها :

« آمال مريضة جداً يحتمل إجراء عملية لها تريد أن تراك أرجوك الحضور » .

وفي نفس اليوم تلقيت برقية من آمال .. ونصها :

« انتظرك بفارغ الصبر »

وقررت السفر .. وأرسلت برقية بهذا المعنى .

وقد استغرقت اجراءات السفر الى فلسطين — وكانت عديدة ومعقدة بسبب ظروف الحرب — يومين .

سافرت لاقابلها في القدس

وفي يوم الجمعة ٢٤ اكتوبر سافرت بقطار فلسطين ووصلت الى القدس حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ونزلت في فندق الملك داود وكنت حجزت لي حجرة فيه بالتلغراف .

وسألت موظف الفندق الذي صحبني الى غرفتي عن صحة مدام اطرش ؟

قال الموظف : « البرنسيس » اطرش ؟

ولم اكن اعتدت بعد أن أفكر في آمال على أنها « برنسس » أو أذكر

إسمها مقروناً بلقب الأمارة ؟

قلت : نعم كيف صحتها ؟

قال الرجل : صحتها بخير .

قلت : أرجو أن تبلغها أنني وصلت .

وبينما أنا أفرغ حقيبتي وأرتب الملابس القليلة التي احضرتها معي فتح باب الغرفة ودخلت آمال ووراءها امينة البارودي وهما تضحكان .

وأقبلت عليّ تحييني .

وبعد أن انتهينا من التحيات نظرت اليها وقلت :

– هذه هي المريضة التي سيجرون لها عملية جراحية خطيرة ؟ ذلك أنه لم يكن يبدو عليها أنها مريضة .

قالت : أعمل ايه ؟ لم تكن هناك حيلة اخرى لحملك على الحضور .. وعلى كل حال الفكرة كانت فكرة امينة .

* * * *

وانتقلنا الى حجرة الجلوس الخاصة الملحقة (بجناحها الملكي) وجلسنا نتناول طعام الفطور .

ثم استأذنت امينة وخرجت لكي تطوف بالمحال التجارية باحثة عن فراء مما يوضع حول العنق .

وكانت أسعار الفراء وقتئذ في القدس وتل أبيب أرخص بكثير منها في مصر ، بل كانت تصل في بعض أنواع الفراء الى ثلث مثيلاتها في القاهرة وذلك بسبب كميات الفراء الهائلة التي احضرها معهم يهود المانيا والنمسا الذين نزحوا الى فلسطين .

تنفق خمسة عشر الف جنيه في خمسة شهور

ولما أصبحنا وحدنا قالت رحمها الله وهي تبتسم :

— في عينيك كلام كثير وتوبيخ شديد !

قلت : وهل يجدي معك الكلام والتوبيخ ؟

ثم حدثتها عما سمعته عن تبذيرها واسرافها وحفلاتها ومآدبها واخيراً قلت :

— هل نسيت يوم خلا جيبك من قرش واحد تركبين به الترام ؟ هل نسيت يوم كنت لا تجدين أجرة التاكسي فيدفعها عنك بواب العمارة ؟ ألا تفكرين قليلاً في المستقبل ؟ وتدخرين شيئاً له ، أم تراك تعتقدين ان هذه الحرب باقية الى ما شاء الله وأن الانجليز سيغدقون عليك آلاف الجنيهات الى ما شاء الله ؟

وهزت رحمها الله كتفيها وهي تقول :

— أعرف هذا كله .. ولكن ..!

ولم تكمل العبارة !

ولو كانت أكملت لقالت (ولكن هذه طبيعتي ، وأنا أريد أن استمتع بكل ما في الحياة !)

أو شيئاً في هذا المعنى !

وتناولت صندوق السجاير الموضوع أمامها وراحت تكتب على ظهره تواريخ وأرقاماً . ثم ناولتني الصندوق وقالت :

— إجمع هذه الأرقام ..

وجمعتها فاذا بجملتها نحو سبعة عشر الف جنيه ..

قالت : هذا ما حصلت عليه من الانجليز حتى اليوم ! ولكنهم بدأوا في الأسابيع الاخيرة يمسكون يدهم قليلاً !

سبعة عشر الف جنيه ؟

سألتها : وكم بقي منها معك ؟

ضحكت وقالت : الفان ..

ولما كانت قد غادرت مصر في ٢٥ مايو ونحن اليوم ٢٥ اكتوبر فإن معنى هذا أنها أنفقت خمسة عشر الف جنيه في خمسة شهور !

وكأنما أرادت أن تعتذر أو تفسر هذا الاسراف الشديد قالت :

– لا تنس أنني اشتريت سيارتين بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه .. ثم هذا الخاتم .. أنظر ..

وأرتني في إصبعها خاتماً من الماس وقالت أنها اشترته بألف جنيه !

ولكنها باعته في أوائل عام ١٩٤٢ بستمائة جنيه !

وسكت أنا لأنني كنت أعرفها وأعرف أن لا فائدة من الكلام والنصح وتذكيرها بالماضي وما قاست فيه !

واخيراً قالت :

– ألا تحب أن تعرف ماذا فعلت منذ غادرت مصر في شهر مايو ؟

قلت : أحب جداً أن أعرف كل شيء !

وبدأت آمال الاطرش تروي قصتها أو قصة المهمة التي قامت بها في خدمة قضية الحلفاء في الشرق الاوسط منذ غادرت مصر الى اليوم .



٩

اسمهان تروي قصتها ..

صحفي أمريكي جاسوس لألمانيا !

بدأت اسمهان أو الاميرة آمال الاطرش تروي قصتها منذ غادرت مصر في يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ فقالت :

لم يكن القطار قد ابتعد كثيراً عن القاهرة حتى خيل لي أن حوادث الأيام الثلاثة الماضية كانت حلماً .. وقد افقت منه الآن فقط !.. وسألت نفسي هل أنا جننت ؟.. وإلا فكيف قبلت هذه المهمة !؟ وكيف رضيت أن أورط نفسي في عمل لا خبرة لي به ؟.. ولأول مرة مذ قابلت مستر سمارت أدركت خطورة العمل الذي أنا قادمة عليه وجسامة الخطر الذي قد اقع فيه .. بل وتمنيت لو استطعت أن أعود الى القاهرة وأعدل عن هذه الرحلة ولكن كيف ! هذا مستحيل الآن !

وأردت أن أهرب من نفسي ومن أفكاري السوداء فانتقلت الى عربة الأكل .. وجلست وحدي الى مائدة .. ولكنني لم أبق وحيدة طويلاً .

فقد أقبل رجل واستأذن هل اسمح له بالجلوس في المقعد الخالي أمامي وسمحت له طبعاً . وقدم نفسه الي على أنه صحفي أمريكي .. وأن أسمه «ف.» (ذكرت لي آمال أسمه ولكني أكتفي بذكر أول حرف فقط لأسباب سوف يدركها القراء فيما بعد) .

قالت آمال :

– وبدأ مستر «ف.» يحدثني عن الحرب ومجراها وتطوراتها وعن الشرق الأوسط وأنه يسافر الى لبنان لأنه يتوقع قريباً وقوع أحداث هامة . ثم سألني فجأة (ألست من رأيي ؟)

ووجدت نفسي أقول نعم ! ولكني في نفس اللحظة تنبهت ! وتذكرت نصائح مستر سمارت ونصائحك . وأحسست ولا أدري كيف – ولعلها أعصابي المرهفة – أن جلوس الرجل معي الى مائدة واحدة لم يكن مصادفة ! .. بل كان أمراً مقصوداً ..! وأن حديثه كان يرمي لغرض .. وهو أن يستدرجني في الحديث .

دارت هذه الخواطر في رأسي في ثانية أو ثانيتين !

هذا والرجل يتحدث ويسألني ولكنني وقد تنبهت اعتذرت بالجهل وعدم احاطتي بتفاصيل سير الحرب من عدم الاجابة . (وبابتسامة) ولم أكن كاذبة في اعتذاري فأنت تعرف خيراً من سواك أنني لا اقرأ الصحف وأنني عمري ما أهتممت بتتبع سير الحرب !

ومضت تقول :

– وانتهينا من تناول طعام العشاء ووصلنا الى القنطرة .

وكان في رأسي سؤال أخافني وهو هل الرجل يعرف المهمة التي أسافر من أجلها !؟ وهل هو يتبعني خصيصاً ؟ وهل هو جاسوس ؟ ولحساب من يعمل ؟ لحساب المحور .. أم ترى الانجليز هم الذين أرسلوه ورائي ليراقبني ؟ فقد كنت قرأت في بعض الروايات أن هناك جواسيس يتجسسون على جواسيس بينما الكل يعملون لهدف واحد ويخدمون مصلحة واحدة !

ولكنني اطمأننت قليلاً عندما رأيت أن مستر « ف. » لم يحاول أن يلازمني في محطة القنطرة أو يجلس معي في قطار فلسطين .

ولكني لما نزلت في الصباح في محطة اللد وجدته واقفاً على الرصيف وكأنما كان ينتظرني .. وتقدم مني وحياني وتمنى لي سفراً سعيداً ثم قال أنه سيواصل سفره بالقطار الى حيفا ..

وفعلاً عاد وركب القطار ..

قالت آمال :

– هذا الصحفي الامريكي مستر « ف. » كان من وكلاء المحور كما عرفت فيما بعد !.. هل تذكر أنني أرسلت اليك مرة برقية عن سفري الى أنقره ؟

قلت : نعم وكنت أنتظر حتى تنتهي من حكايتك واسألك عن السبب . ولكنك لم تسافري ؟

قالت : كلا ، لم أسافر ، أو لم أمكن من السفر .. ولمستر « ف. » علاقة بكل هذا ؟ هل أحكي لك القصة الآن أو أتركها الى أن يجيء دورها ؟

قلت : كما تشائين ..

قالت : إذن أتركها الى أن يجيء دورها ..

واستأنفت الحديث فقالت :

كومودور باص يعطيها تعليماتها وأول الف جنيه !

وركبت من اللد سيارة الى القدس . ونزلت في فندق الملك داود . ولم تمض على وصولي ساعة حتى زارني رجل انجليزي كان يلبس سترة سلاح الطيران البريطاني . وأسم الرجل « باص » وهو برتبة « كومودور » .

ورحب بي ودعاني لتناول الشاي معه في نفس اليوم .

وحول مائدة الشاي حدثني طويلاً عن « عملي » وأكد على ضرورة الحذر الشديد في كل خطوة أخطوها ونصحني أن أسيء الظن بكل أحد ..

وهنا سألتها : وهل قلت له شيئاً عن الصحفي الامريكي ؟
قالت : كلا ، خطر لي أولاً أن أفعل ولكنني عدلت .
سألتها : لماذا ؟
قالت : لم أكن اعرف ساعتئذ أنه يعمل لحساب المحور . وكان يحتمل أن يكون جاسوساً لهم هم .. للانجليز ! على كل حال لم أقل شيئاً عنه لكومودور باص ..
واستأنفت حديثها :
– وطلب مني باص أن أستريح اليوم وأستعد للسفر غداً الى عمان . وهناك سوف يلقاني من يسهل لي دخولي سوريا خلسة من حدود شرق الاردن . وكان من المهم جداً كما فهمت من باص أن أصل الى جبل الدروز وأجتمع بالامير حسن وزعماء الجبل قبل أن يعرف الفرنسيون بدخولي سوريا ..
وكان باص يعرف أن للمحور جواسيس وعيوناً في مصر . وكان من المحتمل أو على الاقل من الممكن أن يكونوا عرفوا السبب في سفري وارسلوا الى سلطات المحور في لبنان وسوريا ينبهونها الى الغرض من زيارتي لجبل الدروز ..
وطلب مني باص أن أؤكد لزعماء الدروز أن الحلفاء سوف يرسلون جيشاً لطرد حكومة فيشي وأعوان المحور . وأن جيشهم هذا إنما يدخل سوريا ولبنان لتحريرهما من كل سلطة أجنبية وأن أؤكد لهم كذلك أن النصر النهائي في هذه الحرب للحلفاء !
الى آخره .. الى آخره .

* * *

وأنا أختصر هنا كثيراً من كلام آمال الاطرش تفادياً من تكرار كلام سبق للقراء أن عرفوه وسمعوه اثناء الحرب عن قوة الحلفاء ولماذا سيكون النصر لهم في النهاية ، وعن أغراضهم من هذه الحرب .. الى آخره .
قالت آمال :



— وقبل أن يتركني باص في المساء دس في يدي مظروفاً وقال أن فيه الف جنيه لمصاريفي أنا الشخصية .. وأن الذي سوف يلقاني في عمان سوف يفضي الي ببقية التفاصيل ..

تدخل سوريا خلسة !

وفي اليوم التالي سافرت الى عمان فوصلت اليها بعد الظهر ، وانقضى اليوم ولم يتقدم الي أحد ..

ومضى صباح اليوم التالي ولم يتصل بي أحد ..

وبعد الظهر دعيت للتليفون وكلمني « المجهول » بلغة فرنسية ركيكة وفهمت منه انني يجب أن أكون مستعدة بحقائبي بعد نصف ساعة .

وفي الموعد المحدد كنت جالسة في ردهة الفندق وحقائبي القليلة حولي . واقبل خادم يقول أن سيارة تنتظرني أمام الفندق .

ومشيت الى السيارة ..

ووضع الخادم حقائبي فيها ..

وأخذت مقعدي الى جانب السائق ولم يكن في السيارة أحد سواه .

وكان السائق ضابطاً انجليزياً شاباً . ومن صوته عرفت أنه هو الذي حدثني بالتليفون ، وانطلقت بنا السيارة الى طريق الشام ..

واثناء الطريق راح الضابط الشاب يذكر لي اسماء زعماء الدروز ويسألني بعد كل اسم هل أعرف صاحبه ؟.. وطبعاً كنت أعرفهم جميعاً فهم أقاربي وابناء عشيرتي ..

ثم أخذ يسأل عن حالة كل منهم المالية والاجتماعية .. وهل هو رجل طموع أو قنوع ؟ وهل هو ممن يمكن الركون اليهم والى كلمتهم !

وانتقل الضابط بعدها الى أمراء وزعماء البادية وروساء القبائل الضاربة في صحراء سوريا ولكن معرفتي بهؤلاء كانت قليلة جداً فلم أكن أعرف

منهم سوى أميرين أو ثلاثة . أما هو – الضابط – فكان يعرف اسماءهم جميعاً وكان ملماً بكل شيء عن كل واحد منهم ..

ودام حديثنا في هذا الموضوع أكثر من ساعتين . وأستطعنا أن (نغربل) هؤلاء الامراء والزعماء وأن نختار منهم تسعة وهم الاكبر مقاماً والاوسع نفوذاً في الجبل والبادية وكان على رأسهم طبعاً زوجي حسن الاطرش ..

وأخيراً بدأ الضابط يذكر اسماءهم واحداً بعد واحد .. وهو يسألني :

– ما رأيك ؟ هل تظنين أنه يقنع بخمسمائة جنيه في الشهر ؟

وكنت أقول : كلا ! مستحيل ! على الأقل ألف جنيه ..

هذا بينما كنت أعلم أن فلاناً هذا يفرح جداً بخمسمائة جنيه . بل يرضى بمائتين ! ولكن لم لا أجعل هؤلاء الزعماء العرب ينتفعون بالأموال البريطانية التي كانت تنفق بالملايين !

ويتناول الضابط زعيماً آخر أو رئيس قبيلة ويقول :

– وهل تكفيه ألف جنيه ؟

وأقول أنا : كلا ! هذا رجل قوي وغني ، والف جنيه لا تملأ عينيه على الأقل ألفان .. وهكذا ..

أنا حمارة كبيرة

وتوقفت اسمهان في روايتها وضحكت وهي تقول :

– كم كنت حمارة كبيرة !

وضحكت أنا وقلت : الرجوع الى الحق فضيلة! ولكن ماسر هذا الاعتراف؟

قالت : كان في امكاني أن أحتفظ لنفسي بعشرات الالوف من الجنيهات . فقد كنت أنا الواسطة الوحيدة في ايصال هذه المبالغ الى امراء وزعماء البادية . وكان الضابط الانجليزي المذكور يزورني كل شهر مرة في فندق « أوريان » – أي الشرق – في دمشق . ويقول : (لقد أحضرت لك سجايرك اللاكي

ستوايك) ..

ويناولني « خرطوشتين » سجائر ملفوفتين بالورق . ولكن لم تكن هناك سجائر بل رزم من أوراق البنكنوت !

وكان الأمراء والزعماء يترددون على الفندق وأقابل كل واحد منهم على انفراد وأناوله المبلغ المخصص له . وكما قلت لك فان معظمهم كان يقنع بل ويفرح بنصف ما كنت أعطيه أياه . ولو أنني كنت فعلت ذلك واحتفظت لنفسي بالفرق ..

وهزت كتفيها وقالت : ولكنني كنت حمارة كبيرة ؟

ثم كأنما تذكرت أمراً لأنها ضحكت وقالت :

— عملتها بس مع زوجي حسن الاطرش ..

قلت : زوجك ؟

قالت : نعم .. في احدى المرات كان عليّ أن أعطيه نصيبه وهو ألفان من الجنيهات ولكنني لم أفعل . وتركت دمشق وسافرت الى بيروت . والامير حسن لا يزال يعتبر هذا المبلغ ديناً عليّ حتى الآن !

تقابل زوجها حسن الاطرش

وعادت اسمهان الى روايتها واستأنفت الحديث .. وأنا اغفل بعض التفاصيل التي لا ضرورة أو لا أهمية لها .

قالت : واخيراً وصلت الى الجبل (تقصد جبل الدروز) . وكنت متهيبة جداً من مقابلة العائلة وخصوصاً الامير حسن بسبب ما نشر في بعض المجلات المصرية عن زواجي ببدرخان . ونحن الطرشان نعده عاراً أن تتزوج الفتاة من رجل غريب خصوصاً إذا كان يقل مقاماً عنها (كذا !) والمجلات المصرية مقروءة في سوريا وفي الجبل . وفعلاً سألوني عن حكاية زواجي هذه فكذبتها وقلت أنها كذبة مختلطة من أكاذيب مجلات مصر .

وعلى العموم استقبلني كبار الاسرة استقبالاً طيباً . وقد تأثرت حقيقة من حسن استقبال الامير حسن وقد أحسست في الحال أنه لا يزال يحبني .. ولعل هذا الحب هو الذي سهل عليّ مهمتي لأنني لم أجد صعوبة في اقناعه بصواب الانضمام الى الحلفاء والتخلي عن تأييد حكومة فيشي .

ولكنه طلب مني أن أعود زوجة له . وأبدى استعداده لأن يطلق في الحال زوجته التي كان تزوجها بعد طلاقي منه ..

ولم يقلها صراحة ولكني فهمت أنه يجعل عودتي اليه شرطاً لقبوله ما جئت من أجله أي شرطاً لنجاحي في مهمتي ..

قالت آمال الاطرش ولعلها أرادت أن توجز وتمر سريعاً بهذا الفصل من روايتها حتى لا أناقشها في تناقض برقياتها التي أرسلتها اليّ والتي كانت أرسلتها الي أسرتها في القاهرة .

قالت : ولا أطيل عليك . وأرسل حسن ودعا زعماء الطرشان للاجتماع بي وتولى عني شرح مهمتي .. وإقناعهم . ثم بعث بالرسل ودعا بعض زعماء قبائل البادية ..

وفي الوقت نفسه بادر الى طلاق زوجته لكي يثبت لي أنه جاد في طلب عودتي زوجة له !

ومع أنني أستعنت بالكتمان والحذر إلا أن خبر وجودي في الجبل وخبر « نشاطي » السياسي ومقابلاتي لبعض أمراء وزعماء البادية وصل الى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور في سوريا ولبنان .

قالت : ولعل الصحفي الامريكي مستر « ف. » هو الذي أبلغ عني – ولو أنه أقسم لي فيما بعد أنه بريء من هذا .. وعلى كل حال فقد جاءني الامير فاعور – وهو أحد أمراء البادية وهو صديق لأسرة الطرشان – يحذرني ويقول أن السلطات الفرنسية توشك أن تصدر الأمر بالقبض عليّ واعتقالي . وأنه يجب عليّ أن أهرب وأغادر سوريا على الفور ..

وهنا قاطعتها وذكرت لها خلاصة البرقية التي كانت نشرتها جريدة

المصري وفيها أن السلطات الفرنسية هي التي طلبت منها مغادرة البلاد وأنها – أي آمال – اضطرت بعد هذا أن تهرب على ظهر جواد !

قالت : هذا غير صحيح ! ولو كانت السلطات الفرنسية هي التي طلبت مني مغادرة البلاد فلماذا أهرب على ظهر جواد ؟ كان يمكنني في هذه الحالة أن أغادر البلاد علناً وبالطريق العادي ما دامت السلطات هي التي طلبت مني ذلك ! .. كلا . الحقيقة هي أن الفرنسيين أرادوا ان يقبضوا عليّ ولهذا هربت ..

تهرب متنكرة في زي عبد !

وتطوع الأمير فاعور « بتهريبي » من سوريا ومرافقتي بنفسه إلى حدود فلسطين ..

وتنكرت في زي عبد من عبيد الامير ! وطليت وجهي ويدي بدهان أسود اللون .. ولبست ملابس العبيد الذين في خدمة أمراء العرب . ولففت رأسي وشعري بالكوفية والعقال وركبت جواداً وسرت وراء جواد الأمير فاعور !

وكانت رحلة شاقة طويلة ومتعبة فقد اضطر الامير أن يسلك في بعض أجزاء الطريق طرقاً ودروباً غير مألوفة ولا معروفة عند حراس الحدود !.. ولقد مررنا – بين آونة وأخرى – ببعض الاستحكامات التي اقامها الفرنسيون .. ولم أنس مهمتي فاجتهدت أن أسجل في ذاكرتي كل ما تقع عليه عيناي من تجمعات للجند .. وأوكار المدافع .. وجسور أو كباري انشئت هنا وهناك في بعض الممرات بين الجبال .. والحصون الصغيرة ومخازن الذخيرة الى آخره ..

قالت : وأنا أحب ركوب الخيل .. ولكن للرياضة ! ولكني عمري ما ظننت أنني سأكره الجياد وركوب الجياد الى هذه الدرجة .

وعندما عبرت أخيراً الحدود ، ودخلت فلسطين كنت أحس ان وسطي

انقطم ! بعد أن أمضيت على ظهر الجواد ليلة وبعض يوم !

وودعت الامير فاعور وشكرته ..

وفي مساء اليوم التالي كنت في القدس .. ودخلت فندق الملك داود !

وكم كانت دهشة موظفي الفندق عندما طلبت منهم أن يقودوني الى الجناح الذي كنت أقيم فيه !

ذلك لأني دخلت الفندق وأنا كما أنا .. أي سوداء الوجه في زي العبيد !

وبعد أن اغتسلت وأبدلت ثيابي أرسلت في طلب كومودور باص .

ورويت له كل ما فعلته في سوريا . ونتيجة أحاديثي ومقابلاتي مع الامير حسن الاطرش وزعماء الجبل والبادية .. ثم قصصت عليه تفاصيل هربي وذكرت له ما لاحظته طول الطريق وسجلته ذاكرتي عن الحصون التي شيدها الفرنسيون على قمم بعض الجبال .. الى آخر ما ذكرته لك ..

وسر الرجل جداً وضمني الى صدره وهو يقول :

ـ مرحى ! أحسنت صنعاً يا بنيتي !

زواجها بالأمير حسن الاطرش

وبعد ذلك ببضعة أيام تحرك جيش الحلفاء وتخطى حدود فلسطين الى سوريا ولبنان .. والباقي تعرفه مما نشرته الصحف ومن برقياتي . فقد عدت في أعقاب جيش الحلفاء الى دمشق .

وسكتت قليلاً قبل أن تقول :

ـ وأرسلت لك برقيات عن رغبة الامير حسن في أن أعود زوجة له .. ونصحتني أنت بالقبول ..

قلت : نعم وحسناً ما فعلت !

قالت : على كل حال كان الاحتفال بزواجنا فخماً جداً .. وأعطاني الامير حسن يومها ألفي جنيه ..

وضحكت أنا وقلت : ثم أخذت منه الفي جنيه أخرى !
ابتسمت رحمها الله وقالت :
— نعم . وهل كثير أن يكون مهري أربعة آلاف جنيه !

أسراف وسوء تدبير ...

وهنا عادت السيدة امينة البارودي من طوافها بالمحال التجارية ومعها سيدة نهضت آمال وقبلتها وقدمتني اليها !
وقالت السيدة أنها تعرفني — من قبل أن تراني — لكثرة ما سمعته عني من آمال
والسيدة واسمها « شفيقة » هي ارملة المرحوم فخري بك النشاشيبي وقد قتل بعد ذلك بنحو شهر واحد في أحد شوارع بغداد اثناء زيارة له لعاصمة العراق . وقيل أن القاتل من أتباع سماحة مفتي فلسطين ، لأن فخري النشاشيبي كان من الد خصوم المفتي كما أنه كان متهماً بأنه من اصدقاء الانجليز ومؤيدي السياسة البريطانية في فلسطين .
وقالت السيدة شفيقة ونحن حول مائدة الغداء موجهة سؤالها الي :
— هل نصحتها ؟
قلت : فيم ؟
قالت : سمعت منها أن « عيبك » الكبير في نظرها هو إسرافك في نصحها .. ولكن عمرها ما كانت في حاجة للنصح كما هي الآن ..
قلت : أنصحها في ماذا ؟
قالت : في إسرافها الجنوني .. كأنما المال يحرق راحتيها فهي تريد الخلاص منه بأسرع ما يكون !
وهنا قالت اسمهان :
— لم يحدثني في شيء غير هذا مذ حضر !
قالت شفيقة : وهل حدثته أنت عن لعبك القمار في بيروت ؟

ثم التفتت اليّ تقول قبل أن تتمكن اسمهان من اسكاتها :

– لقد التف حولها في بيروت بعض السيدات (وذكرت أسماءهن وهن من سيدات وآنسات أكبر الأسر اللبنانية الشهيرة العريقة) يتملقنها ويدعونها لسهراتهن وحفلاتهن ويحطنها بمظاهر الاجلال والاكرام !.. والمجنونة تظن أن هذا كله حباً في سواد عينيها وما هو إلا طمع في مالها لأنهن علمنها لعب البوكر – وهي لا تفهم شيئاً ولن تفهم شيئاً في لعب البوكر – والنتيجة هي أنهن يربحن منها في كل سهرة مئات الجنيهات.. فهل يعجبك هذا الحال؟

قلت : طبعاً لا . ولكن لعله يعجبها هي !

ومضت السيدة شفيقة – واسمهان ساكتة لا تجيب – مضت تقص عليّ تفاصيل تصرفات لها تدل على الغفلة وسوء التدبير ، ومنها مثلاً أن « صحفياً » خدعها وأوهمها أن عنده مشروعاً صحفياً ناجحاً لاصدار جريدة يومية رأس مالها ألفان من الجنيهات فهل تشترك معه بنسبة النصف في مشروعه الناجح المذكور

ودفعت له أسمهان الف جنيه ..

وصدرت الجريدة .. ثم احتجبت بعد اسبوعين اثنين !

الى آخره . الى آخره ..

لا عجب إذن وهذا حالها إذا كانت أنفقت خمسة عشر الف جنيه في خمسة شهور !!

واخيراً تكلمت اسمهان فقالت أنها ليست « مغفلة » كما نظن بل هي تفهم وتدرك كل شيء ولكن !..

وهزت كتفيها وقالت : يعني !

و « يعني » لفظ أو تعبير لبناني ممكن ان تعنى به كل شيء أي شيء ولا شيء

ولعلها أرادت منه هنا أن تقول : (أنا أعرف أنهم يضحكون عليّ ويبتزون مالي ولكن ماذا يهم ما دمت أجد في هذا تسلية لي !)

ثم مضت اسمهان تقول أن كثيرين من وجهاء القوم وكبار التجار يقصدونها لكي تتوسط لهم في مسائل معينة عند السلطات الانجليزية أو الفرنسية وخصوصاً

عند الجنرال كاترو الذي يحبها كأبنته ويعطف عليها كثيراً .. ويعدونها بأنهم سوف يدفعون لها مبلغ كذا أو يقدمون لها هدية كيت إذا نجحت وساطتها ..

قالت : وكثيراً ما نجحت وساطتي في المسائل التي كلفوني بها وجنوا هم منها أرباحاً طائلة ولكن قليلين جداً منهم هم الذين وفوا بوعدهم لي ..

.. وأن تاجراً ومالياً كبيراً معروفاً في لبنان ومصر وأنا أغفل هنا ذكر أسمه وكان صاحب ومدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير وقد ورد أسمه في الكتاب الأسود الذي نشره (مكرم عبيد باشا) تقرب اليها هو والسيدة زوجته . بل وجعلت زوجته من نفسها أشبه بوصيفة للاميرة آمال الاطرش تتولى عنها استقبال ضيوفها وتنظم لها حفلاتها وتلازمها في غدوها ورواحها ..

وأخيراً فاتحها التاجر المالي الكبير في موضوع تكوين شركة بينها وبينه برأس مال قدره مائة الف جنيه .. على أن لا تدفع هي شيئاً ما لأنه سيتولى هو عنها دفع نصيبها في رأس المال ! وطلب منها في مقابل هذا أن تتوسط له عند الجنرال كاترو في مسائل معينة .. وهي مسائل تجارية بحتة ذات قيمة مالية كبيرة .

قالت : ولم يخطر ببالي وقد رأيت من آيات صداقته وصداقة زوجته لي ما رأيت أنه يضحك عليّ . وتوسطت فعلاً له عند كاترو وقضيت له حاجته .

ثم ابتسمت وهي تقول :

— ولكنه لم يكتب عقد الشركة حتى اليوم ! بل انقطع هو والسيدة زوجته عن زيارتي !

الاميرة آمال الاطرش ؟

وفي المساء أقامت اسمهان أو الاميرة آمال الاطرش حفلة استقبال في الصالون الكبير الملحق « بجناحها الملكي ! » في فندق الملك داود .

وكان بين المدعوين بعض كبار الضباط البريطانيين والاعيان وقناصل

الدول الاجنبية في القدس ومعهم السيدات قريناتهم .
ورأيت الاسراف الذي ما بعده إسراف في الطعام والشراب .
وقدمتني هي الى مدعويها على أنني (صديق عزيز من مصر) .
ولكنني آثرت أن أنزوي في أحد أركان الصالون وأتفرج وابتسم بيني وبين نفسي !
هذا هو الجو الذي تحبه اسمهان .. جو الفخفخة حتى ولو كان مزيفاً لا صدق فيه !
الجميع ينادونها بلقب « برنسس » ويعاملونها على أنها أميرة .. وهي تتحرك بينهم وتتحدث الى هذا وذاك .. ثم تنتقل وتشمل بعطفها هذا وذاك !
تماماً كما تتصرف أية أميرة في مثل هذه الحفلة !
وقبيل منتصف الليل نهضت الاميرة آمال الاطرش واقفة ايذاناً بانتهاء السهرة !! وايذاناً لضيوفها بالانصراف .
ونهض المدعوون والمدعوات . وأقبلوا يستأذنونها في الانصراف ويشكرونها .. الى آخره !
تماماً كما يحدث في أي بلاط صغير !!
هذا هو الجو الذي كانت تتنفس فيه آمال الاطرش ملء رئتيها وتحب أن تعيش دائماً فيه .. المسكينة !
ولا عجب إذا كانت جملة حسابها الاسبوعي أو « فاتورة » فندق الملك داود وحدها كانت لا تنقص عن أربعمائة جنيه ..
أربعمائة جنيه في الأسبوع الواحد وللفندق فقط ؟!

* * *

وأقمت في القدس خمسة أيام تحدثنا فيها كثيراً. وقلت لها في صباح اليوم الخامس انني سأعود غداً الى مصر ...
قالت : وأنا أيضاً سأعود الى بيروت . ولكن هل سبق لك أن زرت تل أبيب

قلت : كلا ..

قالت : لا يليق إذن أن تغادر فلسطين قبل أن ترى تل‌أبيب . كما أنني أريد أن اشتري من هناك بعض الاشياء .

ولما كنت سأعود الى مصر بالقطار من محطة اللد وهي قريبة جداً من تل‌أبيب فقد اتفقنا على أن نمضي غداً الى تل‌ابيب ونمضي بقية النهار والليلة فيها .. وأن أستقل القطار في الصباح الى مصر .. وأن تترك هي للسيدة امينة البارودي مهمة إعداد الحقائب على أن تلحق بها في تل‌ابيب بالسيارة ومن هناك – وبعد سفري – تسافران الى بيروت عن طريق حيفا والناقورة .

* * *

وذهبنا الى تل‌ابيب .

والأثر الذي تركته هذه المدينة في نفسي هو أنها أشبه بالمدن التي تشيدها ستوديوهات السينما في هوليوود ليلتقطوا فيها حوادث فيلم سينمائي معين فاذا ما انتهوا من التقاط المناظر .. هدموا المدينة وما فيها !

أي أنها مدينة ولكنها لا توحي الى النفس بشعور الثبات والاستقرار !

ونزلنا في فندق « جات ريمون » الذي اختطفت منه ذات مرة عصابة « ارجون زفاي ليومي » بعض الضباط البريطانيين .

وقضينا السهرة في مقهى يقع تحت الفندق المذكور على شاطىء البحر .

وأقبل رئيس خدم المقهى يحيي « الاميرة » باحترام كبير ويمشي بين يديها الى المائدة المحجوزة خصيصاً لها .

ولعل احترام الرجل لم يكن لها ولا للقب الامارة بقدر ما كان لسخائها المفرط في البقشيش ! فقد طلبت آمال من رئيس أوركسترا المقهى أن يعزف قطعة معينة .. ولبى الرجل طلبها .

ونفحته « الاميرة » عشرة جنيهات !

* * *

وفي الصباح وضعت حقيبتي في سيارة التاكسي التي كانت ستحملني الى محطة اللد ..

ووقفت آمال تودعني وقالت :

– هل تذكر تاريخ مولدي ؟

قلت : في شهر نوفمبر أليس كذلك ؟

وكنا يومها ٣١ اكتوبر .

قالت : نعم – ٢٥ نوفمبر – . وأنتظر منك أن تمضيه معي في القدس . هل تعدني أو أضطر لإجراء عملية جراحية اخرى لكي تحضر ؟

قلت : أعدك .. ولا داعي للعمليات الجراحية !

* * *

ووصلت الى القاهرة عند منتصف الليل ووجدت برقية رقيقة منها تذكرني فيها بوعدي أن أحتفل معها بعيد مولدها القادم !

١٠

لماذا تخلى عنها الأنجليز..؟

صحفي أميركي جاسوس لألمانيا

عدت الى مصر وأنا أعلم أن اسمهان أو الاميرة آمال الاطرش لم تقل لي كل شيء ! وهذه نتيجة وصلت اليها مما سمعته منها نفسها . وكذلك مما سمعته في القدس من بعض موظفي قنصلية مصر اومن قابلتهم هنا وهناك .

لقد قصّت عليّ ما جرى لها مذ غادرت مصر وتفاصيل المهمة أو الخدمة التي أدتها للانجليز . هذا صحيح .

ولقد قصّت عليّ بين ما قصت « نتائج » . ولكنها وقفت عند ذكر النتائج .. ولم تذكر الاسباب ! ومن ذلك مثلاً قولها (ان الانجليز بدأوا يمسكون يدهم في الاسابيع الاخيرة) !

لماذا تمسك السلطات الانجليزية يدها ؟ ولماذا أصبح الانجليز اليوم شحيحين بالأموال التي كانوا يغدقونها عليها من قبل ؟

هذه نتيجة ! ولكن ما هي الاسباب التي أدت الى هذة النتيجة ؟

هذا ما اخفته عني اسمهان ! ولقد اخفته حتى لا تسمع مني كلمات التوبيخ والعتاب وهي التي شكت لصديقتها السيدة شفيقة (من إسرافي في النصح والارشاد)

* * *

عندما قابلتها في القدس في شهر اكتوبر ١٩٤١ كان نفوذها عند السلطات البريطانية قد تقلص أو هبط كثيراً عن ذي قبل . وكانت العلاقات بين هذه السلطات وبين « الاميرة » آمال الاطرش « تسير من سيىء الى أسوأ ويمكن تلخيص الأسباب فيما يلي من الحديث ..

أن السلطات البريطانية أو بعبارة أدق — قلم المخابرات البريطاني — يطلب أو يفرض على الذين يعملون معه الكياسة والحذر في العمل والكتمان والولاء . وهو بعد هذا يجزل لهم أو لهن في العطاء !

ولقد دلت آمال الاطرش بتصرفاتها في الشهور الاخيرة على أن صفة واحدة أو شرطاً واحداً من هذه الشروط غير متوفر لها .

لم يكن مثلاً من الكياسة ولا من مقتضيات الحذر هذا الاسراف الذي ما بعده إسراف .. وهذه الولائم وهذه الحفلات ! إذ كان طبيعياً ان يتساءل الناس من أين لها كل هذه الأموال التي تنفقها بغير حساب ؟

ولم يكن سؤال الناس ليبقى طويلاً بدون جواب !

وإذن فان اسمهان قد كشفت بهذا التصرف عن حقيقة علاقاتها بالبريطانيين أو بقلم مخابراتهم السرية ..

وعندما انكشفت حقيقة هذه العلاقات فقدت اسمهان كثيراً من « قيمتها » لدى البريطانيين لأنهم قدروا أنه سوف يستحيل عليها بعد ذلك أن تؤدي بنجاح أية مهمة يمكن أن يعهدوا بها اليها !

هذه واحدة ..

والثانية إسرافها في الشراب ، وما جره إسرافها في الشراب !

ان لسان آمال الاطرش لم يكن في يوم ما باللسان الحذر الكتوم . وكما

سبق أن قلت لم يكن في مقدورها أن تبقي طويلاً أي سر مكتوم في صدرها !
فاذا قدرنا الشراب وتأثير الشراب في اطلاق عقدة اللسان أمكننا أن ندرك بغير عناء أن كافة أسرار قلم المخابرات البريطاني التي وقعت عليها اسمهان .. أصبحت معروفة تتداولها الالسنة في دمشق والقدس وبيروت !

جنرال انكليزي يقع في هوى اسمهان

والثالثة أن قائداً بريطانياً برتبة « جنرال » وأكتم أسمه لأنه لا يزال على قيد الحياة وقد يرفع عليّ دعوى تعويض وليس هناك تحت يدي دليل أثبت به صدق ما أقول لأن هذا الدليل لا يوجد الا تحت يد قلم المخابرات البريطاني .. هذا الجنرال وارمز اليه بحرفي (ا. س.) أحب آمال الاطرش وترك مقر قيادته في سوريا وراح يتبعها أشبه بظلها هنا وهناك !
ثم عرض عليها أن تتطلق من زوجها وأن يطلق هو زوجته الموجودة في انجلترا .. لكي يتزوجها !
ولكنها رفضت !
ومرض الجنرال المذكور وكان يومئذ في بلودان المصيف السوري المعروف .
وذهبت آمال تعوده في مرضه .. رحمة به كما قالت وهي تروي لي حكايته معها .
وناولها الجنرال المريض خطاباً رسمياً كان تلقاه يومها ..
وقرأت آمال الخطاب .
وكان الخطاب يحمل أمراً للجنرال بالعودة حالاً الى انجلترا ..
أي أنه كان أمراً باعفائه من مهام منصبه أو قيادته في سوريا !
وقال لها الجنرال : هذا من صنع باص !
وباص أو كومودور باص هو رجل قلم المخابرات السرية الذي كان أول من قابلها يوم وصولها الى القدس قادمة من مصر في ٢٦ مايو وأعطاها

تعليماتها والالف جنيه الاولى !

وتقول اسمهان أن باص المذكور على قدر ما أحبها وأعجب بها في أول الأمر بقدر ما حقد عليها بعدئذ حتى أنه كان يكفي أن يلقاها أو يراها في حفلة ما لكي يصفر وجهه ويمتقع ..

وتفسر هذا كله بأنه (رجل صفراوي وممعود !) أي أنه يشكو من أمراض المعدة !

ويظهر أن كومودور باص خشي مغبة غرام الجنرال (ا. س.) وما قد يجره وراءه والنتائج المحتملة ومنها مثلاً سوء العلاقات بين السلطات البريطانية في سوريا والامير حسن الاطرش ولذلك أسرع بالكتابة الى رؤسائه وهؤلاء كتبوا بدورهم الى وزارة الحربية في لندن .

ومن هنا كان الأمر باستدعاء الجنرال الى انجلترا ..

تريد السفر الى انقره لتقابل فون بابن

وأصل إلى السبب الرابع وهو أخطرها جميعاً . ومن رحمة الله باسمهان أن السلطات البريطانية لم تحاكمها .. ولعل السبب هو أن هذه السلطات لم يكن تحت يدها دليل إثبات . أو لعلها احجمت عن محاكمة اميرة جبل الدروز وزوجة الزعيم الدرزي القوي وابنة اسرة الطرشان ذات البأس والنفوذ !

وأعود الآن بالقراء الى الصحفي الامريكي « ف. » الذي كان قابل آمال الاطرش يوم سفرها من مصر بقطار فلسطين .

ويحسن بي هنا أن أنبه القراء الى أن امريكا لم تكن قد دخلت الحرب بعد . لأن اليابان لم تهاجم الأسطول الامريكي في ميناء « بيرل هاربور » إلاّ في شهر ديسمبر عام ١٩٤١ بينما حادث الصحفي الأمريكي المذكور مع اسمهان وقع بين يوليه وسبتمبر من العام المذكور أي قبل دخول امريكا الحرب ببضعة شهور .

كانت امريكا معدودة يومئذ على الحياد . وكان لرعاياها وصحفييها حق التنقل وزيارة بلدان الدول المتحاربة .. ودول الحلفاء ودول المحور وكذلك الدول الواقعة تحت نفوذ الطرفين .

وكان الصحفي ف. المذكور من أنصار المحور . ومن المؤمنين بأن النصر سيكون حتماً للمحور . أو على الأقل هذا ما قاله واكده مراراً لاسمهان ..

وروت لي القصة في صالونها بفندق الملك داود .. قالت :

– وكنت ألقى مستر ف. هذا في دمشق وفي بيروت . وفي مصايف الجبل كنت القاه في المطاعم والمنتديات والحفلات . وكان يسرع الي يحييني ويجاذبني أطراف الحديث . وكان يجعلني دائماً أشعر بأنه عليم بحركاتي وخطواتي وأنه يتتبع نشاطي باهتمام ! وكان في الوقت نفسه يبدي عجابه بما يسميه إخلاصي لبلادي .. ثم يعقب قائلاً : إنه إخلاص لا فائدة منه لأنه مبني على سوء فهم للواقع وسوء تقدير !

وكان هتلر قد انتهى من أوروبا واخضعها تحت قدميه .. واتجه شرقاً . وبدأ غزو روسيا ، وكانت الاخبار تتوالى في كل يوم عن انتصارات الجيوش الالمانية وعن اندحار الجيش الأحمر وكيف كانت مدن روسيا تسقط أمام زحف الألمان كما تسقط أوراق الشجر في الخريف .

ثم أصبح الألمان على أبواب موسكو ولننجراد . بينما تسربوا في الجنوب الى القوقاز .

ومتى انتهوا من القوقاز – هكذا اكد لي مستر ف. – فانهم سوف ينحدرون منه الى ايران والعراق وسوريا ولبنان .

وكان ف. كلما لقيني يسألني بابتسامة المشفق :

– هل ما زلت تعتقدين أن النصر للحلفاء ؟!

قالت اسمهان : ولم تكن أقوال ف. وحدها هي السبب في أنني بدأت أشك في أن النصر للحلفاء لأن معظم من كنت ألقاهم من ساسة وزعماء في سوريا ولبنان كانوا يبدون شكوكهم هم أيضاً في مقدرة الحلفاء على

انتزاع النصر من المانيا بعد الذي لمسوه من قوة الجيوش الالمانية اثناء غزوها لروسيا .. بل إن ما سمعته من راندولف تشرشل نفسه (ابن ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ) اثناء احدى زياراتي للقدس لم يكن بالذي يطمئن أو يوحي بالثقة في النصر ! فقد قال أمامي مرة (يستطيع هتلر أن يكتسح أوروبا وآسيا وأفريقيا ولكنه لن يستطيع أن يغزو امريكا ونحن مستعدون للانتقال الى كندا ومواصلة الحرب من هناك إذا لزم الحال) .

وهكذا بدأت أراجع نفسي ! هل أحسنت صنعاً أو تراني قد ورطت أهلي وعشيرتي في اتخاذ موقف قد يصيبهم منه اذى كبير إذا هبط الالمان سوريا ولبنان ؟!

وذات يوم كلمني مستر ف. بالتليفون في الفندق – وكنت في بيروت – وسألني هل يستطيع أن يلقاني هذا المساء ليتحدث اليّ في أمر هام ؟

ووافقت .. ولقيته في المساء . وجلسنا نتحدث أو بعبارة أصح جلس يتحدث . وكان صريحاً غاية الصراحة .

قال أنه صديق لالمانيا لأنه يؤمن برسالتها وبأن الشعب الالماني هو الشعب الموهوب الصالح لقيادة العالم .. وأنه يؤمن ايماناً لا يتطرق اليه أقل شك بأن النصر لالمانيا .

ثم قال ان مصلحة سوريا ولبنان لا تهمه في كثير ولا في قليل . وأنه سيان عنده إذا ديست سوريا ولبنان بالاقدام ! ولكن مصلحة المانيا – وهو لا ينكر أنه يعمل لها – تقتضي منه ان يحشد لخدمتها ومساعدتها كل القوى الممكنة .. ولولا هذا لما كان اهتم مثقال ذرة بما قد يقع لسوريا ولبنان .

ومضى يقول أنه لن يمضي وقت طويل حتى تطبق الكماشة على هذه الرقعة من الشرق الاوسط . وتقبل جيوش المحور من صحراء مصر عبر فلسطين . وتنحدر من جبال القوقاز عبر ايران والعراق . والجيوش التي استطاعت أن تكتسح أمامها الجيش الاحمر لن تبالي كثيراً بأية مقاومة

تلقاها في هذا الشرق الاوسط بل سوف تسحقها بلا رحمة ولكن الجيش الالماني يفضل كثيراً أن يدخل هذه البلدان كصديق .. وهو — مستر ف. — يعلم علم اليقين أن عواطف سواد الشعب هنا مع المانيا . وأن الذين يمالئون الحلفاء هم حفنة قليلة من الزعماء والحاكمين .. الى آخره .

ثم قال :

— لقد استطعت أن تقنعي زعماء الدروز وأمراء البادية بأن ينقلوا ولاءهم لحكومة فيشي الى الحلفاء . ولاشك عندي انك فعلت هذا عن حسن نية واعتقاداً منك بأن النصر للحلفاء وأنك انما تخدمين بلادك بهذا العمل . ولكن أما وقد ثبت لديك الآن أن النصر هو حتماً لالمانيا فلا أقل من أن تحاولي إصلاح ما أفسدت . وأن تنقذي بلدك وعشيرتك قبل فوات الوقت وذلك بأن تقنعيهم بأن يتخذوا — متى حانت الساعة — الموقف الوحيد الذي تفرضه عليهم مصلحتهم ومصلحة بلدهم .

ومضى يقول أن الانجليز كما يدل تاريخهم قوم ناكرون للجميل ! أما المانيا فإنها تعرف دائماً كيف تكافىء اصدقاءها بسخاء .. وانني سوف ألمس هذا السخاء إذا زرت انقرة ..

قالت اسمهان :

— وهنا سألت مستر ف. هل هو يقترح عليّ أن أسافر الى انقره ؟

قال : ولم لا ؟ إن تركيا بلد محايد . ويمكنك أن تزوري أنقره واستانبول بحجة إراحة أعصابك المرهقة أو تبديل الهواء ونحن الآن في خير فصول السنة لزيارة العاصمتين ومن السهل عليّ أن أدبر لك مقابلة مع سفير المانيا في انقره . بل أنا مستعد لأن أصحبك في هذه الزيارة إذا لزم الأمر ..

قالت اسمهان :

— وطلبت منه أن يمهلني يومين ريثما أفكر واقلب الأمر على وجوهه . وافترقنا على أن يعود بعد يومين ليعرف رأيي النهائي .

وهنا سألتها :

– ولكن ألم يخش مستر ف. هذا أن تشي به الى سلطات الحلفاء في سوريا ولبنان !

قالت : وأين الدليل على صحة الاتهام .. إذا كنت فعلت ؟.. أقصى ما كان يمكن اتخاذه ضده هو إخراجه من البلاد . ولا تنس أن امريكا لا تزال على الحياد . أي أن عمله هذا لا يعد في نظره خيانة لبلده . ولا هو مما يعاقب عليه القانون في أمريكا .

وكان هذا الحديث كما قلت في شهر اكتوبر أي قبل دخول امريكا الحرب بشهرين .

ومضت آمال الاطرش تقول :

– وعلى كل حال فان فكرة التبليغ عنه لم تخطر ببالي وليس من خلقي أن أشي برجل وثق بي !.. كما أن كلامه أثر فيّ كثيراً فقد كانت حجته قوية تؤيدها شواهد الحال . ولهذا لم يطل ترددي وقررت أن أسافر الى أنقره ..!

* * *

وأود أن أقف هنا قليلاً لأقول أنني خرجت من هذا الحديث الطويل بأن اسمهان كانت – ولو عن غير قصد منها – أشبه بمن يدافع عن نفسه ويحاول أن يبرر تصرفاً يشعر في قرارة نفسه وفي مكنون ضميره أنه غير سليم ولكنه يحاول مع ذلك أن يقنع نفسه أو يخدع نفسه بأن تصرفه لاغبار عليه !

والسؤال الآن هو : هل قبلت اسمهان دعوة هذا الصحفي الامريكي – هذا الوكيل من وكلاء المحور – لزيارة انقره ومقابلة السفير فون بابن بحافز الوطنية ليس إلاّ ؟.. وبدافع الرغبة في (إصلاح ما أفسدته) كما قال لها مستر ف. وحتى لا تترك أهلها وعشيرتها يراهنون على الجواد الخاسر .. أي الحلفاء !؟

أو ترى قرارها هذا لم يكن بريئاً تماماً من رغبة الحصول على المال الوفير – والمانيا تكافىء اصدقاءها بسخاء – وخصوصاً بعد أن بدأ الانجليز

يمسكون أيديهم ويضنون عليها بالمال ؟

« هؤلاء الانجليز الذين يدل تاريخهم على أنهم قوم ناكرون للجميل » ! كما قال لها مستر ف.

هذا هو السؤال .

ويجب القول أن مستر ف. عرف كيف يعرض قضيته بمهارة ولباقة . وعرف كيف ينتظر حتى تحين الفرصة المواتية أو الظرف النفساني المواتي .

إن آمال الاطرش كانت ظمأى للترف والبذخ . وحياة الكبت التي عانتها كانت قد هيأتها للانفجار !

ولقد هيأ لها الانجليز أسباب هذه الحياة. حياة الترف والبذخ والاسراف... حياة الولائم والحفلات ..

ثم أمسكوا أو قبضوا أيديهم .. وأحست هي أنها توشك أن تحرم من هذه « المظاهر » التي هي – عندها – ملح الحياة ، بل التي تجعل الحياة تستحق الحياة !

ألهذا اختل توازنها وخفت صوت الضمير والوجدان ؟ ولم ترَ اسمهان بأساً من أن تنقل ولاءها من معسكر الى معسكر ومن اليمين الى اليسار ؟

ام أن مصلحة قومها وبلادها هي وحدها التي أوحت اليها اتخاذ هذا القرار ؟

أنا شخصياً أعتقد أن قرارها كان بوحي الرغبتين . الرغبة في (إصلاح ما افسدته) كما أقنعها مستر ف. وخدمة قومها، والرغبة كذلك في خدمة نفسها !

تسافر ولكنهم ينزلونها من القطار

وأعود الى سياق الحديث .

قالت اسمهان :

– قررت اذن أن أقبل دعوة مستر ف. وأسافر الى انقره . ولم أجد أية صعوبة في الحصول على « فيزا » بزيارة تركيا . كما أن تأشيرة الاذن

لي بمغادرة البلاد والسفر الى تركيا لم تستغرق سوى يومين اثنين. ولما سألني الجنرال كاترو عن سبب سفري الى تركيا أجبت بأني متعبة وأود تبديل الهواء وأن غيبتي لن تطول أكثر من عشرة أيام .

واعددت كل شيء للسفر . وفي اليوم الذي كنت سأركب فيه القطار أرسلت اليك برقية بأنني سافرت الى انقره .. الى هذا الحد كنت واثقة من سفري ومطمئنة الى كل شيء .

وقلت أنا : وأرسلت اليك برقية كما طلبت بعنوان فندق أنقره بلاس ولكن البرقية أعيدت إليّ لأن المرسلة اليها — حضرتك — غير موجودة وغير معروفة هناك !

قالت : نعم . والذي حدث أنني ذهبت بالسيارة الى طرابلس ومن طرابلس ركبت قطار طوروس الى حلب .. وغادر القطار فعلاً حلب ... واقترب من الحدود التركية — السورية .. ولكنه وقف !

ودخل عليّ ضابط بريطاني ووراءه جنديان وطلب مني أن أغادر معه القطار . وطبعاً احتججت ولكنه أراني أمراً معه باعادتي — وبالقوة إذا لزم الحال الى بيروت .

وغادرت القطار وكانت هناك سيارة حربية في انتظارنا . وعدنا بالسيارة الى حلب ومنها الى بيروت !

وفي بيروت تركني الضابط أمام باب الفندق وهو يقول : أنتِ الآن حرة !

ولم يقل لي أحد من الانجليز شيئاً ما عن رحلتي هذه ولا لماذا انزلوني من القطار وأعادوني الى بيروت . كذلك لم يذكروا لي كلمة واحدة عن مستر ف.

ولقد ظننت في أول الأمر أن زوجي الأمير حسن — ولم أكن استأذنته في السفر — هو الذي عرف بسفري وطلب من السلطات البريطانية منعي من السفر ، ولكني تأكدت فيما بعد أنه لم يكن قد سمع شيئاً على الاطلاق !

ولكن عندما اختفى مستر ف. بعد ذلك من بيروت أدركت أن الانجليز لا بد أنهم كانوا عرفوا كل شيء ! أما كيف فلا أعرف !

ثم تصادف أنني دعيت بعد ذلك بنحو أسبوع الى حفلة كبيرة أقيمت في صوفر . وكان الجنرال كاترو بين المدعوين ولما حياني داعب أذني بأصابعه وشدها قليلاً وهو يقول :

– أية سخافة أيتها الشقية الصغيرة !

وهنا لم يبق عندي شك في أنهم عرفوا كل شيء !

فرنسا بعد بريطانيا ؟

لم يكن عجيباً بعد هذا أن تتنكر لها السلطات البريطانية وأن تقبض يدها عنها بالمال .

لا هذا فقط بل وأحست اسمهان أن نفوذها لدى السلطات البريطانية قد تقلص وزال . وبعد أن كانت كلمتها هي العليا في كل ما يخص جبل الدروز وبعد أن كان زوجها الأمير حسن وزعماء الدروز يقصدونها ويوسطونها لدى الانجليز .. انقلبت الآية وأصبحت كلمة زوجها هي العليا وكلمتها هي لا شيء !

ولكن السلطات الفرنسية لم تلبث أن مدت يدها لأسمهان !

وذلك أن سلطات فرنسا الحرة أي قوات الجنرال ده جول ادركت اخيراً أن البريطانيين لم يطردوا قوات فيشي من سوريا ولبنان ويقضوا على كل نفوذ وأثر للمحور فيها لكي يعيدوها الى الحكم الفرنسي ... ويضعوهما تحت سلطان الجنرال ده جول !..

ومن هنا نشطت السياسة الفرنسية وبدأت ما يصح أن نسميه سياسة الكر والفر ضد السياسة البريطانية . ومن هذا حشدا الاصدقاء والانصار الذين قد ينفعونها ويخدمون مصالحها عند اللزوم .

ووضع الجنرال كاترو آمال الاطرش تحت رعايته .

واستأجرت لها السلطات الفرنسية داراً مفروشة في الحي السرسقي وهو من أفخم أحياء بيروت . وأقامت اسمهان في دارها الجديدة بدلاً من الفندق .

وكان زوجها الامير حسن الاطرش يشغل يومئذ منصب وزير الدفاع في حكومة سوريا . وأحضرت الاميرة آمال نفراً من الجنود السوريين الشاكي السلاح يحرسون دارها ويقفون بالباب يحيونها عند الدخول وعند الخروج وفي ردهة الدار دفتر لتسجيل اسماء الزائرين !

وهكذا استطاعت اسمهان أن تحتفظ — الى حد ما — بمظاهر الحياة التي تعشقها حياة الابهة والفخفخة . حياة الاميرة صاحبة البلاط الصغير !

وقلت « الى حد ما » لأن فرنسا لم تكن غنية مثل بريطانيا ! ولم يكن في مقدور السلطات الفرنسية ان تعطيها نصف ولا ربع الأموال التي كان يغدقها عليها الانجليز .

وبدأت آمال الاطرش تحس بالحاجة ! والتي انفقت في الخمسة الشهور الماضية خمسةعشرالف جنيه.. أي بمعدل ثلاثة آلاف جنيه في الشهر الواحد ، لم يكن في مقدورها أن تكبح فجأة وبسهولة جماح الترف والبذخ وتعيش في الشهر الواحد بمعدل مائتي أو ثلثمائة جنيه !

وكان هذا حالها يوم لقيتها في القدس في شهر أكتوبر ١٩٤١ .

الأمير حسن يحضر الى مصر ليأخذ ابنته

وكانت آمال سألتني عن ابنتها كاميليا وكيف حالها ؟ وكانت قد تركتها في مصر في رعاية السيدة جدتها اي والدة اسمهان .

واعترفت لها بأنني لم أرَ كاميليا منذ شهر يوليه حينما كنت دعوتها هي وجدتها اي السيدة عالية والدة اسمهان لتمضية بضعة أيام في رأس البر . وقد أقاما في احد الفنادق وتوليت أنا دفع النفقات .

وأوصتني بزيارتها والسؤال عنها .

ولما عدت الى القاهرة زرت السيدة والدة آمال ووجدت الصغيرة كاميليا في أحسن صحة وعافية . وإذا كانت آمال كثيرة الشكوى من

أمها وما كانت تلقاه منها ومن شقيقها فؤاد فان الانصاف يقتضيني أن أقول أن الصغيرة كاميليا كانت تلقى من جدتها كل عناية وكل حب . فقد كانت أم آمال شديدة التعلق حقيقة بحفيدتها الصغيرة .

وفي اليوم التالي لزيارتي هذه كلمتني بالتليفون السيدة عالية والدة آمال وقالت أن الأمير حسن الاطرش حضر الى مصر خصيصاً لكي يأخذ ابنته كاميليا ويعود بها الى جبل الدروز .

وكانت السيدة المسكينة شديدة الاضطراب وصوتها مملوءاً بالدموع . فقد كانت كما قلت تحب حفيدتها الصغيرة حباً شديداً ، ولم يكن من حقها طبعاً ولا في مقدورها أن تمنع الأب من اخذ ابنته .

أما لماذا حضر الامير ليسترد ابنته فذلك لأن زوجته آمال كانت في الاسابيع السابقة تلح عليه بأن يسمح لها بزيارة مصر لرؤية ابنتها . وأراد الرجل أن يقطع حجتها هذه فقرر أن يحضر هو بنفسه ويعود بالابنة الى أمها .

الاميرة آمال الاطرش ممنوعة من مغادرة البلاد !

وعادت السيدة امينة البارودي من بيروت وكلمتني بالتليفون لتقول أن آمال تنتظر أن أفي بوعدي واحتفل معها في القدس بعيد مولدها .

ثم قالت امينة — وكنا يومئذ ١٦ نوفمبر — أنها هي ايضاً سوف تسافر الى القدس لنفس السبب . وأن سفرها سيكون يوم ٢٣ نوفمبر أي بعد أسبوع واحد فهل يوافقني هذا الموعد لكي نسافر معاً ؟

ووافقت . وعرضت على جمال جبر أن يسافر معي وقبل .

وفي يوم الاحد ٢٣ نوفمبر سافر جمال بالطائرة الى القدس .

وسافرنا — أمينة وأنا — بقطار فلسطين .

وكان المفروض أن نجد آمال قد سبقتنا وحضرت قبل ذلك من بيروت . ولكنا عرفنا من أحد الضباط البريطانيين — وقد وصل يومها قادماً من

بيروت ـ أن الاميرة طلبت منه أن يبلغنا أنها لم تستطع الحضور الى القدس في الموعد المتفق عليه لأنها عندما طلبت تأشيرة السماح لها بالسفر الى القدس قيل لها أن زوجها الامير حسن كان قد طلب قبل سفره من السلطات صاحبة الشأن أن لا تسمح لزوجته الاميرة بمغادرة البلاد اثناء غيابه في مصر ..!!

ماذا نعمل ؟ لقد جئنا لنحتفل بعيد مولدها وها هي ذي ممنوعة من السفر فهل نعود الى مصر ؟

كان هذا هو رأيي . ولكن جمال جبر تطوع بالسفر وحده الى بيروت ليستقصي حقيقة الأمر .

واقترح علينا أن ننتظر يوماً آخر حتى يصل هو الى بيروت ثم يرسل الينا برقية من هناك .

وكانت المخابرات الخارجية بالتليفون وقتئذ وبسبب ظروف الحرب ممنوعة على المدنيين ومقصورة على السلطات والشئون العسكرية فقط .

وسافر جمال جبر بالسيارة الى بيروت وأعطيته الهدية التي كنت اشتريتها في القاهرة لأقدمها لآمال بمناسبة عيد مولدها لكي يعطيها إياها .

وفي نفس اليوم تلقت السيدة امينة البارودي برقية من القاهرة بوجوب عودتها حالاً لأن سعيد حسن قدم الى النيابة العمومية شكوى ضدها والنيابة أرسلت تستدعيها لسماع أقوالها .

وكان المرحوم سعيد حسن أحد شركاء الاستاذ احمد سالم في قضيته المعروفة « الحوذات المزيفة » وكانت امينة وقتئذ زوجة لاحمد سالم .

وقررت أمينة أن تسافر غداً . وقررت أنا كذلك أن أعود معها الى مصر .

ولكن آمال استطاعت أن تحصل على إذن من السلطات باستعمال التليفون واتصلت بي في المساء في فندق الملك داود . وقالت ان جمال جبر وصل وأنها سوف تعمل المستحيل لكي تحضر الى القدس . وألحت عليّ بالبقاء وعدم العودة الى مصر الآن .

وسافرت أمينة . وبقيت وحدي في القدس .

فتوى ... الجنرال كاترو

وقضيت يوماً آخر دون أن يصل اليّ خبر ما من آمال أو جمال جبر .

وبعد ظهر اليوم الثاني وقد مللت الوحدة وقررت العودة غداً الى مصر كلمني جمال جبر بالتليفون من حيفا وقال أن آمال استطاعت أن « تفلت » وأنها الآن مع سيدتين فرنسيتين في أحد مقاهي حيفا يتناولن الشاي وأنهم جميعاً ذاهبون الى تل‌أبيب . وطلب مني أن الحق بهم الى هناك في فندق جات ريمون .

سألته : ولماذا تل‌أبيب ؟

قال : ستخبرك هي بالسبب .

* * *

وحملت حقيبتي وركبت سيارة الى تل‌ابيب . ووصلت الى الفندق بعد وصولهم بدقائق .

وقالت آمال أنه لم يخطر ببالها مطلقاً أن زوجها (يجسر) على مثل هذا العمل وهو منعها من مغادرة البلاد اثناء غيابه . وأنها لم تصدق الخبر حين سمعته . ولهذا ذهبت وقابلت الجنرال كاترو لكي تشكو اليه مرؤوسيه ولكنه أبلغها نفس الخبر وهو أن زوجها طلب منهم .. الى آخره .

قالت : وبكيت من شدة الغيظ والكمد كيف تقيد حريتي الى هذا الحد ؟ وكيف تهان كرامتي .. وهل إذا عاد زوجي من مصر وشاء أن يستمر طلبه نافذاً حتى وبعد عودته فهل استمر حبيسة طول العمر داخل سوريا ولبنان ؟ الى آخره .

وأخذ الجنرال كاترو يلاطفها ويهدىء من ثورة غضبها ثم قال :

– لقد وعدت الامير حسن بأن لا أسمح لك بالسفر اثناء غيابه .. اليس كذلك؟

قالت : نعم .

قال : وغيابه هذا سوف ينتهي لحظة يدخل حدود لبنان عند الناقورة ! وأني أعدك بأنني سوف أطلب الى موظفي الحدود أن يبلغوني بالتليفون

لحظة يتخطى الامير حسن الحدود . وهنا أسمح لك بالسفر وأكون حفظت كلمتي لزوجك !

وهكذا كان . فلم يكد الامير حسن يتخطى حدود لبنان حتى خرجت من بيروت سيارة تقل آمال الاطرش وسيدتين صديقتين فرنسيتين والاستاذ جمال جبر

ولقد دعت آمال صديقتيها المذكورتين وأحداهما زوجة قاض فرنسي والاخرى كانت خطيبة أحد رجال الاعمال لكي تقدم سبباً لسفرها إذا سألها زوجها حسن الاطرش فيما بعد لماذا سافرت : هو أن صديقتيها ألحتا عليها بالسفر معهما لقضاء يومين في تل أبيب !

قالت : ولما أصبحنا خارج بيروت ووجهتنا الناقورة وفلسطين خفت أن نقابل في الطريق سيارة الامير حسن فجلست على « أرضية » السيارة حتى لا يراني !

سألتها : ولماذا اخترت تل أبيب ؟

قالت : سوف يعرف الامير حسن في بيروت أنني سافرت الى فلسطين . وسوف يغضب .. وربما لحق بي لكي يعيدني الى جبل الدروز . ولما كان يعرف أنني اقيم في القدس دائماً وفي فندق الملك داود اثناء زياراتي لفلسطين فقد فضلت أن نجتمع في تل أبيب حتى لا نفاجأ بدخول زوجي علينا في فندق الملك داود هكذا ! وهو ما كنت أخشاه.. لقد بدأت آمال تتململ بهذه القيود على حريتها ! حريتها في أن تصنع ما تشاء وتلقى من تشاء . وتسافر متى تشاء وحيث تشاء ! بدأت تتبرم وتضيق ذرعاً بالقيود التي يفرضها الزواج .

١١

لابد من قطع ما بينها وبيني !

تريد الزواج ولكنها تضيق صدراً بقيوده

هكذا ! زوجها يطلب من السلطات أن لا تسمح لها بمغادرة البلاد اثناء غيابه في مصر !

وهذا دليل على عدم الثقة !

وهي من جانبها لا تبالي فتعمل جهدها لكي تنفذ مشيئتها وتسافر وسيان عندها رضي زوجها أم غضب !

وهذا دليل على أنها لم تعد تبالي كثيراً أدام هذا الزواج أم لم يدم !

ثم ها هي ذي تواجه احتمال لحاق زوجها بها بدون اهتمام كبير ! أو بدون خوف كبير !..

وكل الاحتياط الذي اتخذته هو أنها ذهبت الى تل ابيب بدلاً من القدس !

ولكن ماذا يكون الموقف إذا لحق بها زوجها فعلاً ؟.. ولم يجدها في القدس .. فانطلق وراءها الى تل ابيب ؟!

ماذا يكون الموقف ؟

وماذا يكون موقفي أنا بالذات ؟!

وإذا سألني من أنت ؟ فماذا أقول ؟

وماذا تفعل هنا ؟ فماذا أقول ؟

ولكي أواجه مثل هذا الموقف كان يجب أن أكون اكثر جرأة بل واكثر صفاقة واستهتاراً مما أراد الله لي أن أكون !

ولا يحدثني أحد عن الشجاعة — ولي نصيبي منها والحمد لله ! — ولكن الشجاعة تنقلب الى صفاقة إذا وقفت وأنا غير ذي حق أمام صاحب الحق !.. أمام الزوج الذي له كافة الحقوق !

وبعد هذا وذاك .. الى أين المصير وأين المستقر ؟ وهل تظل هذه المسكينة هذه « البوهيمية » شقية أبداً بهذه الحمى ؟ حمى القلق ، والتبديل والتغيير وعدم الاستقرار !

* * *

يا طالما تمنت الزواج ! ويا طالما تمنت بل وبكت لكي تعود الى زوجها الاول حسن الاطرش ! ولكن ها هي ذي ولما يمض على زواجها أو عودتها الى زوجها الاول شهور قلائل حتى بدأت تضيق صدراً وتتبرم بالقيود التي يفرضها عليها الزواج !

إن آمال كانت حريصة حقيقة على أن يكون لها زوج !. لا لتتنزل على احكام الزوجية وما تفرضه عليها من طاعة واستقرار . كلا . وإنما لكي تدرأ بزواجها سوء القيل والقال وتقطع ألسنة الاشاعات .

ولكنها كانت في نفس الوقت حريصة على حريتها في أن تفعل ما تشاء وتسافر متى تشاء وانى تشاء ، وأن تلقى من تشاء .

فاذا تعارضت فروض الزواج مع حريتها هذه تململت وتبرمت وضاقت ذرعاً بالزواج .

لم تكن الطاعة ولا كان الهدوء والاستقرار من طبيعتها .. وهذه كلها

من أركان الزواج الذي يرجى له النجاح !

* * *

ولعل شيئاً من هذا الذي كان يدور في رأسي بدا على وجهي أو في عيني لأنها التفتت الي اثناء السهرة تسألني .. فيم تفكر ؟ وما بالك ساكت واجم على غير عادتك ؟

قلت : لأن أمرك لا يعجبني !

ضحكت وقالت : قل شيئاً جديداً ! وإلا متى أعجبك شيء من أمري !

ولما سكت أنا قالت شيئاً في معنى أنه يحسن بي أن أحاول الآن نسيان كل شيء .. ولنا الساعة التي نحن فيها !

وكانت هذه فلسفتها في الحياة ! ولكن ليس من السهل دائماً وفي كل الظروف أن ينسى الواحد منا كل شيء وأن لا يذكر سوى الساعة التي هو فيها !

واعترف أنني بدأت في تلك الساعة أراجع نفسي في أمر هذه العلاقة وهذه الصداقة التي كانت تربط بيني وبين أسمهان .

بدأت افكر في قطع ما بيننا !

وهل يمكن أن يكون في هذه العلاقة ما يشجعها أو يغريها بالمضي في هذه السبل !. وهلا يكون من الصواب ومن الخير لها ولي أن أضع حداً لهذا كله وأن أقطع ما بينها وبيني ؟

وبعد ! ما الفائدة لها أو لي ؟ وأين النهاية ؟ بل هل كان محتملاً أو ممكناً أن تكون هناك نهاية ترجى أو تنتظر ؟!

إنها متزوجة . وهي في بلد . وأنا في بلد . فلماذا المضي في هذه الصداقة وما النتيجة اللهم إلا أن تكون الحيرة وعدم الاستقرار ؟!

ولا أخدع نفسي فأقول أن وجودي بجانبها كان ينفعها أو أن نصائحي كانت تثمر معها .

كلا . لا شيء من هذا . فقد كانت الحمى قد ركبتها تماماً . وكانت هي ركبت رأسها لا تبالي بأحد ولا تصغي لأحد . وكل مناها أن تروي ظمأها للحياة وأن تفعل كل ما تشتهي وكل ما تريد !

وكل نصيحة كانت تذهب دخاناً في الهواء !

* * *

وفي الصباح خرجنا نتجول في شوارع تل‌ابيب .

وفي أحد الشوارع قابلنا بعض شباب العرب من أبناء وجهاء يافا والضيعات القريبة .

وعرفوا آمال وأقبلوا يحيونها وقدمتني هي اليهم ..

وقال أحدهم أن عمه السيد زهدي أبو الجبين يقيم في هذا المساء حفلة ساهرة كبرى في داره وأن عمه سوف يسره بكل تأكيد حين يعلم بوجود الاميرة في تل‌أبيب أن يدعوها ويدعو الاستاذ — أي أنا ! — الى هذه الحفلة !

وقالت هي أنه يسرها أن تلبي الدعوة .

وفي المساء زارنا في الفندق ابن السيد زهدي ابو الجبين أو ابن أخيه — لا أذكر — ومعه شابان من ابناء أعيان يافا .

وقدم دعوة من زهدي أبو الجبين للاميرة آمال الاطرش .

ودعوة أخرى باسمي ؟

وأردت أنا أن أعتذر من عدم تلبية الدعوة ولكن آمال ألحت عليّ أن أصحبها وكانت حجتها أنها وعدت بتلبية الدعوة ولا يليق أن تذهب سيدة وحدها الى حفلة ما ! .

وكانت حفلة كبيرة اقيمت في دار انيقة يحيط بها بستان كبير

وكانت قاعات الدار عندما دخلناها مزدحمة بالسيدات والمدعوات والسادة المدعوين .

وكانت الكثرة من وجهاء أعيان يافا العرب ومعهم قريناتهم والآنسات بناتهم وهن فتيات مثقفات يجدن الحديث باللغة الانجليزية ويتبعن أخبار العالم — ومصر خصوصاً — بعناية واهتمام .

وكان هناك كذلك عدد من كبار الموظفين والضباط البريطانيين .

وقدمتني آمال لصاحب الحفلة السيد أبو الجبين . وقدمني هو لبعض المدعوين ممن كانوا وقوفاً بالقرب منا .

وكم كانت دهشتي وسروري معاً — وهو يقدمني لحاكم منطقة يافا — أن أرى أمامي مستر كروسبي استاذي القديم في اللغة الانجليزية في المدرسة العباسية الثانوية .

من التدريس الى الادارة ؟ ومن وظيفة مدرس الى منصب حاكم ! ولكن الانجليز يعتقدون أنهم يصلحون لكل عمل ولكل شيء !

ووقفت أتحدث مع استاذي القديم ..

ثم أحاطت بي آنسات من المدعوات وأخذن يسألنني في كذا وفي كيت ..

وأدركت أن الفضول وحده هو السبب .. (ترى من يكون هذا الذي قدم الحفلة مع الاميرة آمال الاطرش .. أو معبودتهن اسمهان .. وكان يتأبط ذراعها — كما سمعن هذا الصباح في أحد شوارع تل ابيب ؟!) هذا ما كان يدور في رؤوسهن ..

وكانت أسئلة محرجة ! وقلت في نفسي وأنا اتخلص من الحلقة التي ضربنها حولي ، أن هناك فرقاً بين أن أزور القدس وأنزل في فندق كبير مثل فندق الملك داود وألقى فيه — بالمصادفة ! — بين من ألقى الاميرة آمال الاطرش ! وبين أن أزور تل أبيب مع الاميرة ! وأنزل في فندق واحد مع الاميرة ! وأسير في شوارع البلدة مع الاميرة ! وأقدم الى حفلة متأبطاً ذراع الأميرة !

هذا لا يليق ! ويعذر الناس إذا طارت بهم الظنون !

ووجدتني أفكر فيما كنت افكر فيه مساء الامس !.. هلا يكون من الخير لها ولي أن أضع حداً لهذا كله وأن أقطع ما بينها وبيني ؟

الغيرة : هل كانت لحسابها أو لحسابي ؟

وكنت مذ دخلت الحفلة قد حرصت على الابتعاد عن آمال حتّى اتفادى عيون الفضول وألسنة الفضول . ونجحت في هذا ولكن عندما اشرفت الحفلة على نهايتها عند منتصف الليل ذهبت أبحث عنها لكي نستأذن من الداعي وننصرف

وسألت عنها فقيل لي أنها في الطابق الأعلى . وصعدت ..

ورأيت زحاماً شديداً أمام باب حجرة ..! ومن الحجرة كان ينبعث صوت اسمهان وهي تغني !

وصيحات أعجاب امتزجت فيها أصوات سيدات بأصوات رجال !

وبين أصوات الرجال .. أصوات سكارى من الانجليز ! وقد عرفت منها فيما بعد انهما اللورد هايج (ابن اللورد دوجلاس هايج الذي كان قائداً عاماً للقوات البريطانية في الجبهة الغربية في الحرب العالمية الاولى) واللورد فافرشام ، الضابطان يومئذ بالجيش البريطاني .

وقلت في نفسي ما هكذا يكون سلوك الاميرات .. بل ولا سلوك السيدات اللاواتي يحترمن أنفسهن .. ويحرصن على أن يكن موضع إحترام الناس ..

وأحسست أن شيئاً ما بدأ يثور في صدري وفي رأسي !

وخطر لي أن أشق طريقي بين زحام الواقفين بالباب وأدخل الغرفة وأجذبها من ذراعها وأسحبها وننصرف !

ولكنني حكمت أعصابي .. ونزلت الى حيث كنت في الطابق الاول . لأنتظر ريثما تنتهي الاميرة من غنائها !

وجلست أنتظر وفي صدري ثورة تريد أن تنطلق !

ولماذا هذه الثورة ؟ هل هي الغيرة ؟

ولحساب من كانت هذه الغيرة ؟

هل كانت لحسابها هي ؟ أي كانت غيرة على كرامتها وسمعتها وما يجب أن يكون سلوكها بين الناس ؟

أو كانت هذه الغيرة لحسابي أنا !؟

لا أدري ! ولعل ما أحسست به كان مزيجاً من الاثنين ! فما أصعب التفريق والتمييز ، بل ما أدق الفرق بين الغيرتين !

والذي لا يغار على كرامة من يحب لا يمكن أن يكون صادقاً في حبه !

كذلك الذي لا يغار على كرامة صديقه أو صديقته لا يمكن أن يكون صديقاً مخلصاً وفياً .

* * *

ولابد أن أحدهم أبلغها أنني كنت أبحث عنها لأن انتظاري لها لم يطل ..

ولما انطلقت بنا السيارة في طريق عودتنا الى الفندق قلت لها ما معناه أنه ليس من المستحيل ان تشرق الشمس من المغرب أو تغرب في المشرق !.. أو ينقلب البياض سواداً أو السواد بياضاً !! ولكن المستحيل حقاً هو أن تغير أخلاقها وما بنفسها ! وأنها قد تعيش مائة عام تسمع في كل يوم من أيامها وفي كل ساعة من ساعات كل يوم وفي كل دقيقة من دقائق كل ساعة .. لفظ الكرامة دون أن تفهم له معنى .

وأسهبت في هذا المعنى طويلاً .

ولما نزلنا من السيارة أمام باب الفندق كانت تبكي !

لن أفهمها ولن تفهمني وبين خلقينا ما بين الشرق والغرب !

وكان بين القيود التي فرضتها ظروف الحرب أن الزائر الاجنبي لا يستطيع الخروج من فلسطين إلا بعد الحصول على تأشيرة خاصة من إدارة

اسمها C. I. D. والحروف ترمز فيما أعتقد الى (إدارة المباحث الجنائية) وكانت إجراءات الحصول على التأشيرة المذكورة تستغرق على الأقل يوماً واحداً . واحياناً يومين أو ثلاثة أيام .

وكنت في اليوم التالي لوصولي الى القدس أعطيت جواز سفري لبواب الفندق لكي يجري اللازم بشأن الحصول على تأشيرة الخروج حتى يمكنني السفر في أي يوم أختار . ثم اضطررت — كما ذكرت — أن أغادر القدس فجأة الى تل ابيب قبل أن تنتهي الاجراءات . وقبل أن أسترد جواز السفر .

* * *

وفي الصباح قلت لآمال أنني أعود غداً الى مصر لأن الأسبوع الذي كنت قدرته لهذه الرحلة ينتهي غداً .. ولا أستطيع أن أطيل غيابي عن عملي في مصر أكثر من هذا .. وأنني وقد تركت جواز سفري مع بواب فندق الملك داود لا بد أن أسافر اليوم الى القدس لاسترد الجواز ولكنني سأعود في المساء لكي أركب القطار صباح الغد الى مصر من محطة اللد .

وقالت هي : إذن نذهب جميعاً الى القدس لكي نمضي معاً النهار والمساء .

ثم قالت إننا لم نلتق الا مساء أمس الاول وأنها لم تستطع أن تحدثني فيما تود أن تحدثني فيه لأننا أمضينا السهرة مع صديقتيها الفرنسيتين وجمال جبر وكذلك أمس فقد أمضينا نهاره في الفرجة على تل أبيب . وامضينا السهرة في حفلة زهدي ابو الجبين .. فلم يبق إذن أمامنا إلا نهارنا هذا ومساؤه .

قالت : نذهب اذن جميعاً الى القدس .. وسوف تمضي سهرتك معي في صالوني الخاص لكي نتحدث على انفراد .

قلت : ولكنك كنت تخشين الذهاب الى القدس لئلا يلحق بك زوجك الى هناك ؟

قالت : لو كان أراد اللحاق بي لفعل . ولكن أما وقد مر يومان دون أن يفعل فإن معنى هذا أنه لم يهتم !

وذهبنا الى القدس . وافترقنا بعد تناول الغداء على أن نجتمع جميعاً في صالونها الخاص لتناول الشاي .

* * *

واسأل القراء المعذرة عن الاسهاب في ذكر هذه التفاصيل التافهة ، ولكنهم سوف يفهمون السبب بعد قليل .

وفي ساعة تناول الشاي ذهبت الى صالون الاميرة آمال الاطرش وكنت آخر من وصل فقد وجدت السيدتين الفرنسيتين وجمال جبر .

وقالت آمال وهي تملأ لي قدح الشاي :

— عاد اللورد هايج وصاحبه من تل أبيب ، وكلمني الاثنان الآن بالتليفون لكي يزوراني هنا في الصالون ويتناولا معي الكوكتيل ..

ولما سكت ولم أقل شيئاً قالت وكان حديثنا باللغة العربية :

— عندك مانع ؟

قلت : كنت أظن مما فهمته منك أنك تريدين أن نمضي السهرة وحدنا لكي نتحدث ؟

قالت : ولكنهما سيتناولان « الكوكتيل » وينصرفان !

قلت : وإذا لم ينصرفا ؟

هزت كتفيها وقالت :

— ويعني أعمل ايه !.. عاوزني أطردهم !

قلت وأنا أنهض من مقعدي :

— طبعاً لا !.. ولكنني لا أحب أن أمضي سهرتي مع من لا أعرف .. ولهذا أفضل أن أتركك لمجلس اللوردات بتوعك ..

وخرجت وصوتها ورائي يناديني ..

ثم لحق بي جمال جبر ليقنعني بالرجوع .. ويعاتبني على ما أسماه « عصبيتي وضيق صدري » !

ولكنني نفضت يده عن كتفي وغادرت الفندق .

* * *

والقدس مدينة كئيبة لأنها مدينة مقدسة !

ولأنها مقدسة حرمت عليها المسارح والملاهي والغريب فيها لا يدري كيف يمضي سهرته .

بل ليس في القدس كلها مطعم نظيف واحد تجد فيه طعاماً طيباً !

وجلست نحو ساعة في مقهى أجنبي . ثم قمت الى أحد المطاعم ولكنني لم ألبث أن قمت عن الطعام الذي وضعوه أمامي . وعدت الى الفندق . وذهبت مباشرة الى حجرتي . وخلعت ملابسي وتهيأت للنوم فقد كان عليّ أن أستيقظ مع الفجر لكي استقل سيارة الى اللد وادرك قطار مصر الذي يقوم الساعة الثامنة صباحاً .

ودخل عليّ جمال جبر يقول ان آمال كانت تبحث عني في كل مكان . وأنها عرفت الآن فقط من بواب الفندق أنني عدت .. وأنها تنتظرني في صالونها .. وأنها عقب خروجي غاضباً تكلمت بالتليفون مع إدارة الفندق وطلبت منها أن تعتذر نيابة عنها الى اللورد هايج وصديقه من عدم امكانها استقبالهما هذا المساء بسبب صداع ألمّ بها .. الى آخره .

وقلت أنا أن هذا كله لا يهمني .. وطلبت منه أن يتركني لأنني سأنام !

وتركني ولكنه عاد بعد دقائق يقول أن آمال تأسف وتعتذر ولا تزال تنتظرني في الصالون وأنه إذا لم اذهب اليها فسوف تحضر هي اليّ . وهذا لا يليق!

واخيراً قمت وارتديت ثيابي وذهبت مع جمال الى صالون الاميرة .

* * *

ولكننا لم نجدها !

والتفت الى جمال أسأله ما معنى هذا ؟

وبدت على وجهه الدهشة وقال : ولكنني تركتها هنا !

ورفع سماعة التليفون الموضوع على مائدة صغيرة وسأل بواب الفندق عن الاميرة آمال الاطرش .

ورأيت جمال يقطب حاجبيه !

وأعاد سماعة التليفون الى مكانها . ولكنه لم يقل لي شيئاً !

وسألته أنا : أين هي ؟ وماذا قال لك البواب ؟

ولم يرد علي !

وتناولت أنا سماعة التليفون وسألت بواب الفندق .. الذي أجاب :

— ان البرنسيس اطرش دخلت الآن قاعة المائدة مع اللورد هايج واللورد فافرشام !!

ما معنى هذا ؟!

ترسل اليّ جمال جبر مرتين لكي يلح عليّ أن أنهض من فراشي وارتدي ثيابي وأذهب اليها فاذا فعلت وذهبت اليها وجدتها قد لحقت بصديقيها اللوردين لكي تتناول معهما طعام العشاء !

وأنا لا أقبل أن تلعب بي أو تسخر مني امرأة أياً كانت. وقلت للبواب: قل للاميرة أن فلاناً — أنا — يريد أن يحدثها بالتليفون وبعد دقائق قليلة سمعت صوتها !

— نعم ! عايز ايه ؟

قلت : إطلعي حالاً هنا والا نزلت اليك بنفسي ..

قالت : إنزل إن كنت راجل !

قلت : وهو كذلك ..

واندفعت خارجاً من الصالون . ولم أنتظر صعود « المصعد الكهربائي » بل نزلت الدرج أقفز درجاته ..

ولا بد أنها توقعت شيئاً من هذا لأني وجدتها تهم بمغادرة الفندق . وقد وقف أحد الخدم يضع معطف الفراء على كتفيها وحولها الضابطان اللوردان .

ومشيت اليها .. وانفلتت هي من بين الضابطين وأقبلت نحوي وقد شدت الى فمها ابتسامة ومدت يدها لتصافحني كأنني صديق قد فوجئت هي برؤيته على غير انتظار !

وقالت همساً : .. ارجوك .. بس بلاش فضايح .. بلاش خناق هنا !

ووضعت يدي على ذراعها وقلت :

— تعالي !

وسارت معي .. وسار خلفنا اللورد هايج واللورد فافرشام .

ولما دخلنا المصعد — هي وأنا — التفتت الى اللوردين وقالت لهما بلغتها الانجليزية الركيكة :

— معذرة .. خمس دقائق فقط .. وسأعود !

وأحنى الشابان رأسيهما !

* * *

ومشينا الى صالونها الخاص . ووجدت صديقنا جمال جبر واقفاً في الردهة ينتظر ..

ودفعتها أمامي في الصالون ودخلت واغلقت الباب ورائي حتى لا يدخل جمال جبر ..

والثورة التي تجمعت في صدري كان لا بد لها أن تنطلق !

ووقفت أسألها الحساب ! ولما لم تجب قدمت لها أنا حساباً بأعمالها !

وتدفقت الالفاظ من فمي لا أعي ولا أبالي ماذا أقول ولا ماذا أفعل !

إلحاحها عليّ بالحضور من مصر لكي احتفل معها بعيد مولدها ..

برقيتها في هذا المعنى .. رسالتها مع امينة البارودي في هذا المعنى ..

وهأنذا قد حضرت . فماذا ؟

ثم هل كان حضور اللوردين الضابطين من باب المصادفة ؟

أو أنها هي التي دعتهما في تل أبيب أن يلحقا بها الى القدس ؟

الى آخره .. الى آخره !

وكانت كعادتها في مثل هذه المواقف - قد جلست تبكي وتنتحب وقد تورمت احدى عينيها !

وفجأة نهضت من جلستها وتناولت زجاجة ويسكي كانت موضوعة على رخام المدفأة ورفعتها الى فمها ..

هكذا !.. وراحت تجرع وكأنما تشرب ماء لا ويسكي صرفاً !

ووثبت أنا وانتزعت الزجاجة من يدها !

وارتمت هي ثانية في مقعدها تبكي وتنتحب !

ومشيت أنا الى باب الصالون وفتحته ودخل جمال جبر .

وتركتهما وذهبت الى حجرتي !

وقضيت الليل أفكر ! هل ظلمتها ؟ هل قسوت عليها ؟ ثم بأي حق أطلب منها حساباً ؟

ثم ... نعم ! وقلتها لنفسي للمرة العاشرة ! ! من الخير لها ولي أن اقطع كل ما بينها وبيني ! فلن أفهمها ولن تفهمني . وبين خلقينا ما بين الشرق والغرب .

تركتها على أن لا أعود اليها ولكنني عدت!

وفي نحو الساعة السادسة صباحاً دق جرس التليفون الموضوع بجانب فراشي !

وقالت : صباح الخير ! مرّ عليّ قبل سفرك وأنا انتظرك في الصالون !

وذهبت اليها . وكان أمامها قدح كبير مملوء بالقهوة ! وعلى عينها المصابة قطعة من اللحم النييء !

قالت : - وأقسمت برأس ابنتها - أنها لم تدعُ الضابطين البريطانيين للحاق بها الى القدس . ولكنها تعترف أنها أخطأت حقيقة بدعوتهما لتناول

الكوكتيل .. الى آخره .

ثم قالت : « وقد آلمني كثيراً وجرح كبريائي أن تخرج غاضباً أمام السيدتين الفرنسيتين ! ثم أرسل وراءك جمال فترفض . وأرسله اليك بعد عودتك الى غرفتك فترفض وأعود فأرسله مرة أخرى .. ولكنه غاب . انك رفضت مرة أخرى .. وثارت كبريائي ! وغضبت .. ونزلت الى قاعة الفندق وأنا لا أعرف لماذا .. ولكني انفت أن أجلس أنتظرك في الصالون وأنت ترفض دعوتي !.. ووجدت في قاعة الفندق اللورد هايج وصديقه . ولبيت دعوتهما لتناول العشاء معهما وأنا لا أعرف لماذا ؟ »

ثم أضافت بابتسامة حزينة :

— ربما أردت أن أغيظك كما غظتني .. والآن قل لي .. هل أنت حاقد عليّ ؟

قلت : أبداً ..

قالت : إذن سامحني ؟

قلت : نعم .

وسكتت لحظة كأنها تتردد . ثم قالت :

— سأطلب منك أمراً فهل تعدني باجابته ؟

قلت : ما هو ؟

ومرة اخرى سكتت لحظة قبل أن تقول :

— إن كنت حقيقة لست غاضباً مني فعدني بأن ترجع الى القدس لكي نمضي معاً عيد الأضحى وعيد رأس السنة !

وكنا يومئذ الأحد ٣٠ نوفمبر !

قلت : سوف أفكر في هذا ..

وألحت عليّ أن أعدها بالحضور ولكني اكتفيت بقولي أنني سأعمل كل جهدي حتى أحضر !

ولما وقفت استأذن منها امتلأت عيناها بالدموع !

وتركتها أنا وفي عيني دموع !

وبعد نحو ساعتين كنت في القطار . أما جمال جبر فقد عاد في نفس اليوم الى مصر بالطائرة .

* * *

وبعد أربعة أيام تلقيت منها برقية تقول فيها أنها عادت الى بيروت وأنها ترجو أن أمضي أسبوع الاعياد معها في القدس !

ثم تلقيت منها خطاباً طويلاً تروي فيه ماذا فعلت في الأيام الأربعة التي أمضتها في القدس بعد سفري .. وتذكرني مرة اخرى بعيدي الأضحى ورأس السنة .

ثم برقية ثانية ارسلتها من بيروت

وأخيراً تلقيت منها البرقية الآتية وتاريخها ٢٤ ديسمبر .

وقد أرسلتها من القدس :

« بانتظارك أرجو أن لا يعلم أحد بمجيئك أنزل في اوتيل ايدن بلاس سأمضي العيد مع شفيقة في البيت الى اللقاء

آمال الاطرش »

وبعد يومين اثنين تلقيت برقية تسألني لماذا لم أرد على برقيتها وتلح بالحضور وأرسلت اليها برقية قلت فيها (حاضر غداً) !

وهكذا ! أنا الذي كنت اعتزمت أن أقطع كل ما بينها وبيني أعود ثانية الى القدس لكي أمضي معها عيد الأضحى ورأس السنة !؟

ووجدتني استوقف في شريط الذاكرة مشهداً معيناً بعد مشهد معين . وأطيل النظر .. وأطيل التفكير .

يا طالما وقفت أنظر اليها .. وهي تبكي ! وأسأل نفسي اية امرأة هذه ؟ ما أسرع الدموع الى عينيها ! وما أسرع الابتسامة الى شفتيها !.. ولكن الدموع كانت دائماً مرة حارة صادقة ! أما ابتسامة المسكينة فلم تكن دائماً من القلب !

نعم ! أية امرأة هذه !.. واية شخصية غامضة ! معقدة !.. مليئة بالمتناقضات ..!

الأنفة والكبرياء وعزة النفس وعفة اللسان وطيبة القلب التي ما بعدها من طيبة !.. ثم الاندفاع والتهور والانسياق وراء كل نزوة ، والاستهتار احياناً والتمرد أحياناً على كل الاوضاع وكل ما تواضع عليه العرف والناس !

إنه الضعف !.. نعم .. الضعف !

ضعف الارادة !.. قلتها في نفسي وكأنني اهتديت الى مفتاح اللغز في شخصية اسمهان .

ثم ابتسمت من نفسي !

آخر من يحق له أن يؤاخذ آمال الاطرش على ضعفها هو أنا !

أنا الذي كنت تركتها في صالون جناحها بفندق الملك داود منذ أقل من شهر واحد وفي نيتي أن لا أعود اليها .. هأنذا أعود اليها !

أي ضعف بعد هذا الضعف ؟

ثم أؤاخذها على ضعفها هي ؟

ووصلت الى القدس صباح الاحد ٢٨ ديسمبر وكان أول يوم من أيام عيد الأضحى .

وذهبت الى فندق ايدن ...

ولكن لم يمض دقائق على وصولي حتى طلبني فندق الملك داود بالتليفون !

وكانت آمال .. وقد حيتني ثم طلبت مني أن أترك فندق ايدن واذهب الى فندق الملك داود ؟!

ما معنى هذا كله ؟.. ولكنني ذهبت .

من الذي ابلغ زوجها عن برقياتي اليها ؟

ولما دخلت عليها في حجرة جلوسها الخاصة وجدتها متمددة فوق مقعد طويل وقد وضعت على ركبتيها غطاء ثقيلاً من الصوف .

وكانت شاحبة اللون . وفي صوتها ضعف ، كما أنها كانت تسعل قليلاً ..

وقالت أنه برد خفيف أصابها من جراء سهرة طويلة أمس الاول . هنا في فندق الملك داود ..

قلت : كنت أظن أنك نزلت في دار صديقتك شفيقة ؟

قالت : نعم .. أقمت عندها ليلة واحدة . ثم جئت هنا .. ان شفيقة امرأة حزينة تمضي نهارها وليلها في البكاء على زوجها !

وهل ترى الكآبة تنقص حياتي حتى اسعى لطلب المزيد منها ؟.. لقد جئت هنا لأن أعصابي لم تحتمل نواح شفيقة وبكاءها .. ان كل ما في دارها متشح بالسواد !

وخيل الي أن رعشة سرت في جسدها وهي تشيح بوجهها وتقول بصوت خافت :

— كل ما في دارها كان يذكرني بالموت !

وبعد سكوت لحظات سألتها :

— ولكن لماذا فكرت في الاقامة بدار شفيقة وطلبت مني أن أنزل بفندق ايدن وأن لا يعلم أحد بقدومي الى القدس ؟

قالت : هل تعرف ان الامير حسن عاد من مصر ومعه كاميليا وأمي أيضاً ؟

قلت : أمك ؟.. كلا .. لم أسمع بهذا ..

ووجدتني استوقف في شريط الذاكرة مشهداً معيناً بعد مشهد معين . وأطيل النظر .. وأطيل التفكير .

يا طالما وقفت أنظر اليها .. وهي تبكي ! وأسأل نفسي اية امرأة هذه ؟ ما أسرع الدموع الى عينيها ! وما أسرع الابتسامة الى شفتيها !.. ولكن الدموع كانت دائماً مرة حارة صادقة ! أما ابتسامة المسكينة فلم تكن دائماً من القلب !

نعم ! أية امرأة هذه !.. واية شخصية غامضة ! معقدة !.. مليئة بالمتناقضات ..!

الأنفة والكبرياء وعزة النفس وعفة اللسان وطيبة القلب التي ما بعدها من طيبة !.. ثم الاندفاع والتهور والانسياق وراء كل نزوة ، والاستهتار احياناً والتمرد أحياناً على كل الاوضاع وكل ما تواضع عليه العرف والناس !

إنه الضعف !.. نعم .. الضعف !

ضعف الارادة !.. قلتها في نفسي وكأنني اهتديت الى مفتاح اللغز في شخصية اسمهان .

ثم ابتسمت من نفسي !

آخر من يحق له أن يؤاخذ آمال الاطرش على ضعفها هو أنا !

أنا الذي كنت تركتها في صالون جناحها بفندق الملك داود منذ أقل من شهر واحد وفي نيتي أن لا أعود اليها .. هأنذا أعود اليها !

أي ضعف بعد هذا الضعف ؟

ثم أؤاخذها على ضعفها هي ؟

ووصلت الى القدس صباح الاحد ٢٨ ديسمبر وكان أول يوم من أيام عيد الأضحى .

وذهبت الى فندق ايدن ...

ولكن لم يمض دقائق على وصولي حتى طلبني فندق الملك داود بالتليفون !

وكانت آمال .. وقد حيتني ثم طلبت مني أن أترك فندق ايدن واذهب الى فندق الملك داود ؟!
ما معنى هذا كله ؟.. ولكنني ذهبت .

من الذي ابلغ زوجها عن برقياتي اليها ؟

ولما دخلت عليها في حجرة جلوسها الخاصة وجدتها متمددة فوق مقعد طويل وقد وضعت على ركبتيها غطاء ثقيلاً من الصوف .
وكانت شاحبة اللون . وفي صوتها ضعف ، كما أنها كانت تسعل قليلاً ..
وقالت أنه برد خفيف أصابها من جراء سهرة طويلة أمس الاول . هنا في فندق الملك داود ..
قلت : كنت أظن أنك نزلت في دار صديقتك شفيقة ؟
قالت : نعم .. أقمت عندها ليلة واحدة . ثم جئت هنا .. ان شفيقة امرأة حزينة تمضي نهارها وليلها في البكاء على زوجها !
وهل ترى الكآبة تنقص حياتي حتى اسعى لطلب المزيد منها ؟.. لقد جئت هنا لأن أعصابي لم تحتمل نواح شفيقة وبكاءها .. ان كل ما في دارها متشح بالسواد !
وخيل الي أن رعشة سرت في جسدها وهي تشيح بوجهها وتقول بصوت خافت :
— كل ما في دارها كان يذكرني بالموت !
وبعد سكوت لحظات سألتها :
— ولكن لماذا فكرت في الاقامة بدار شفيقة وطلبت مني أن أنزل بفندق ايدن وأن لا يعلم أحد بقدومي الى القدس ؟
قالت : هل تعرف ان الامير حسن عاد من مصر ومعه كاميليا وأمي أيضاً ؟
قلت : أمك ؟.. كلا .. لم أسمع بهذا ..

قالت : نعم .. حضرت أمي معه الى لبنان بحجة أنها تحب كاميليا ولا تطيق البعد عنها .. وهكذا وجدتها في داري عندما عدت الى بيروت .

وسكتت لحظة قبل أن تقول :

– ووجدت أيضاً أن حسن قد فتح عنوة درج مكتبي الخاص واستحوذ على برقياتك اليّ !

قلت بعد لحظة : وماذا فهمت من هذا ؟

هزت كتفيها وقالت :

– لا بد أنه سمع بمقابلاتنا هنا في القدس ..

قلت : كيف ؟

وكأنها لم تسمع سؤالي لأنها مضت تقول :

– ورايا .. ورايا .. كنت ظننت أنني خلصت منها يوم تركت لها مصر .. فاذا بها تجيء ورائي الى بيروت !

قلت : أمك ؟

هزت رأسها أن نعم ..

قلت : وهل تتهمينها ؟

قالت : واذا لم تكن هي فمن ؟

قلت : كوني منصفة . إنها أمك على كل حال . وما أظن أنها توقع بك عند زوجك .

قالت بضجر : إذن من ؟

قلت : أنت !.. أنت نفسك !

قالت : كيف ؟

قلت : انك ترسلين اليّ برقياتك من دمشق ومن بيروت ممضاة باسمك الصريح وتطلبين مني أن ألقاك هنا في القدس فلماذا لا يكون زوجك قد عرف بأمر هذه البرقيات من بعض موظفي ادارة البرق والبريد ؟

أجابت : ولماذا لم يسمع بأمر هذه البرقيات طيلة الشهور الستة الماضية ..

ولم يسمع بها إلا بعد اجتماعه بأمي وقدومها معه الى بيروت ؟

وسكت أنا لحظة .. قبل أن أقول :

– على كل حال ليس في برقياتي أي شيء !

قالت : صحيح .. ولكنها في نظر زوجي برقيات من رجل غريب والسلام ! ولهذا رأيت أن أحذرك وانبهك لكي تتخذ الحيطة ..

ثم أضافت بابتسامة ضعيفة :

– وعلى فكرة حذار أن تزور لبنان وسوريا الآن .. والا فقد « يقوّصوك » !

ويقوّص (بتشديد الواو) معناها يقتل !

ثم ! أخائف أنت ؟

قلت : من أجلك .

قالت : إن كان خوفك من أجلي فقط .. فاطمئن !

قلت : ولكن يظهر أنه لم يعد هناك موجب للحيطة والحذر !.. فها أنت في فندق الملك داود .. وهأنذا معك !

قالت : ماذا يهم !.. لقد كان في نيّتي ان اتركك تقيم في فندق ايدن ولكنني أصبحت اليوم مريضة فلا سبيل اذن لمقابلتنا سوى هنا . ولا معنى اذن لأن تبقى في فندق ايدن .. ولكن ..

ونظرت اليّ وهي تبتسم :

– ولكن .. إذا كنت تخاف العاقبة فأنت حر .. حتى في أن تسافر اليوم إذا شئت !

وابتسمت أنا وقلت :

– كلا .. لن اتركك وأنت مريضة !

ولكن ابتسامتي كانت باهتة . متكلفة !!

وأكذب إن قلت أنني لم أخف !

ولكن خوفي كان خوف الذي يخشى أن يواجه صاحب الحق وهو يعرف أنه هو ليس بذي حق !

وكما قلت في فصل سابق . « من أنا ؟ وما شأني ؟ ومن أكون حتى أقف بين زوج وزوجته ؟.. ثم لم يكن بيننا - بينها وبيني - ما يجعل تفادي هذا الحرج وتفادي هذه المواقف أمراً مستحيلاً ! فلماذا إذن .. لماذا ؟ »

ولعنت ضعفي وساعة لبيت دعوتها وقدمت الى القدس .

ولكنها الآن مريضة . ضعيفة وحيدة . وكان واجبي أن أبقى بجانبها ..

آمال مريضة ... ورئتها ضعيفة

وفي المساء ارتفعت حرارتها ! واقترحت أنا أن استدعي لها الطبيب ولكنها رفضت لأن ما بها برد خفيف لا يلبث أن يزول .

ولكنها أصبحت وقد اشتدت بها العلة .. ولما تكلم بالتليفون الاستاذ سامي الشوا عازف الكمان المعروف يطلب مقابلتها لتهنئتها بالعيد اعتذرت بالتعب من عدم مقابلته .

ولكنها استقبلته في اليوم التالي .

ولما حل عيد رأس السنة - مساء الاربعاء ٣١ ديسمبر - كانت صحتها تحسنت قليلاً .

وكنت - طوال اليومين السابقين - قد منعتها قسراً عن الشراب والتدخين . ولكنها - وقد قررنا أن نمضي عيد رأس السنة في حجرة جلوسها الخاصة - الحت في أن تشرب ولو كأساً واحدة .. احتفالاً بالعيد !

ولكن الكأس الواحدة تضاعفت حتى بلغت سبع كؤوس !..

وكانت النتيجة أنها أصبحت - في أول يناير ١٩٤٢ - أسوأ مما كانت : وارتفعت حرارتها وعاودتها الحمى .

وفي المساء وصلت السيدة امينة البارودي قادمة من مصر وامضينا السهرة هي وأنا الى جانب فراش آمال .

وأصبحنا والسماء تمطر مطراً ثقيلاً متواصلاً . وأمضيت اليوم الى جانبها .

وأقبل أحد خدم الفندق يحمل صندوقاً كبيراً من الورق المقوى مملوءاً بالزهور . ومع الصندوق خطاب .

وناولتني الخطاب لكي أتلوه عليها وهي تقول :

– نسمع معاً ما فيه بدلاً من أن اقرأه أنا ثم تقرأه أنت ؟

قلت : ومن قال لك أنني أريد أن اقرأه ؟

قالت وهي تبتسم : لأني أعرفك !

وكان الخطاب بالانجليزية من اللورد فافرشام ! وكان يقول أنه يغادر القدس اليوم الى دمشق ويرى من واجبه السعيد أن يقدم لها شكره الجزيل على تفضلها بتناول العشاء معه ليلة السبت الماضي .

إذن فهذه هي السهرة التي أصابها منها البرد .. الخفيف !

ولكنني لم أقل شيئاً !

وهي كذلك لم تقل شيئاً !

ولما أقبل المساء كانت تهذي من شدة الحمى ..

وسألت إدارة الفندق عن اسم طبيب أدعوه لعيادتها فدلوني على الطبيب الالماني اليهودي المشهور البروفسور زونديك وله مؤلفات تدرس في كليات الطب في انحاء العالم .

وحضر الطبيب وقال لها أنها نزلة شعبية ..

ولكنه قال لي وقد خرجت اشيعه الى باب الجناح أنه يشك في أن بالرئة اليمنى شيئاً ما .. ولكنه يفضل الانتظار يومين قبل آن يأخذ لصدرها صورة بالاشعة لكي لا يزعجها وهي الآن كما بدا له في حالة عصبية شديدة !

وكتبت يومئذ في مفكرة الجيب السبت ٣ يناير ١٩٤٢ :

« تساقط اليوم ثلج كثير حتى غطى الشوارع وتوقف سير القطارات والطائرات . وهكذا لا أستطيع السفر الآن . قضيت طول اليوم بجانب آمال أمرضها بنفسي »

* * *

واستمرت السماء تثلج يومين كاملين حتى غطى الثلج السهل والجبل .
وتعذر سير السيارات في شوارع القدس نفسها
وكان البروفسور زونديك يعود آمال في كل يوم .
ثم حضر ومعه مساعدوه وأخذوا صورة بالأشعة لصدرها ! وكلمني الطبيب مساء بالتليفون وقال ان الحالة ليست خطيرة . ولكنها دقيقة الى حد ما ويحتاج معها الى عناية كبيرة وعلاج طويل .
وأنا لا أذكر الآن العبارة أو التعبير الطبي أو الفني الذي استعمله ساعتئذ ولكني فهمت أن الرئة اليمنى ليست سليمة تماماً !
ولم تكن آمال تجهل أن لها رئة ضعيفة لأنها كثيراً ما كانت تقول لي وهي تشير الى صدرها :
– استحملني سنة أو سنتين لأني عارفة أني رايحة بعدها أموت !
ومع ذلك كانت تشرب وتدخن وتغني .. ولا تبالي !

* * *

وسألتني من الذي كان يحدثني بالتليفون ! قلت الدكتور زونديك
وتطلعت عيناها الي تسألني ماذا قال ؟
قلت : لا شيء . وكلماته بالحرف الواحد هي أنه ليس في حالتك ما يوجب القلق ولكنك تحتاجين لعناية كبيرة وعلاج طويل .
وابتسمت رحمها الله وقالت :
– وأين أجد ممرضاً مثلك ؟
« وفي المساء ارتفعت حرارتها كثيراً وقلقت عليها جداً »
وهذا ما كتبته يومئذ – الاثنين ٥ يناير في مفكرة الجيب .

* * *

ولكن كان علي أن أعود الى مصر فقد كنت قدمت لكي امضي معها

عيد الأضحى وعيد رأس السنة – أي أربعة أو خمسة أيام – ثم أعود الى مصر وعملي فيها . وها قد مضت عليّ عشرة أيام وأنا الى جانبها !

ولكن كيف أتركها مريضة ووحدها ؟

وكان لها صديقات في القدس ولكن واحدة منهن لم تعن بالبقاء الى جانبها وتمريضها . وكانت الواحدة منهن إذا زارتها أقامت بضع دقائق ثم ولت ! كأنما كن يخشين العدوى .. فقد كانت الاشاعات عن مرضها كثيرة !

وأمضيت يومين آخرين الى جانبها ، أمرضها طبقاً لتعليمات الطبيب .. وأناولها الدواء في مواعيده .. .واقيس حرارتها ... وأعد لها بخار الماء الممزوج بدواء ما لكي تستنشق منه ملء رئتيها .

وأهم من هذا وذاك أحول بينها وبين الشراب والتدخين !

عدت الى مصر وأرسلت اليها ماري قلادة

وتحسنت صحتها قليلاً ..

واخيراً كاشفتها برغبتي في السفر غداً والعودة الى مصر . وكان قد مضى عليّ اثنا عشر يوماً وأنا الى جانبها ..

وبكت وقالت أنها خائفة .. خائفة من أن تموت بذات الرئة .. وأننا قد لا نلتقي مرة اخرى .

* * *

واستيقظت مبكراً . ومررت بها قبل أن أغادر الفندق .. وودعتها ..

وكتبت يومئذ – الخميس ٨ يناير ١٩٤٢ – في مفكرة الجيب :

« فكرت فيها وفي صحتها كثيراً اثناء الطريق . وارسلت اليها تلغرافاً من القنطرة » .

* * *

وكان أول ما عنيت به بعد عودتي الى مصر أن أبحث عن صديقة لها ترضى بالسفر الى القدس للبقاء بجانبها تمرضها وتؤنسها في وحدتها .

واتصلت بالتليفون بسيدة كريمة من صديقاتها . وقلت لها أنني تركت آمال في القدس مريضة . وأنها وحيدة وليس هناك الى جانبها من يعتني بها أو يسهر عليها فهل تعرف أحداً يرضى بالسفر .. الى آخره

وأجابت السيدة على الفور :

ـ نعم . ماري قلادة !

وكانت السيدة هي نفس السيدة التي كنت دعوتها الى حفلة الوداع التي أقمتها لآمال ليلة ازمعت مغادرة مصر .. وحضرت معها الآنسة ماري قلادة لكي ترى « اسمهان » لأول مرة .

قلت : أرسليها اليّ حالاً ..

وزارتني في مكتبي ماري قلادة يرحمها الله واتفقت معها على أن تسافر الى القدس .. وأرسلت برقية بهذا كله الى آمال .

وفي ثلاثة أيام استخرجت جواز سفر باسم ماري قلادة وانهيت لها كافة اجراءات السفر .. وارسلتها بالطائرة الى القدس .

وقد سافرت رحمها الله على أن تقيم مع آمال الاطرش اسبوعين اثنين على الاكثر أو هكذا اكدت لوالديها وهي تستأذنهما في السفر .

ولكنها أقامت مع آمال ثمانية شهور وأحبتها حباً ما بعده حب . وتوطدت أواصر الصداقة بين الاثنين .. الى أن ضمهما الموت معاً وهما في الطريق الى رأس البر !

* * *

وكنت اثناء ذلك أرسل في كل يوم برقية أو أكثر . الى آمال أو صديقتها السيدة شفيقة النشاشيبي أو الدكتور زونديك استفسر عن صحتها .. الى أن جاءني من الطبيب برقية باللغة الانجليزية وتاريخها ١٣ يناير وهذه

ترجمتها :

« حالة الاميرة تحسنت جداً ..

هرمان زونديك »

وكانت آمال أرسلت اليّ في اليوم السابق برقية تقول فيها :

« علمت من الدكتور أنك أرسلت تطمئن وشفيقة كذلك ولكن أرسل لك رأساً غداً موعد الصورة سأخبرك بالنتيجة الاربعاء معكم دائماً .

آمال الاطرش »

ثم مضت أربعة أيام دون أن تصل اليّ منها برقية واحدة .. الى أن كان يوم ١٦ يناير .. فقد جاءتني برقية باللغة الفرنسية وممضاة « ماري قلادة » . وهذه ترجمتها .

« الامير وصل أمس وفي نيتنا السفر بعد غد أرسل برقياتك من الآن باسمي .

ماري قلادة »

إذن فالأمير حسن الاطرش قد لحق اخيراً بزوجته في القدس . ترى ماذا كان حدث لو كان قدم سفره اليها اسبوعاً واحداً ودخل فوجدني جالساً الى جانب زوجته أمرضها بنفسي وأناولها الدواء ؟!

مرة اخرى الي دعوتها ولكنها كانت المرة الاخيرة

وفي مساء الاربعاء ٢١ يناير – وكنت في مسكني – دق جرس التليفون .. ولما رفعت السماعة سمعت من يقول بالانجليزية :

– القدس تطلبكم !

أي أن المكالمة جاءت عن طريق القيادة العسكرية البريطانية !

وسمعت صوت آمال . ولما سألتها باللغة العربية عن صحتها ولماذا لم تغادر القدس بعد ؟ طلبت مني بلغتها الانجليزية الركيكة أن أتكلم بالانجليزية ...

أي أن هذه المكالمة كانت خاضعة لاحكام الرقابة العسكرية .

وقالت هي ما معناه أن أموراً عديدة قد حدثت منذ سفري فهل أستطيع أن أسافر اليها غداً ؟

وكان صوتها متعباً جداً . صوت امرأة يائسة ، ضلت طريقها وخارت قواها واضناها التعب !

ومرة اخرى تدعوني للسفر اليها !. ومرة اخرى أقول لها :

— « نعم . سأحضر اليك غداً ! »

* * *

وفي اليوم التالي ركبت القطار الى اللد ومنها الى القدس .

وسألت نفسي في القطار هل لدعوتها هذه علاقة بقدوم زوجها المفاجىء الى القدس ؟

ولكنني لم أسأل نفسي هل سأجد زوجها لا يزال في القدس أم لا ؟!

لم أسأل نفسي لأنني خفت أن يردني العقل الى حكم الواقع فأقطع سفري وأعود الى مصر ولو من منتصف الطريق !

* * *

ووصلت الى القدس في منتصف الساعة العاشرة صباحاً .

وذهبت اليها وكانت تنتظرني هي وماري قلادة في حجرة جلوسها الخاصة .

وهنا اترك لها الحديث ..

مرة اخرى تحاول الانتحار

قالت :

– كان حضور حسن (الامير حسن الاطرش) مفاجأة لي . ولقد ظننت في أول الأمر أنه سمع بمرضي فحضر ليطمئن عليّ . ولكنني لم ألبث أن تبينت الشر في عينيه .. كذلك لم يهتم كثيراً لحظة دخل عليّ بسؤالي عن مرضي أو عن سير المرض . بل بدأ حديثه بقوله أنه لا يستطيع الصبر أكثر مما صبر ولا السكوت اكثر مما سكت .. وانني قد نسيت فيما يظهر أنني زوجته والا فما معنى هربي دائماً منه ؟ إذا أقام في السويدا هربت منه الى دمشق ! وإذا جاء دمشق ذهبت الى بيروت ..! وإذا أقام معي في بيروت تركته فيها وسافرت الى القدس !.. وان أهلنا في السويدا يتندرون بهذا .. وأن علاقتنا الزوجية أصبحت حديث الناس .. وأنه صبر طويلاً ولكنه لم يعد يطيق الصبر اكثر مما صبر ! ثم أمرني بالاستعداد للسفر معه غداً الى السويدا ..

ووافقت لأن قدومه المفاجىء عقد لساني كما أنني كنت ساعتئذ أضعف من أن أستطيع المقاومة والاخذ والرد ..

وتركني وخرج على أن نسافر غداً أو بعد غد ..

وطلبت من ماري أن ترسل لك برقية بهذا كله .

ولكن أحد خدم الفندق – وهو يخلص لي كثيراً – جاءني بعد خروج الأمير يقول أن الامير اهتم فور وصوله الى الفندق بالاطلاع على الدفتر المقيد فيه اسماء الذين نزلوا بالفندق طول الشهر .. وهنا ادركت لماذا دخل علي والشر في عينيه لقد وجد اسمك بين نزلاء الفندق وعرف انك كنت هنا اثناء وجودي ! وقضيت ليلتي افكر !

إذا طاوعته وسافرت وعدت معه الى السويدا فلن يسمح لي بعدها بمغادرة سوريا ولبنان .. بل قد يستحيل عليّ الخروج من السويدا نفسها ! وإذا كان قد استطاع منذ شهرين أن يحصل من السلطات على موافقتها

على عدم السماح لي بالخروج من سوريا ولبنان اثناء غيابه في مصر فقد يمكنه اليوم أن يحصل على موافقتها على عدم خروجي مطلقاً من البلاد !

وفي الصباح كنت انتهيت الى قرار .. فلما جاءني قلت له أنني لن أسافر معه وأنني سأبقى هنا في القدس ..

قال : إذن فأنا أجد نفسي مرغماً على استعمال العنف معك !.. سأذهب الآن الى السلطات الانجليزية هنا وأطلب منها أنا زوجك أن تصدر أمرها باخراجك فوراً من فلسطين .. وبوضعك ولو بالقوة في سيارتي !

وتركني وخرج ليذهب الى السلطات الانجليزية في القدس !

وسكتت آمال قليلاً قبل أن تستأنف الحديث . ثم قالت :

– ولعلك عرفت أن صلاتي بالانجليز لم تعد حسنة كما كانت ، بينما أصبح حسن ذا نفوذ عندهم وأصبحت كلمته فوق كلمتي .

ولهذا لم يخامرني أقل شك في أن السلطات الانجليزية سوف تجيبه الى طلبه ، وسوف تحملني ولو بالقوة وتضعني في سيارته .. وكله إلا هذا !..

خرج حسن .. وبقيت وحدي لأن ماري كانت تركتنا وحدنا عندما دخل عليّ .

ولم يطل تفكيري أو ترددي اكثر من دقائق قليلة !

وكان الدكتور زونديك قد وصف لي دواء مقوياً أوصاني باستعماله حقناً تحت الجلد بعد عودتي الى بيروت . وفهمت منه ان الدواء المذكور تدخل فيه مادة الاستركنين .. السامة !

وقمت الى الدولاب واخرجت علبة الدواء وكانت فيها ست انابيب زجاجية .. كسرت أطرافها واحدة بعد الاخرى وافرغتها في قدح .. وشربته ! ثم تمددت في فراشي انتظر الموت !

وبعد دقائق دخلت عليّ ماري ولا أعرف كيف فطنت الى أن هناك شيئاً ما لأنها انحنت فوقي تحدق في وجهي وتسألني ماذا جرى ؟ وماذا بي ؟

ثم وقع بصرها على الانابيب الزجاجية المكسورة الفارغة .. وفهمت .. واندفعت خارج الحجرة تصيح وتطلب النجدة !.

* * *

وأسعفوني بالعلاج . وان كنت لا أعرف ماذا فعلوا بي ..
ولما أفقت .. وجدت زوجي واقفاً الى جانب الفراش .
ولما رآني قد فتحت عيني تقدم مني وقال :
– الى هذا الحد تكرهينني حتى لتفضلين الموت على العيش معي ..!؟
ورأيت الدمع في عينيه !
ثم خرج وتركني ..
وسافر وحده في نفس اليوم عائداً الى بيروت !!

وداعاً ... لا لقاء بعده

ولما انتهت آمال الاطرش من حديثها كان في عيني أنا ما يشبه الدموع .. لا رحمة بها .. وان كان في حالها يومئذ ما يثير حقيقة مكنون القلب الرحيم .
وإنما جالت الدموع في عيني .. رحمة به هو ! رحمة بالزوج الذي أحبها كثيراً . واحتمل منها كثيراً .. ولا يزال يحبها حتى اليوم .
وشعرت في تلك اللحظة أنني لن اضعف بعد اليوم . ولن أتردد .. ولن ألبي لها دعوة .. وانه يكفي ان اذكر كيف وقف زوجها أمامها والدمع في عينيه يقول لها ما قال .. يكفي أن أذكر هذا المشهد لكي أصم اذني عن ندائها وأصر على أسناني وأقول كلا . كلا ..
نعم ! لقد عرفت في تلك اللحظة ان هذه آخر مرة ! فلن ألبي دعوتها ولن ألقاها بعد اليوم !

* * *

ومرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن تصارحني بما في نفسها .
قالت :
— والآن تدرك طبعاً أن عودتي الى زوجي بعد الذي جرى اصبحت مستحيلة . كذلك لن أستطيع العيش في سوريا ولبنان لان نفوذ حسن سوف يتعقبني في كل مكان .. لم يبق أمامي إذن إلا أن أعود الى مصر . ولهذا السبب دعوتك . وأنت وحدك الذي يمكنه أن يحصل لي على إذن بالعودة الى مصر فهل تفعل ؟

واطرقت برأسي طويلاً .. ربما حتى لا ترى ما في عيني !
وسألت نفسي .. ولكن نفسي كانت كئيبة خرساء !
وكأنما إرادتي جفت ! وتفكيري أصبح يتخبط في تيه من الظلمات !
ومرت بي دقيقة لم يسبق أن مرّ بي مثلها .
دقيقة ولكنها في عمقها دهر ! دقيقة واحدة ولكنها قصة العمر !
وأخيراً نظرت اليها وقلت :
— كلا ! لن أفعل ..
وأشاحت هي بوجهها عني وقالت :
— كنت أتوقع منك هذا الجواب .
قلت : نعم ..
قلتها وفي النفس ما فيها وفي القلب ما فيه ..
ولكنه كان صراعاً قاسياً بين الضمير والقلب . وبين العقل والعاطفة ..
وبعد ! ما مصير هذه النفس الحائرة ؟ هذه النفس القلقة المعذبة ؟..
إنها لم تخلق لاحتراف الغناء .. واذا عادت الى مصر فسوف تشقى وتشقيني .. وتشقي نفساً ثالثة !

ومضيت أحدثها في هذا وفي أن من الخير لها ولابنتها أن تعود الى زوجها وأن زوجها يحبها وسوف يصفح عنها . وأنها الآن زوجة وعزيزة واميرة محترمة مكرمة .. وشتان بين هذا وبين حالها اذا عادت الى مصر

وعادت لاحتراف الغناء من أجل العيش ..

الى آخره .. الى آخره !

ولكنها كانت ولتني ظهرها وأخذت تبكي !

* * *

وفي اليوم التالي ذهبت أودعها ..

قالت : ومتى أراك ؟ هل ألقاك قريباً ؟

واحسست أن شيئاً ما وقف في حلقي !..

ولكني أستطعت أن أحبس الدمع وأقول : من يدري !!

ولكنني — وقد تركتها واقفة بباب الحجرة — كنت أعرف وأنا في طريقي الى السيارة التي ستقلني الى محطة اللد ومنها الى مصر .. كنت أعرف أنني قد صافحت آمال الاطرش لآخر مرة .. ووقفت أمامها وجهاً لوجه لآخر مرة .. وأنني لن ألقاها بعد اليوم !

وكان هذا في يناير عام ١٩٤٢

ولم أرها بعدها إلا على شاشة السينما في عام ١٩٤٤ في فيلمها الثاني والاخير « غرام وانتقام » .

١٣

بداية النهاية ..

احمد حسنين باشا والمطربة اسمهان

انتهيت في الفصول السابقة من هذه القصة من وصف وتحليل شخصية ايميلي الاطرش التي عرفناها باسم المطربة اسمهان .. واني لارجو أن اكون قد انصفت الحقيقة وانصفت اسمهان ووفقت الى رسم الصورة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اسراف في الظلال والالوان . ويقيني انني افلحت على الاقل في تبديد كثير من الاتهامات الظالمة التي علقت باسم اسمهان .

ولقد رأى القراء أنني قطعت كل علاقة لي بها في أواخر شهر يناير من عام ١٩٤٢ ..

واليوم اكمل بقية القصة ..

ولكن ما أرويه هنا هو رواية سماع او نقلاً عن شهود لان الأعوام الثلاثة الاخيرة من حياتها .. لم يكن لي بها اي اتصال ..

* * *

وأعود الآن بالقراء الى اوائل عام ١٩٤٠

أي الى بدء معرفتها واتصالها باحمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك السابق فاروق .

في اوائل العام المذكور عرف حسنين المطربة اسمهان وأعجب بها كما قالت هي .. أو أعجب بصوتها فقط كما قال هو !..

وكانت اسمهان — يوم عرفها حسنين — تقيم بفندق ميناهاوس . وكان حسنين يزورها في الفندق المذكور ، وكان إذا لم يجدها يترك لها رسالة بخطه .. وعرف نزلاء الفندق والموظفون أن كبير رجال حاشية الملك فاروق يتردد على المطربة الشابة . وكان طبيعياً أن يخرج هذا الخبر من فندق ميناهاوس وينتشر هنا وهناك إلى أن يصل الى القصر والذين فيه ودهش الذين يعرفون حسنين ويعرفون مبلغ حذره وحرصه وتكتمه .. دهشوا لقلة احتياطه ولعدم مبالاته أن يعرف الناس أن له علاقة بالمطربة اسمهان . وذات مساء ، وكان حسنين رحمه الله — جالساً في غرفة مكتبه بقصر عابدين — انطلق صوت اسمهان بإحدى اغنياتها المعروفة !

وروى لي حسنين نفسه التفاصيل ، فقال : وظننت أن أحد اجهزة الراديو العديدة في السراي هي مصدر الصوت وأنها تنقله من محطة الاذاعة ..

وانتهت الأغنية .. واعقبتها اغنية أخرى لاسمهان .. ثم اغنية ثالثة .. وعجبت وقلت ترى هل تذيع محطة الاذاعة هذه الليلة برنامجاً خاصاً لاسمهان !! ولكن عندما انطلق صوت اسمهان باغنية رابعة وخامسة شككت في الأمر وقمت من أمام المكتب ومشيت الى النافذة وأطللت منها فرأيت « جلالة الملك » واقفاً وأمامه على مائدة صغيرة جهاز فونوغراف والى جانبه أحد خدم القصر يحمل بضع اسطوانات .. ورفع الملك رأسه ورآني وقهقه ضاحكاً وصاح :

— مبسوط يا حسنين ؟

* * *

وذات يوم جاءتني اسمهان تشكو وتقول :

– إيه حكاية صاحبك ده ؟

قلت :

– صاحبي مين ؟

قالت :

– صاحبك اللي اسمه حسنين !

وضحكت أنا وقلت :

– دلوقتي بقى اسمه « صاحبي اللي اسمه حسنين » !.. وعمل ايه صاحبي اللي اسمه حسنين ؟..

قالت :

– كلمني اليوم بالتليفون ومن غير بونجور أو سعيدة أو سلامات وقال « قولي لي يا مدام اطرش . هل صحيح أنني أزورك في بيتك ؟ » وقبل أن أستطيع الرد أو سؤاله إيه الحكاية .. عاد يسألني ..

– وهل صحيح أنك بتزوريني في بيتي ؟!..

وقبل أن أرد مضى يجيب هو على نفسه ويقول :

– مش كده ؟.. لا أنا أزورك .. ولا أنت تزوريني !.. الحمد لله .. متشكر يا مدام اطرش !..

وأنهى المحادثة وأقفل التليفون !

وضحكت أنا طويلاً وقلت لها :

– ولم تفهمي ايه الحكاية ؟

قالت :

– لا .. لم أفهم ؟

قلت :

– حسنين كان يكلمك والى جانبه شخص آخر لابد أنه كان يحقق معه في علاقتك به .. ولقد أراد حسنين ان يبرىء نفسه من هذه التهمة

فطلبك في التليفون ليوجه اليك هذه الاسئلة وتولى هو الاجابة عليها ولكن بطريقة يفهم منها الشخص المذكور أنها اجابتك أنت ..

وصاحت اسمهان غاضبة :

— تهمة ؟.. معرفتي تهمة ؟..

وانطلقت رحمها الله تسب وتشتم .. ثم كأنها تذكرت شيئاً كانت نسيته ، فسألتني ..

— ومن يكون هذا الشخص الذي يحقق مع حسنين ؟

قلت :

— الملكة نازلي ..

وزال في الحال غضب اسمهان . وابتسمت غبطة وسروراً !.. فقد ارضى كبرياءها أن تكون غريمتها التي تغار منها هي صاحبة الجلالة الملكة نازلي.

واضطر حسنين بعدئذ أن يقتصد في إعجابه باسمهان وأن يكف عن زيارتها في دارها واستقبالها في داره ..

وقابلت اسمهان هذا الفتور من جانب حسنين بعدم المبالاة . أو على الأقل تظاهرت بعدم المبالاة ومع ذلك فقد كان لا يمر شهر دون أن يتحدث الاثنان معاً بالتليفون .. وكان هذا الحديث بالتليفون يطول ساعات . كان يسمع لها مثلاً اغنية جديدة من الاذاعة ويطلبها في دارها بالتليفون ويبدي إعجابه بالأغنية .. ويشرح لها مافي الاغنية من قوة أو ضعف .. ويقترح عليها كذا وكيت .. وقال لها ذات مرة أن صوتها هو أصلح صوت لغناء قصائد المرحوم الشيخ علي محمود بل انها تغني قصيدة : « يا نسيم الصبا تحمل سلامي » خيراً مما يغنيها الشيخ علي محمود نفسه .

وكانت اسمهان تلقاه مثلاً في حفلة ساهرة تغني فيها ويكون هو بين المدعوين إليها . ثم تلاحظ أنه غادر الحفلة قبل نهايتها فتعود الى مسكنها وتطلبه بالتليفون لتعاتبه وتسأله هل صوتها لم يعد يعجبه وإلا فلماذا غادر

الحفلة قبل أن يسمع الوصلة الأخيرة ؟!
وهكذا .. ولكنهما كفا عن تبادل الزيارات ..

* * *

وغادرت اسمهان مصر في شهر مايو عام ١٩٤١ الى سوريا لكي تقوم بالمهمة التي عهد بها إليها قلم المخابرات البريطانية في الشرق الاوسط .
وانقطعت بطبيعة الحال علاقتها باحمد محمد حسنين .
كذلك لا اعتقد أنها كتبت اليه او أنه كتب إليها بعد ذلك أو أنها اتصلت به اثناء زيارتها لمصر مع زوجها حسن الاطرش ولكنها — وبعد طلاقها نهائياً من زوجها حسن الاطرش وعودتها الى مصر في اوائل عام ١٩٤٤ — عادت واتصلت باحمد محمد حسنين .
واروي الحوادث بالترتيب ..

* * *

كانت اسمهان او آمال الاطرش قد ضاقت بحياة الزوجية وما تفرضه عليها من قيود . كما ضاقت بغيرة زوجها حسن الاطرش وبالحياة المملة الرتيبة في دار زوجها بالسويداء عاصمة جبل الدروز .. ومن هنا راحت تلتمس أوهى الأسباب للسفر حيناً الى بيروت وحيناً الى القدس .. حيث الحياة مرحة طليقة لا قيود ولا رقابة زوج محب غيور !..
بل وأمكنها أن تقنع زوجها حسن الاطرش بالحضور معها إلى مصر مرة ومرتين . ونشرت الصحف خبر حضور سعادة الأمير حسن الاطرش محافظ جبل الدروز ومعه زوجته الاميرة آمال الاطرش !

* * *

عادت إذن إلى مصر .. في صحبة زوجها وفي يدها جواز سفر دبلوماسي

أعطته إياها سلطة الانتداب الفرنسي في سوريا بصفتها زوجة زعيم درزي كبير ومحافظ لجبل الدروز .

وكان الأستاذ زكي سعد وقتئذ ، كما قدمت في فصل سابق ، مديراً لإدارة الجوازات والجنسية .. وأنا أعرف مما سمعته منه — شخصياً — أنه لم يكن يحسن الظن كثيراً بالمطربة اسمهان ، وأنه كان يعارض في إقامتها بمصر . وكان يرفض تجديد الاذن لها بالإقامة .

ولكن ها هي ذي اسمهان تعود إلى مصر .. والأستاذ زكي سعد لا يستطيع أن يمنعها من الدخول . فقد عادت بصفتها زوجة لرجل له جاهه ونفوذه ومقامه الرسمي في قطر عربي شقيق .

وطابت لها الاقامة في مصر .. ولما عادت إلى سوريا مع زوجها بعد الزيارة الأولى .. غادرت مصر وهي كارهة .

وفي الزيارة الثانية لمصر .. كانت اسمهان قد انتوت أمراً وهو ألا تعود مع زوجها إلى جبل الدروز ..

وطلبت منه أن يطلقها . ورفض هو الطلاق . وهنا فعلت ما كانت تفعله كل مرة تريد فيها الطلاق .. وهو محاولة الانتحار وتناولت عدداً كبيراً من أقراص الاسبيرين .

وطلقها زوجها حسن الاطرش .. وتركها في القاهرة وعاد وحده الى جبل الدروز .

وغاب عن اسمهان أن زواجها كان « حصانة » لها عند سلطات الأمن وإدارة الجوازات .. فلما طلقت سقطت عنها « الحصانة » المذكورة .

ولم يتردد الأستاذ زكي سعد من أن يصدر أمره بخروجها من مصر .. وخرجت اسمهان من مصر .. وسافرت الى القدس وأقامت كعادتها في فندق الملك داود .

وكانت تمضي أيامها في التنقل بين بيروت « فندق سان جورج » وبين القدس .. ولكنها لم تجرؤ على العودة إلى سوريا أو جبل الدروز

لأنها كانت تعلم أن زوجها السابق الامير حسن الاطرش حاقد عليها وأنه صاحب نفوذ وسلطان وأتباع موالين مخلصين مطيعين له طاعة عمياء .

وأن رصاصة طائشة – أو يقال عنها كذلك في محضر التحقيق – قد تصيب منها مقتلاً !

ومن هنا وزعت أيامها كما قلت بين القدس وبيروت .. ولم يلبث المال الذي كان بيدها أن تبدد فقد كانت رحمها الله مسرفة كل الإسراف وجاء يوم عجزت فيه عن تسديد حساب الفندق .

وحجزت إدارة فندق الملك داود على حقائب ثيابها واضطرت اسمهان أن تبيع الحلي القليلة التي كانت تقتنيها وأن تقترض من هنا ومن هناك ..

* * *

وبينما هي في هذه الورطة أو هذه المحنة زار القدس الأستاذ اسكندر الوهابي وكان يشغل يومئذ منصباً كبيراً بوزارة الخارجية المصرية .. وأعجب باسمهان وسحره وصوتها وفتنتها .

وكان طبيعياً أن ترجوه اسمهان أن يتوسط بما له من نفوذ في أمر السماح لها بالعودة إلى مصر .. لكي تستأنف الغناء والعمل في السينما .. وعاد الأستاذ اسكندر الوهابي إلى مصر وتحدث إلى الأستاذ حسين سعيد خال الملكة فريدة – وكانت لا تزال يومئذ ملكة مصر – وأطنب له في وصف اسمهان وفي جمال صوتها وفي فتنتها وسحرها .. الخ .

وكان الأستاذ حسين سعيد يشغل يومئذ منصب مدير ستوديو مصر للسينما . وسافر حسين سعيد إلى القدس وقابل أسمهان .

ووقع بدوره أسير فتنتها وسحر صوتها .

ووقع معها – بالنيابة عن ستوديو مصر – عقداً للعمل في الأفلام التي تنتجها وتخرجها شركة مصر للسينما والتمثيل ونص في العقد على أن أجر

اسمهان عن عملها في أول فيلم هو ثلاثة عشر ألف جنيه ، وهو مبلغ يزيد كثيراً على الأجر الذي كانت تحصل عليه كبيرات الممثلات والمطربات في ذلك الوقت .

وعاد الأستاذ حسين سعيد الى القاهرة ليبذل مساعيه الحميدة من أجل الإذن لاسمهان بالعودة الى مصر ، وسمعنا يومئذ أنه بذل هذه المساعي عند السيدة حرم « رفعة » رئيس الوزراء يومئذ مصطفى النحاس «باشا» .

ونترك القاهرة .. ونعود الى القدس .. حيث كانت أسمهان لا تزال مقيمة بفندق الملك داود في انتظار وصول الإذن لها بالعودة إلى مصر .

هذا وقد سددت ديونها للفندق من العربون السخي الذي حصلت عليه بموجب نصوص عقدها مع شركة مصر للسينما والتمثيل .

وذات يوم نزل بالفندق الأستاذ احمد سالم والفنانة المعروفة تحية كاريوكا وكلاهما كان صديقاً لأسمهان .

غير أن تحية لم تلبث أن غادرت القدس وعادت إلى لبنان وحلب لاحياء بعض حفلات الرقص التي كانت تعاقدت عليها .

وتركت احمد سالم في القدس ينتظر عودتها .. ولكنها عندما عادت من حلب وجدت أن احمد سالم قد تزوج اسمهان بعقد زواج شرعي صحيح !

* * *

ونعود الآن إلى القاهرة والى إدارة الجوازات والجنسية .. وجدت الإدارة المذكورة أن أمامها طلباً قوياً مؤيداً بأسباب قوية مشروعة .. هذه السيدة – اسمهان – كانت تعمل في مصر وفي محطة الاذاعة كمطربة محترفة .. وأفراد أسرتها .. والدتها وشقيقاها الاثنان يقيمون في مصر ..

.. وبيدها عقد اتفاق على العمل مع شركة مصر للسينما والتمثيل ..

ثم هي أصبحت بموجب عقد شرعي صحيح زوجة لمصري هو احمد سالم « رحمه الله » .

وفوق هذا وذاك لا يمكن لها أن تغفل وساطة أو شفاعة السيدة حرم رئيس الوزراء .

وأخيراً لا آخراً بسبب قوي آخر لعله أقوى الأسباب . وقد قص عليّ الأستاذ زكي سعد نفسه هذه التفاصيل ونحن في قطار القاهرة — دمياط ذات يوم في صيف عام ١٩٤٥ . قال سيادته — وهو كما قدمت لم يكن يحسن الظن كثيراً باسمهان — قال لي :

— كان في إمكاني ألا أقيم أي وزن لعقد اسمهان مع ستوديو مصر للسينما . وأن أرفض الإذن لها بالعودة إلى مصر .. كذلك لم يكن لزواجها من احمد سالم أي وزن من الجهة القانونية لأن اسمهان رعية أجنبية والقانون يومئذ لا يعترف بزواج المصري من أجنبية إلا بعد موافقة وزارتي العدل والداخلية .. فإذا لم يحصل الزوجان على هذه الموافقة فإن زواجهما لا يمكن أن تترتب عليه أية نتائج بالنسبة لنا في إدارة الجوازات الجنسية ..

ومضى الأستاذ زكي سعد في حديثه وقال :

— كان يمكنني إذن أن أرفض الإذن لها بالدخول إلى مصر ولكني تلقيت تقريراً من قنصلية مصر بالقدس جاء فيه أن الأمير حسن الاطرش أقام قناصة من الدروز على الحدود بين فلسطين وسوريا وأمرها باطلاق الرصاص على زوجته السابقة اسمهان إذا هي حاولت العودة . وهذا الخطر القاتل قد يكمن لها كذلك عند حدود لبنان — فلسطين ! ولهذا السبب راجعت نفسي وضميري إذ لم يكن في استطاعتي أن أحكم بالنفي المؤبد على اسمهان في القدس أو بالموت إذا هي حاولت مغادرة فلسطين إلى سوريا أو لبنان ..

راجعت نفسي وسمحت لها بدخول مصر والإقامة فيها وقد زارتني في مكتبي عقب وصولها الى القاهرة فحدثتها طويلاً عن السبب الحقيقي

الذي حملني على السماح لها بدخول مصر ثم قلت لها « إننا نعدك ابنة لمصر لأنك أمضيت فيها من سني حياتك أكثر مما أمضيت في وطنك .. ولا مانع عندنا مطلقاً من أن تقيمي في مصر ما شاءت أو طابت لك الإقامة فيها ولكن على شرط ألا تسمع عنك السلطات إلا ما يسرّ » .

* * *

وهكذا عادت اسمهان إلى مصر ..

ولقد فهمت هي من حديث الأستاذ زكي سعد معها أن السماح بالعودة لها إلى مصر لم يكن بسبب عقدها مع ستوديو مصر .. ولا بسبب زواجها من احمد سالم .. وكانت قد تزوجته لكي تستطيع العودة الى مصر .. ليس إلا !

ولكن هذا الزواج لا دخل له بموضوع إقامتها بمصر .. ولا يقدم ولا يؤخر كما فهمت من حديث مدير الجوازات والجنسية .

وكان لهذه الحقيقة أثر في نفس اسمهان . أثر لم يلبث أن بدا في سلوكها مع زوجها احمد سالم ، وذلك أن أسمهان بدأت تضيق بحياة الزوجية وبقيود الزواج وبغيرة احمد سالم وبسؤاله أين كانت ؟ .. وأين أمضت سهرتها ؟ ومع من ؟.. ومن الذي كان يحدثها بالتليفون ؟.. ولماذا قطعت حديثها التليفوني عندما دخل ؟!

وبدأ الخلاف والخصام بين الزوجين ..

وذات يوم .. ذهبت اسمهان إلى مسكن تحية كاريوكا تطلب مقابلتها .

وكان طبيعياً أن تعجب تحية وتدهش .. ما سر هذه الزيارة وما وراءها ؟.

لقد كانت آخر مقابلة بينهما – بين تحية وأسمهان – بفندق الملك داود بالقدس يوم عادت تحية من حلب « سوريا » ووجدت أسمهان قد اختطفت منها احمد سالم وتزوجته ..

وكان شتم وسب وخصام بين اسمهان وتحية !

وها هي اسمهان تزور تحية .. وتطلب أن تقابلها ! وتحية طيبة القلب ..

ولقد رحبت باسمهان وأحسنت استقبالها .

وقالت اسمهان :

– عاوزة منك خدمة ..

– بكل سرور ..

قالت :

– عاوزة تطلبي احمد سالم اليوم بالتليفون الساعة كذا .. وسوف أرد أنا على التليفون .. وتطلبي مني أن تكلمي زوجي احمد سالم ..

وشرحت اسمهان لتحية السر والسبب ..

ووافقت تحية .. وأية امرأة لا توافق في مثل ظروفها على السخرية والهزء من رجل كان تخلى عنها من أجل امرأة أخرى ..

وكانت اسمهان واحمد سالم يعيشان معاً في ذلك الوقت في « فيلا » استأجرتها اسمهان بشارع الهرم .

* * *

وفي الساعة المحددة دق جرس التليفون عند اسمهان وكان زوجها احمد سالم موجوداً معها . وتناولت هي السماعة ..

وسمعها احمد سالم تقول : « أيوه موجود ! » ومين عاوزه ؟! وعايزاه ليه ؟ طيب .. حاضر .. ماتزعليش .. آهو جاي يكلمك ! »

ثم التفتت إلى احمد سالم وقالت بابتسامة ذات معنى أو معان :

– تحية كاريوكا عايزة تكلمك ياسي احمد !

وكانت مفاجأة للمسكين .. وقام وتناول سماعة التليفون وقد وقفت بجانبه اسمهان .. تنصت إلى الحديث ..

ولم يكد احمد سالم يقول (آلو) حتى انطلقت تحية بصوت عال مجلجل تعاتبه وتوبخه على إخلافه وعوده ومواعيده وتقول له إنها لم تطلب مقابلته وأنه هو الذي طلب مقابلتها وألح وألحف في الرجاء حتى قبلت ؟!

وحددت له الساعة فلماذا لم يحضر في الميعاد المتفق عليه ؟. ودي مش أخلاق .. ومش آداب .. الى آخره ..

هذا والمسكين فاغر فاه — وقد أخذته المفاجأة — لا يعرف ماذا يقول !

وأنهت تحية حديثها وقطعت المواصلة التليفونية .. ولم تترك له اسمهان وقتاً يفيق فيه من دهشته .. بل أخذت بخناقه تهزه بعنف وتقول له :

— يا أنا .. يا أنت في البيت ! مش ممكن أعيش معاك .. طلقني !

ومشهد عاصف .. وبكاء ودموع .. وأقسام وأيمان .. وأسرع احمد سالم — رحمه الله — الى غرفة الحمام وتناول زجاجة فيها مطهر مما يستعمله النساء في بعض أمورهن وأفرغ ما في الزجاجة في جوفه يريد الانتحار ..

وعلا الصراخ والعويل .. ودقت تليفونات .. وأسرع إلى « الفيلا » أصدقاء وصديقات الزوجين .

وحضر الطبيب على عجل .. وغسلت معدة الزوج المسكين وتم الصلح بين احمد واسمهان ..

وخرجت أسمهان من المعركة .. في شكل « شهيدة » يخونها زوجها .. ويغازل امرأة اخرى .. ومع ذلك تصفح عنه وتغفر له وترضى بالحياة معه

ومن حق هذه الزوجة بعد ذلك أن تقول لزوجها « حسبك » ولا تشدد معي في الحساب أين كنت ومع من كنت !..

ولكن احمد سالم لم يكن ذلك الزوج .. فقد مضى يدقق في الحساب ويحاسب زوجته عن كل صغيرة وكبيرة وعن كل ساعة لا تمضيها معه .. أين كانت .. ومع من كانت !..

وأخيراً داخله الشك في أمرها .. ولكنه لم يصارحها بشكوكه .. بل مضى يراقبها ويتبعها دون أن تعلم !

ورآها — دون أن تراه — رآها تخرج من دار حسنين باشا بميدان عبد المنعم في الدقي ..

وذهب إلى دكان بقالة قريب وطلب حسنين باشا بالتليفون في داره ..

ولما رد حسنين قال له إنه لا يعرف كيف يبدأ حديثه .. فهو يحترم حسنين باشا ويقدر صفاته الممتازة .. ولكنه كزوج يغار على زوجته وله حقوق ..ثم قال :

– ومن حقي أن أسأل رفعتك ماذا كانت تفعل زوجتي عندك ؟.. ولماذا تزورك من غير علمي ومن غير إذن مني ؟.. بل – وأنت جنتلمان – لماذا تستقبل في دارك سيدة متزوجة من غير أن يكون زوجها معها ؟..

فإذا كنت دعوتها لزيارتك فإن من حقي أن اسألك لماذا لم تدعني معها ؟.. وإذا كانت هي قد زارتك من غير أن تدعوها فإن المسألة تحتاج إلى تحقيق في الأسباب والظروف ..

إلى آخره ..

وأصغى حسنين إلى « عتاب » أو حساب احمد سالم في صبر حليم . ولما تكلم كان في صوته حزن وأسف !

حزن وأسف المظلوم البريء الذي اتهمه احمد سالم في أغلى ما يعتز به وهو شرفه وعفته ونزاهته !

وكان حسنين رحمه الله ممثلاً قديراً ..؟!

قال بصوت هادىء حزين :

– عيب يا احمد ! دا أنت زي ابني . ومراتك زي بنتي .. وأنا كنت فاكر أنها قالت لك وأنك عارف بزيارتها لي ..

ومضى حسنين يقول : إنه – مثل جميع من في البلد – يعجب بصوت آمال ويهمه حقيقة ألا تغني إلا ما يوافق طبقات صوتها ..

ومضى حسنين باشا رحمه الله في حديث فني عن الموسيقى والاغاني والصوت وطبقاته :

ثم قال : إن آمال زارته لكي تستأنس برأيه في أغاني فيلمها الجديد القادم .. « وكان فيلم غرام وانتقام » .

وانتهت المحادثة !

وتظاهر احمد سالم بأنه صدق حسنين واقتنع .. ولكنه — طبعاً — لم يصدق حرفاً مما قاله حسنين ..

وعاد إلى داره أو دار أسمهان ليسألها لماذا زارت حسنين باشا ولماذا لم تستأذنه في هذه الزيارة ؟

وأجابت بأن حسنين صديق قديم وأنها عرفته من قبل أن تعرف احمد سالم .. وليس في نيتها أن تقاطع أصدقاءها القدامى من أجله .. كما أنه ليس من عادتها أو طبعها أن تستأذن أحداً في زياراتها .. وأنها حرة تزور من تشاء في أي وقت تشاء ..

— وإذا لم يعجبك هذا .. فأنت حر ! وطلقني وأرح بالك وبالي ..

وكلام كثير في هذا المعنى .

ومرة أخرى حاول المسكين الانتحار .. وأسعفوه وأنقذوه .

١٤

النهاية

وبدأ احمد سالم يسرف في شرابه .. يحاول أن يخدر أعصابه الثائرة .

وكانت اسمهان كذلك تدمن الشراب ..

وهكذا مضت الحياة بينهما في شراب وعراك .

وذات مساء انتصف الليل ولم تعد اسمهان . وجلس احمد سالم ينتظر ..

والساعة الأولى صباحاً ولم تعد اسمهان ، وتناول احمد سالم التليفون وسأل عنها في دار صديقة لها ـ كانت تكثر يومئذ من التردد عليها ـ وقالت الصديقة المذكورة إن اسمهان كانت زارتها بعد ظهر اليوم ولكنها انصرفت قبل الثامنة مساء ..

وأخيراً .. وفي نحو الساعة الثالثة صباحاً عادت اسمهان ووجدت زوجها قائماً ينتظر ! وشيء ما في عينيه أخافها وحبس ألفاظ التحدي في فمها .

سألها أين كانت .. فتلعثمت واضطربت . وأخيراً قالت إنها كانت عند صديقتها فلانة !

وذكرت اسم الصديقة التي كان احمد سالم سألها وعرف منها أن اسمهان

تركتها قبل الساعة الثامنة مساء !

قال رحمه الله وهو يصر على أسنانه :

– كنت عندها لدلّوقت ؟

قالت : نعم ..

قال : ولكن سألتها عنك فقالت إنك انصرفت قبل الساعة الثامنة ؟

وسكتت اسمهان .. فقد أحست للمرة الأولى بالخوف من زوجها احمدسالم!

وعاد يسألها :

– كنت فين لدلوقت ؟.. عند حسنين ؟..

ووثب واقفاً .. ولكنها كانت أسرع منه الى الباب ! وكان رحمه الله قد أخرج من جيبه مسدساً .. صوبه إليها وهي تجري وأطلق النار . ولكنه لم يصبها .. وهربت اسمهان ولجأت الى دار أحد جيرانها حيث أمضت ما بقي من الليل .

واتصلت بالتليفون باللواء سليم زكي حكمدار بوليس القاهرة يومئذ وكانت صديقة له ولأسرته وأبلغته أن زوجها احمد سالم أطلق عليها الرصاص يريد قتلها وطلبت منه أن يحميها .

وأوفد اللواء سليم زكي رحمه الله الأميرالاي إمام ابراهيم ليحاول إصلاح الأمر ما بين الزوجين . وكان سليم زكي يعرف بحكم صداقة أسرته لاسمهان أو آمال الاطرش .. كان يعرف كل ما يحدث في بيت الزوجية ..

* * *

وذهب الأميرالاي إمام ابراهيم الى « الفيلا » التي كانت أسمهان تقيم فيها هي وزوجها احمد سالم ..

ووجد احمد سالم متمدداً فوق فراشه .. وقد شد فوقه الغطاء .. وكأنه يحاول أن يخفي تحته شيئاً ما كان بيده !

وانطلق احمد سالم يسب ويشتم في اسمهان وفي حسنين باشا وحاول

إمام ابراهيم أن يهدىء من ثورته .. ثم حاول أن يقترب منه ، ولكن احمد سالم صاح به أن يقف في مكانه ولا يقترب وأعلن أن بيده مسدساً وانه سوف يطلق الرصاص على كل من يحاول القبض عليه !

ودارت مناقشة بين الرجلين ..

إمام ابراهيم يتكلم بهدوء ولطف يحاول أن يهدىء من ثورة احمد سالم وأن يقنعه أن ليس هناك ما يخشاه .. ويحاول في نفس الوقت أن يقترب قدماً بقدم وخطوة بخطوة من الفراش الممدد فوقه احمد سالم !

واحمد سالم يصف اسمهان بأقبح النعوت وروى ما فعلته وما لا تزال تفعله معه وكيف أنها تخونه مع احمد حسنين .

.. وفي لحظة ما اعتقد إمام ابراهيم أنه أصبح على قرب كاف من الفراش . فوثب على احمد سالم محاولاً الإمساك بيده التي تمسك بالمسدس . .

وانطلقت رصاصة أصابت الأميرالاي إمام ابراهيم وأعقبتها رصاصة أخرى دخلت في صدر احمد سالم واستكنت في إحدى رئتيه !

وكانت الضجة الكبرى .. وخرجت الصحف تحمل العناوين بالبنط الكبير وتروي مأساة احمد سالم واسمهان !.

ولكن الصحف لم تنشر شيئاً من أقوال احمد سالم عن احمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك .. لأن البوليس والسلطات كتمت الأمر عن الصحف ورجال الصحافة .

• • •

ونقل الجريح احمد سالم تحت الحراسة – اي مقبوضاً عليه – الى مستشفى قصر العيني وقد بقى أياماً عديدة في خطر الموت ..

وقد وجهت اليه تهمة الشروع في قتل زوجته اسمهان .. وتهمة اخرى وهي مقاومة واطلاق الرصاص على الاميرالاي امام ابراهيم اثناء القيام بواجبه .

وكان ذلك في اوائل شهر يوليه من عام ١٩٤٤ .

* * *

وكانت اسمهان تعمل وقتئذ في ستوديو مصر وتقوم بدورها في فيلم « غرام وانتقام » أمام الاستاذ يوسف وهبي . وذلك تنفيذاً لعقد الاتفاق الذي كان حرره معها الاستاذ حسين سعيد في مدينة القدس كما سبق القول .

وكان طبيعياً أن تشعر اسمهان بالتعب والارهاق .. وخصوصاً بعد حادث اطلاق الرصاص عليها .

ومن هنا استأذنت من يوسف وهبي في السفر الى رأس البر لكي تمضي فيها بضعة أيام على شاطيء البحر في ضيافة صديقة لها .. هي في الوقت صديقة لي .

وكانت عشة الصديقة ، المذكورة تقع مباشرة خلف عشتي .. كما ان مظلتها او « الشمسية » على البلاج او الشاطيء كانت بجوار مظلتي ..

وسمعت أنا أن اسمهان ستقدم في يوم الجمعة ..

وقلت للسيدة الصديقة والجارة أنني والحالة هذه سأترك رأس البر الى القاهرة ولا أعود الا بعد ان تغادر آمال الاطرش رأس البر ..

وسألتني الصديقة الجارة بابتسامة ساخرة هل أنا خائف من آمال ؟.

قلت : لا .. ولكني أخاف الاقاويل .. ولسوف يرى الناس هنا آمال جالسة تحت « شمسيتك » على البلاج .. ويرونني جالساً على بعد خطوات منها تحت « شمسيتي » وتذهب بهم الظنون كل مذهب وتنتشر الاقاويل ..

وكانت الصديقة المذكورة تحب آمال الاطرش كما لم تحبها صديقة اخرى .

ومن هنا راحت تراجعني في رأيي وتلح علي أن أبقى ولا أغادر رأس البر ..

.. وتقول أن اسمهان قد تخلصت من احمد سالم .. ومن قبله تخلصت من زوجها حسن الاطرش ولم يعد هناك الآن ما يحول دون لقائنا .. وعودة صداقتنا الى ما كانت عليه .. الى آخره

ولكنني سددت اذني وصممت على مغادرة رأس البر وعدم العودة اليها إلا بعد ان تتركها اسمهان ..

وحل يوم الجمعة وكان ١٤ يوليه .

وكان ينزل ضيفاً عليّ يومئذ في عشتي الصديقان احمد الصاوي محمد وتوفيق الحكيم .

وبعد تناول طعام الغداء .. غادرنا العشة في طريقنا الى دمياط لكي نستقل منها القطار الى القاهرة ..

وتوقف القطار في محطة المنصورة .. وكان صديقنا الصاوي جالساً وأمامه طبق (عجه محشوة بالمربى) وهو طبق فرنسي ثقيل .. ولكنه من مختارات صديقنا في الطعام الخفيف !

هذا بينما كان توفيق الحكيم يرتشف من قدح شاي .. ويحدثني في موضوع مقاله القادم عن « حماره » او حمار الحكيم ..

كنا هكذا .. عندما دخل علينا خادم عربة البولمان يروي لنا الحادثة — او الفاجعة — التي راحت ضحيتها المطربة اسمهان منذ ساعات قليلة .. على مقربة من مدينة المنصورة .. أي على اوائل الطريق بين طلخا ودمياط ..

وبهتنا جميعاً .. ووجمنا ساكتين ..

وفي رأسي مرق شريط طويل من الذكريات .. ذكريات أعوام ثلاثة .

* * *

وهكذا انتهت حياة اسمهان أو ايميلي الاطرش ..

وفي يوم ١٤ يوليه ١٩٤٤ ..

والذي لم يذكره أحد .. بل ولا يعرفه أحد هو أن اليوم المذكور ١٤ يوليه هو يوم عيد ميلاد ابنتها الوحيدة كاميليا !

فهرست

	صفحة
مقدمة	٧
كيف عرفت اسمهان ؟	١١
العقد النفسية التي كانت تحكمها !	٣٧
تركتها وسافرت الى اوروبا	٦٣
اسمهان لم تعرف الحب !	٧٩
حياتها العائلية المضطربة	٩٧
زواجها وطلاقها من بدرخان	١١٩
آمال الاطرش اميرة جبل الدروز	١٤١
حياتها المحمومة	١٦٥
اسمهان تروي قصتها !؟	١٨٥
لماذا تخلى عنها الانجليز ؟؟	٢٠١
لا بد من قطع ما بينها وبيني	٢١٧
وداعـــاً !!	٢٣٣
بداية النهاية ! ...	٢٥١
النهـــاية	٢٥٦
فهرس	٢٧٠



فقيدة الفن المرحومة اسمهان



اسمهان في اول عهدها بالغناء في شارع عماد الدين



اسمهان والى يسارها شقيقها الاستاذ فريد الاطرش والى يمينها السيد تلحمي ممول فيلم انتصار الشباب .
ويرى في الصف الثاني الاول من اليسار الاستاذ احمد بدرخان والى اقصى اليمين الاستاذ بديع خيري



الطفلة ايميلي مع والدتها السيدة عالية



اسمهان عند طلاقها في عام ١٩٣٩

اسمهان تمارس ركوب الخيل
اثناء اقامتها في ميناهوس
في شتاء ١٩٤٠



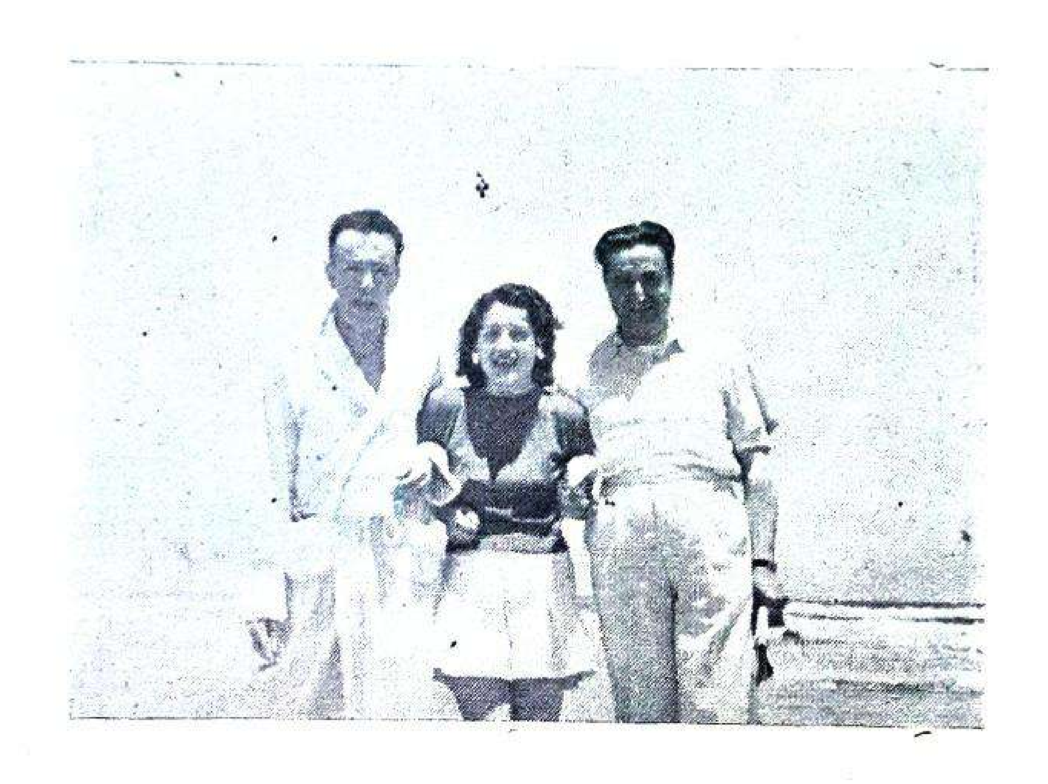
اسمهان وزوجها حسن الاطرش



الطفلة ايميلي في دار ابيها في السويداء



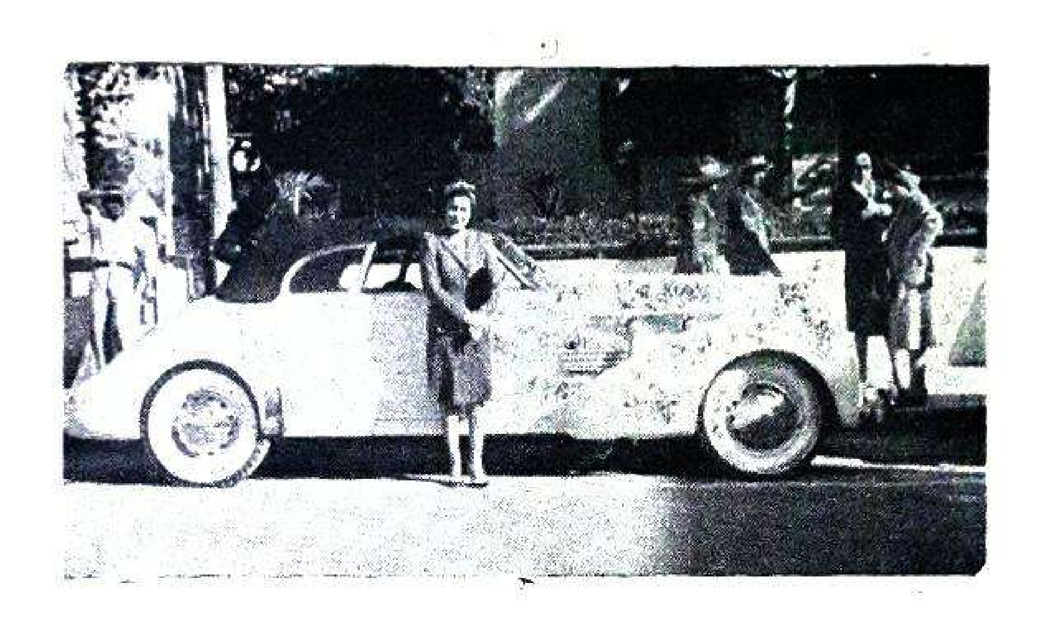
ايملي في سن العاشرة



اسمهان واقفة بين المؤلف وبين المرحوم سليمان نجيب



اسمهان والسيدة امينه البارودي في مقهى بالقدس



اسمهان واقفة امام السيارة التي اشترتها
من السيدة امينة البارودي

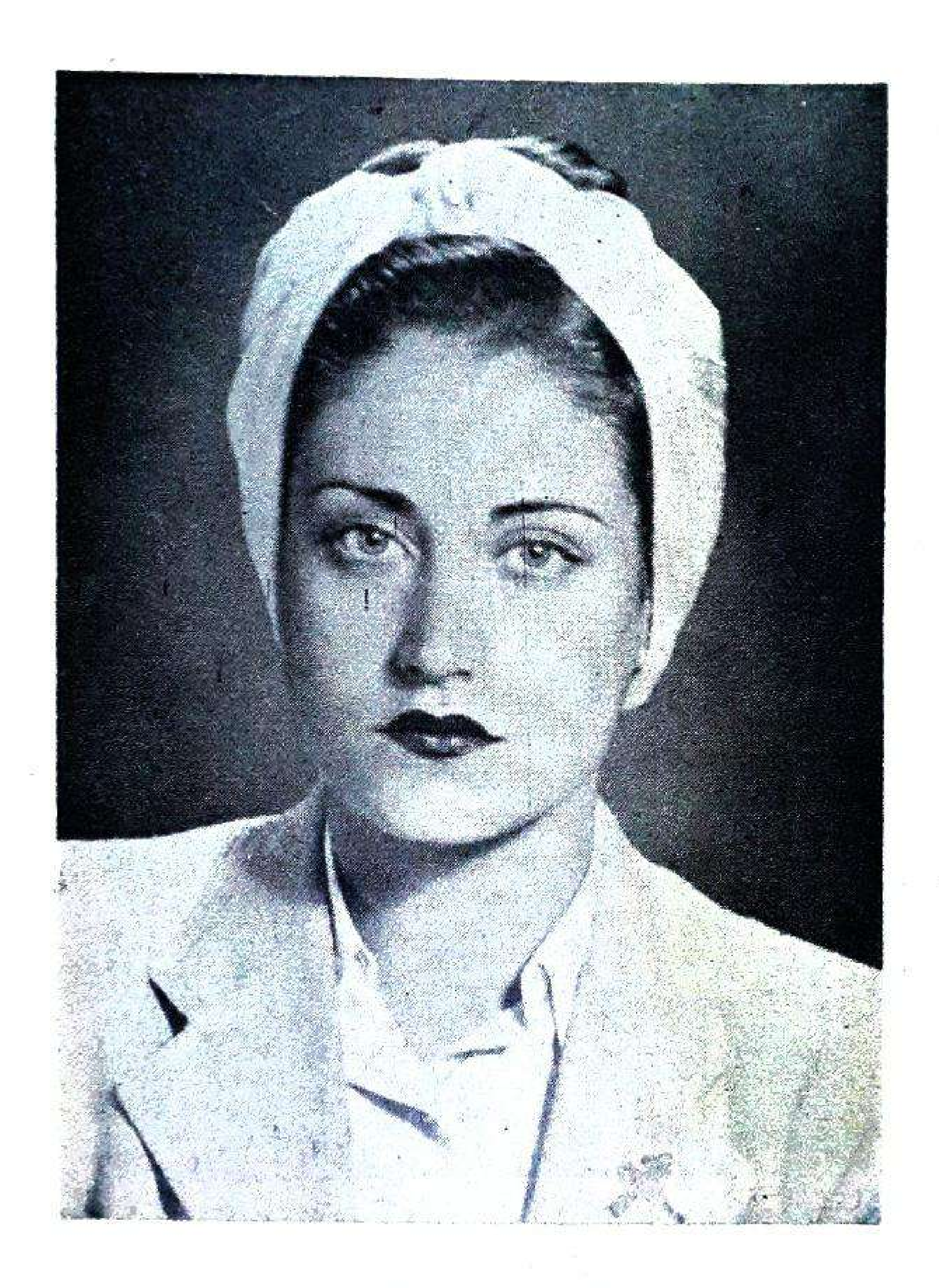


اسمهان وصديقتها امتثال

اسمهان وصديقتها الهام حسين



اسمهان والسيدة فتحية احمد المطربة المشهورة



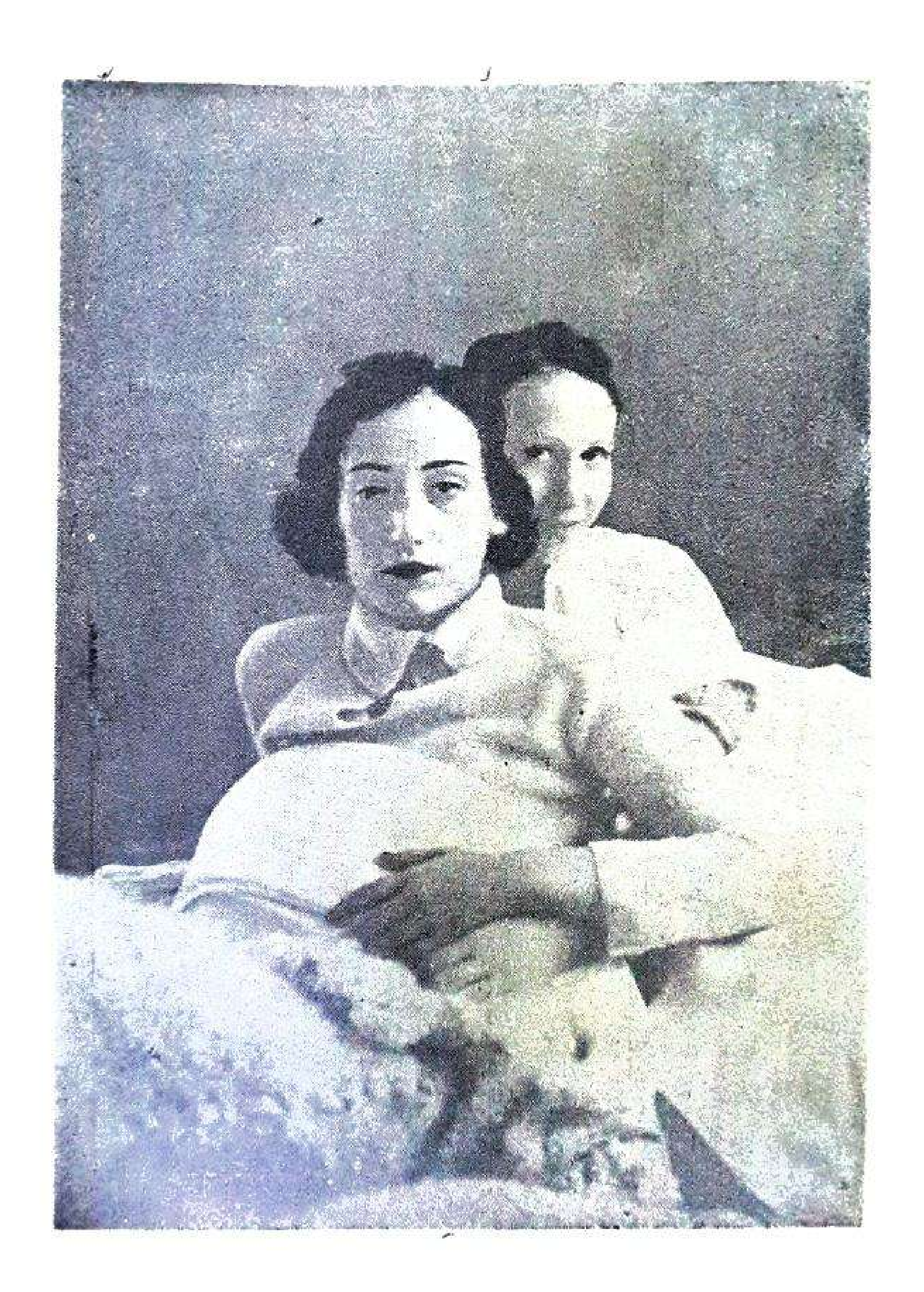
اسمهان في احدى الحفلات اثناء الحرب
وعلى ثوبها شارة قوات « فرنسا الحرة » ...



اسمهان امام كشك في الصحراء بالقرب من الاهرام



اسمهان بملابس السهرة



اسمهان على فراش المرض

صمم الغلاف

الفنان محمود الحولي

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
دار الكتب في بيروت بطريقة مونوتيب
في العشرين من ايار (مايو)
١٩٦١

●



منشورات المكتب التجاري - بيروت

الثمن ٣٥٠ ق.ل .. ٤٠٠ ق.س